NORA AL-GHAMEDI



نورة الغامدي

وجهة البوصلة

وجهة البوصلة

وجهة البوصلة / رواية عربيّة
نورة الغامدي / مؤلّفة من السعوديّة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سمير سيس ®
لوحة الغلاف :
نوال العبد الله / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ :
دار الوطن / السعوديّة
التنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان



نورة الغامدي

وجهة البوصلة



زوجي وأولادي
السكون والأمل

لـذاكـــــــرتـي ....
عــــمــــره...........
ظل الشـــــيـــــرا.....
ولا غــــيــــر ....

١

سيدتي . . ها أنا أهاتفك من جديد لسببين اثنين أولهما : أنني مسافر غداً ، وثانيهما : أنني أريد أن أتصل .

* أنت كالمطر . .
* أي مطر ؟
* مطر «أمل دنقل»

وينزل المطر
ويغسل الشجر
ويثقل الغصون الخضراء بالثمر
. . . .
ينكشف النسيان
عن قصص الحنان
عن ذكريات حب
ضيعه الزمان
لم تبق منه إلا النقوش في الأغصان
قلب ينام فيه سهم
وكلمتان

تغيب في عناق
جنبي . . فراشتان
وأنت يا حبيبي
طير على سفر

*

هل أعتبر هاتفي . . .
. . . . . . .في داخلي مذبحة . . لا . . قلق . . بالضبط لا أدري .
* ابكِ . . .
* لا أقدر – وهذه عادة سيئة تماماً تشبه عادة رفع الهاتف على سيدة تحتمي بأشجار مزرعتها ، وأسوار من الظلمة تحوطها .
* لك عادات سيئة كثيرة . . ولكن هذا العسل المعقود بين مؤخرة اللسان وعظمة الحنجرة ، يقربني من العرش البعيد القريب . . تقول إنك لا تبكي . . فليكن . . الله لا يبكي ، والملائكة لا يبكون . . ودائماً العظماء لا يبكون وحتى الأشياء الأكثر روعة في هذا الكون لا تبكي .
* هل أدعي الكمال . . ! .
* بالضبط . . أنت كذلك . . رفضتك يوماً ببكاء مُرّ وكأن ذلك البكاء اعتذار . . وكأنه رفض للخروج من حالة إلى حالة ، ومن وضع إلى وضع ، ومن مرحلة عمرية إلى مرحلة جديدة .

أحياناً قد تأتيك الأشياء عنوة وتقتحمك . . كالمطر كجيش إصلاح . . كدين جديد . . فمن ثقوب صغيرة تسربت بلا هوية مسبقة . . خفيف كالحلم . . لذيذ لذة حكاية الليل في أسرّتنا الصغيرة يوم كنا نعشق رائحة الجدات المنبعثة من صدورهن الذاوية . . معروقة ولدنة ومفعمة ببقايا عطر قديم ولهفة أفلت . .
. . . في تلك المساءات الكئيبة بعد أذان المغرب ، وبعد أن تقفر الطرق الضيقة الملتفة بين المزارع من الأقدام . . يسقط صوتك . . كما تسقط فراشات المزارع على

النور تحجب . . وتحترق . . تأتي وتذهب - تتوسل النور حرارته والأرض شرانقها .

لوعة الغربة ودوامات من هواء الشتاء . تدغدغ كعب القدم الجاف ويهطل صوتك على قلب .

تسخر مني أذني . . تسخر حلمتها . . طرفها الملتف كجيب يخبىء تحته غبار الماضي القريب .

آه . . أذناي وحلمة الحلق الدائرية .

أذناي قرنا استشعار للعطر . . للرياحين . . للبشارة التي ترفع من درجة حرارة الخدين الذابلة . .

حنجرتك تدق على باب الضلوع . .

* افتحي . . ! .

أنت حنجرة وأنا عروس بحر . . تسبح . . تغرق . . وتتشبث فيما بين العظمة في آخر الحلق ، وما بين مؤخرة اللسان المصلوب في أوله . .

وعروس البحر اعتادت على بحار الملح وأنهار الظلمة . . وهذا العسل المعقود تنفث دفئه شفاه مجهولة ليس لها حضور الحنجرة وزوابعها .

أخضع في ذل لأصوات التوجس التي ترافق وحدتي .

* حذار . . أنت عروس بحر . . مخلوق موهوب للأسطورة والمغامرة وقد تطردك من رحمة السحرة . .

. . وضع حائر .

نصف جسد وحنجرة .

وعروس البحر تذوب في الظلمة المالحة بحثاً عن صدر «الفرو» الذي يدفىء بروز الحنجرة . . أتخيلك وأشعر بملمس «فروك» الذي تحتمي به من برد الشتاء ، وبرد الرغبة إلى ذاك المستحيل . . أمرر أصابعي حول الحافة التي تأخذ شكل الرقم سبعة . . قرنا الاستشعار يتلمسان مساحات من صحراء هاجعة تنذر بجحيم يحول رملها لهباً ، فتنفر في صدر عروس البحر حبتان لم يصن الدهر حسنهما ، الحبتان منذ بدء خلقهما لم ترفعا القبعتين البنيتين إلا حين انفجرت الحنجرة

بعيون عسل مختلف الألوان .

تتحرش بالحبتين الجنديتين . . نبرة تسبح في عسلها الأبيض .

* اشربي . . ! .

* تمهل فما نزال حراساً على جرة الخمر التي لم تُشرب ، وما نزال نسبح في لذة الصدفة ، وهذا المساء الذي يشبه الرسام لكنه يرسم الكلام الذي لا يتراجع . . يخدعنا حين يعقد معاهدة صامتة مع الظلمة . . يدعمه صوتك الذي يحاول أن يفصل ذيل عروس البحر نصفين .

* لن يكون . . ثقي بي ولن أدمي ذيل الحورية . . كما لو كنت جيش إصلاح . . بل كدين جديد يحفر في ثنايا جوفك تعاليم جديدة . . تشريعات مقدسة عن الحب/ الحياة/ الجسد .

* صدري تجاويف أشبه بخلايا تروضها نحلات غامضة تتطاير من زوايا فمك .

* دعيها . . دعي أجنحتها تروض ذيل الحورية . . تعاود إعادة خلق الأنثى .

* تعتقد بأنه سيكون لها جزء أنثى كامل تام . . كصدرها وشفاهها .

* الزمن معك لي . .

يحتد ثم يهدأ . . يتابع بهدوء أكثر .

في أوقات أجد أنك . . كلك صَدَفَة . . وفي أوقات أشعر بك عروس بحر تسكرها ضمة عنيفة تفجر أضلعها ، فيسيل العسل المهدى من بين نهديها . . يسد طريقه وتعرقله حراشيف تحف معالم السّرة وما جاورها . . وفي أوقات أشعر بك أنثى كاملة أُريد أن أبتلعها كأن لم تكن . .

. .يصمت على الطرف الآخر . . تأتي أنفاسه تتمة لصوته ، تتمة لنبراته العميقة ، تتمة لهزله . . لرغباته . . ومن وسط غيبوبة عارية يقول :

* هل هناك شيء تعترضين عليه في حديثي . . أو بالأحرى لا توافقينني بشأنه .

يتابع بلا تحفظ قائلاً :

* بماذا تشعرين في هذه اللحظة ؟ .

* مخدرة . .

* الخدر أنواع !

* كيف ؟

* هناك خدر استرخاؤه شبيه بالنائم . . وهناك استرخاء يحرضك على أن تكتشف كل المناطق التي بداخلك . . وهناك خدر آخر هو هجعة الجسد حيث يقول : لا أريد لأحد أن يلمسني . . فأي خدر تعنين ؟ .

* كأني هواء . . بل دخان . . لا أدري . . لا أدري . . لدي إحساس متعب . . فأنت ستذهب . . ستغلق سماعة الهاتف ، وسأتعب ففي هذه اللحظة أريد أن نكون معاً . . ليس في مكانك ولا مكاني . . لا في فراشك أو فراشي . . وليس في الأرض ولا في السماء . . بل فوق غصن توت يتدلى من نافذة . . من نافذة طولية في دهليز مظلم مضاء ببقايا أضواء المدينة ، تفوح منه رائحة عطر بائت محسوس . . وتنتشر في أرجائه بقايا دخان عود أزرق . . وأنت تلتحف بزرقة السماء ، ووجهك ورقة من أوراق التوت . . لا تراني عينان ، ولا تلمسني شفاه ، تحوطك يداي ، ويحميني صدرك ، وكلما حاولت أن أفلت تشدني وتستبقيني . . ولا كلام .

ساعتها . . كل الأصدقاء سيعقدون حفلتهم كما يشاؤون .

* ألا تشفقين على حفلة الملائكة من شغب البشر ؟ .

* أنت تخيفني . . أفق وإلا هربت بأمنيتي . .

* لست الذي يصحو ، وكأنما هناك زرّ يتحكم به . . تارة يصحو . . وتارة ينام . . فأنا إذا كنتُ في لحظة ربانية لا يوجد هناك قوة تتحكم في صحوي ومنامي ، بل هكذا تأتي الأشياء . . فأنا أريدك الآن معي كلك بدون انتقاء وبدون شروط . . فمدي يديك . .

* إليك . .

* لهف قلبي . .

* اليوم تخيلتك . . وكأنني أتيت إلى مدينتك . . بي حنين إلى المكان لكن «ثامر» قيد إحساسي نحو المدن ، وجيره لحساب الألم وتلف الأعصاب ، ورغم ذلك فما زلت أمارس لعبة الإخلاص . . ألقن نفسي دائماً «ثامر» ولا رجل آخر .

لكن بداخلي هتافاً صغيراً . .

صباح الخير يا وطني .

صباح الخير يا قلبي .

غناء بسيط قلب الأحداث . . كما في السابق بكاء عنيف غير اتجاه البوصلة .

أريد أن آتي إليكم . . أسير في شوارع مدينتكم . . أشم رائحتها أصنع لك قهوة الصباح . . أجاورك على مقعد صغير في المساء .

* اجلسي قربي . . ولا شيء أُريد أكثر من ذلك ، فأنا بقربك شبعان وممتلئ .

وبصوته العسلي يتابع وبالتأكيد الإنسان الممتلئ يستطيع أن يملأ . . وإن أجمل الدعوات هي التي تأتي لأحدنا دون أن يطلبها ، وإنما تأتي بممنونية والآخر يشعر أنها إذ أتت تغمره وما أجمل الأشياء حتى لو كانت حلماً . .

* أجمل ما بيننا ساعات الغروب هذه . .فحنجرتك تجعل عروس البحر تحلم . . تفكر في شيء جميل وتنتظر ، وتجد للانتظار طعماً مغايراً طعم الخروج من الجنة إلى ملكوت المغامرة . . اللاهوية . . حنجرتك بعسلها المعقود تغريني بالذوبان والتحلل .

. . .ضحك على الطرف الآخر وهمس . .

* إنها بوادر حد السكين في ذيل عروس البحر . .

. . . . . .

. . . . . .صمت حيَّر الثقوب التي امتصت أنفاسنا . . قطعه قائلاً :

* أشعر بغربة . . وفي داخلي براكين . .

* ابك . .

* هذا كثير . .

* كيف ؟

* أشعر أحياناً بغربة لدرجة أن كثيراً من الأصدقاء شككني في أمر نفسي ، وبأنني لست طبيعياً ، فأنا لم أبك يوماً ، وربما كان ذلك بسبب رواسب طفولة قاسية . . أو تربية جادة . . لكنني أرى أنه من الممكن أن يحزن الرجل . . ومن الممكن أن يتقطع ألماً وحزناً أما أن يبكي فهذا كثير . . لأن بكاء الرجل لا بد أن يكون نادراً ، وطالما بكى فلا بد أن يكون هناك كارثة . . ولكن أن يبكيه أمر بسيط فهذه مسألة تقتلني غيظاً .

٢

رجلٌ قال هذا . . والحنجرة التي تلغّم صدري كل مساء بما لا يمكن التنبؤ به تُعيده لذاكرتي . .

«عمي» الذي بكى ذات ليلة في قلب الجد الكبير في ليلة صيف حار ، يومها أمسك بيد الطبيب وهو يجر صوته من حبال . . استغلقت وترهلت . .

* هذا كثير . .

الوحيدة التي شهدت بكاءه أنا والطبيب ودمه الذي سال من بين فخذيه . . حافراً في تراب الجد الكبير حفرة عميقة من دم أسود . .

أوجعتني ذاكرتي . .

. .على الطرف الآخر من الهاتف لم يسمعني . . حين رفعت يدي صوب الله . . سيدي . . أتمنى أن لا أشهد يوماً أراه فيه يبكي ، نعم لم يسمعني ، ولم تشعر بي حتى حنجرته التي تلحفني ، وتأخذني في دوامات لا تهدأ ولا ترحم من رغبات محمومة تشبه تلك التي أراقت دم عمي الشيخ وهو في عامه السابع والستين تحت جناح السرية والكتمان . . وهو شيخ بعمر الزمان وحتى تلك اللحظة السرية التي شهدتها لم أستطع أن أحدد له عمراً معيناً أو زماناً محدداً . . كان هو الزمان والمكان . . حين بكى لحظة لمع النصل في يد الطبيب . . نهتة تشبه نفرة الموت الأولى . . فالموت عادة يزور البشر بغتة ، وأحياناً ينذرهم بعلّة يأتي متعللاً

بها ، أما «عبد الرحيم السبتي» فقد تشاور معه أياماً وليالي وأشهراً طوالاً واستضافه وأرقده بين فخذيه ، وأشهده على دمه المهدر في حفرة عميقة وسط الوادي العظيم الذي أهداه صفته الأزلية . . شيخ بعمر الزمان . . نشأ فجأة كبيراً هرماً ، ويوم دخله عنفوان الشباب مات الوادي . . يشبه عمي . . الذي تفرع نسله فلم تعد وجهته واحدة ، لكن حبه واحد وعطاءه عادل .

«السبتي» علّمنا أن الوادي العظيم يسير من بلاد اليمن حتى يغور في الأرض السبخة قال :

هذا الجد ينحدر من القمم في اليمن السعيد ، وعسير العسير ، ويرتاح هنا ، لكنه في هدأته يكون قد تملكه الغضب ، فيأكل نصف مزارعنا ، ويعطينا الرواء . . ويمارس سلطته الأكثر عنفاً ، فيعزل القرى عن بعضها ، ويعيدنا إلى الله . . . وهذا الجد يعلّمنا في كل عام دعاءً جديداً للرجاء والخضوع . ومات «السبتي» وما أكمل لنا سيرة الجد العظيم . .

وتركنا نحن الأبناء ننقب ، وأدركنا أن هناك عداءً خفياً بين «السبتي» والوادي العظيم . فهو يوم قدم من جبال السراة اعترضه الجد الكبير ، ونهب نصف ماله ونصف عبيده ، وابتلع أمه المريضة . «السبتي» أقسم أن لا يردد دعاء الرجاء والخضوع قال : قد سامحت الجد الكبير في مالي وعبيدي ، لكنني سأظل ألعنه لأنه حرم العجوز التي أنجبتني من أن يكون لها قبر معلوم .

أنزل مطاياه وأبقاره المتبقية على ضفة الجد العظيم الغربية ، وسور مكانه بالنخل والأثل فوق أكمة تكشف له بريق صفحة الجد العظيم حين يُقبل مع السحر في هدير يوقظ القرى الهاجعة بعد أيام طويلة من الأمطار المتصلة . .

* في الليل نسمع أخباراً أخرى عن الجد العظيم من فم «بركة» ابنة ابن عم «السبتي» تعقب حكايا جميلة . . تتسلل إلى حيث البسط الممددة والوسائد المتبعثرة تفرق بيد صلبة بين الصبيان والبنات .

* عيب . . تعال هنا . . وأنت ادخلي بين البنات ، تهتز الكينا . . حين تضطرب نسمة ليل جنوبية تحرك أغصان التوت الواقفة بين المسجد وباحات المنزل

الواسعة حيث يتراص الأطفال والنساء الحوامل بحثاً عن هواء يرطب الجلود الجافة .

يتشعب نظر «بركة» نحو السماء ، ونحو الوادي ، وصوب «فضة» التي تحك رأسها الأجعد قائلة :

* الجد العظيم «هو البرزخ» .

* وما «البرزخ» يا عمة ؟ .

* . . . . . .

* . . . . . .

حركة جميلة تخرس الجميع فيعود صوتها . .

* يوسف هناك . .

* أين ؟

* في البرزخ . .

* لكنه الوادي يا عمة . .

* أقسم برأس أبي «عبود» إن يوسف مستخفٍ هناك .

* يوسف . . مات . .

* كل من يموت يحتويه الجد العظيم ، ينشر حوله الحراس من الكلاب والأفاعي .

* لكن «السبتي» يقول : إنه «حرم» ليس للبشر مقام ولا منام فيه .

* . . . . . .

* . . . . . .

تفرك أنفها العريض . . لكني أشم رائحة «يوسف» ، وأسمع أحياناً صوته . . ترفع طرف «شيلتها» وتمسح دمعات قبل أن تضع رأس «فضة» على ذراعها وتنام .

. . .وفي هذا الصيف ، صيف (٩٩) لم تكن الأمطار هي الأمطار ، ولم تعد للجد العظيم تلك الهيبة ، ولم يعد يفزعنا النوم في بطنه ، أو حتى إقامة بيت من الكرتون في عمقه المحشو بأشجار «العشر» و«الرمث» و«الرين الباهت» .

. . . في أول الصيف كنا نلاحق خطوات «السبتي» الضعيفة ، وهو يتجول معتزاً تسنده قدم ثالثة . . عصاه ذات الرأس الفضي ، وزوجة صغيرة تحوم حوله كلما تخاذلت قدماه . .

* زينة . .

* «عونك»

* اسنديني . . .

يجلجل صوته الحي . .

* ما يدوم عظيم . .

وكأنما قد برّد غله الدفين على الجد العنيد الذي بخل على أمه بأن يكون لها قبر معلوم .

تظهر أسنانه في ضحكة غامضة . .

* لقد ألجمه هذاالسد العظيم وكسر كبرياءه . . قبل موته بأيام . . افترشنا معه الأرض الجافة ، وحفرنا بأيدينا في الرمل الناعم . . وهبت هبوب شمالية ملأت أنوفنا وأعيننا بذرات من رمل وقش تراكم على جنبات أشجار «العرعر» و«العرين» .

* نتابع نظرته التي تمسح كل الاتجاهات . . أشار بيده هناك على الضفة الأخرى للوادي كان مسجد العيد بسوره الأصفر ، وبواباته الخضراء ، ولأن الجد العظيم غضب يوماً وأنهكه السير من أقصى اليمن حتى هنا فقد وجه غضبته إليه فاصبح مسجدنا أثراً . .

. .الجالسون حوله لا يعلمون لم يعشق التجول في الوادي الخفيض رغم مرضه البائن والذي ينكره بصلافة ، ويصرّ على اختراق الدغل الموحل أحياناً ببقايا مياه الري . . والجاف في معظم أيام السنة إلى درجة يصعب معه وضع القدم لكثرة حفر الثعابين والزواحف السامة . . يميل برأسه الكبير . . يتابع مدى لا يحده بصره الضعيف . . مدى شاسعاً من النخيل والأعناب وعشش الرعاة وبرك المياه المبنية من الطوب والمسقوفة والتي توزع المياه من الأعلى للأسفل في سرعات متفاوتة . .

. . لم تكن تلك المساحات الزراعية من إرث سيف بن ذي يزن ، ولم تكن حضارة أرقى لغابات الأسود في موقع الجد العظيم . . كذلك لم تكن نبضاً لحياة صاخبة أنبتها انهيار سد مأرب . . فخرج القوم متبعين خطا الجد خطاً تتلوى عبر القفار تهبط من علو ، وتنزل إلى القاع السحيق ، والقوم في أثناء مسيرتهم يموتون فرادى وجماعات . .

ومنهم من ينجو بنفسه فيستقر حيث يجد المأوى ولا يتجاوز ، لذلك بقيت تلك البقعة قفراً إلا من شجر ملتف حول بعضه يخبىء في عروقه مئات الأنواع من الحشرات والزواحف السامة ، وتحيطه نباتات الحلفاء القاسية وأذناب الورل البيضاء . . ووسط تلك الجرات المنسية كان يتخفى الهاربون من الدم إذ ورد أن من عليه رقبة أو دم . . إذا ما عاونه الحظ وساقته قدماه إلى تلك البقعة فإنه يأمن لأن «المريّة» لا يلبثون أن ينكسوا «عُقلهم» داعين عليه باللعنة حيناً وبالرحمة حيناً . . فلقد دخل قبره المحتوم بقدميه . .

ومع مطلع القرن الماضي . . بدأت على ضفاف الجد العظيم تنبت شجيرات صالحة من نخيل وأعناب ، وتنبح حول غرف حقيرة من الطين والتبن كلاب هزيلة تحرس المساحات الصغيرة من الحياة الخفية التي توحي باستمرارها من خلال تلك الهيئة المهيبة التي تجلل ذلك الشيخ الذي زعزع موته قرى الوادي . . ففي آخر مرة خرج إلى قلب الجد العظيم تبعته منذ لحظة خروجه ، ولم يتسن لي أن أنبه نساءه إلى خروجه المفاجىء .

الساعة كانت السادسة والنصف والهجوع الصباحي له لذته في تلك الأيام الشتوية في بلدة صغيرة على ضفاف الجد العظيم ، وكنت قبل فترة قد تسلمت عملاً مغايراً لعملي السابق في إحدى المدارس الكبيرة وسط المدينة التي تبعد عن المكان حوالي عشرين كيلومتراً . . وغالباً ما أستغل الفجر لتحرير بعض الأوراق ، وانتظار الباص الأبيض الذي يهل مع الشروق الأول .

وسط ذلك السكون سمعت نقر عصاه ذات المقبض الفضي ، وفاحت رائحة جسده الغريب في الممر المظلم الواقع بين الدارين . .

* عمي إلى أين ؟ .

* قريب . .

أتذكر أنه قالها بضحكة واسعة . . وفطنت لها والتصقت بالذاكرة ، ولم تفلح الحوادث المتتالية في محوها . .

ومات . .

وبقي الباص الأبيض الذي يخترق سيولة الشمس فوق رؤوس النخيل وسطح دارنا ، وينزلق على حواف الجدران المرتجفة محتمياً ببياضه وبمقعده الأسود ورائحته الدبقة بالعطر والعرق والسجائر والأحذية الرديئة الصنع . .

حياتي كذبة . .

وهذه الحنجرة التي تُعيد تركيب الأجنحة المكسورة . . تقف في منتصف الطريق ، وتشرق مع الشمس . . وتأفل مع القمر . . وتحيي معي مقبرة البلدة كل صباح . .

* صباح الخير أيها الراحلون .

صباح الخير . . قبر «فضة» صباح الخير قبر «السبتي» .

صباح الخير قبر «بركة» صباح الخير أيها الراحلون .

وكأن مقدم الحنجرة أضاف بعداً لأولئك الذين رحلوا والذين جنوا والذين غادرونا بعد أن ذوى الحب وانكسرت اللهفة .

بالفعل الحياة كذبة . .

والسر كربة . .

٣

الحنجرة جزء من أصالة لم تعد موجودة أعادت لزوجتها وضخامة النبرة المتنشية إلى الروح الغافلة . . وجه أمي قبل رحيلها . . صوت «السبتي» يوم قال قبل موته بساعات حين سألته . .

* إلى أين؟

* قريب . .

ضمنت أنه وضع جزءاً منه قرب الحنجرة ورحل . . ورأيت وجه «فضة» يسبح في ماء الحنجرة الكثيف . .

حنجرتك جزء من اللحظات ، ولكن يفرق بينها وبين غيرها . . أنها الشيء الأصيل الذي بُعث ليعبئ الكون الذي لي . . فمجيئك ليس مرهوناً بالظروف . .

أعتقد أنه أحد معالم المكان . . جزء من قبور بلدتنا . . نخيلها ، توتها العتيق ، ومياه آبارها الساكنة في ظلمة المزارع . . لم أكن أعلم أن الرعود مخابئ الرغبة في السماوات . . وأنها حين تتنفس هابطة نحو الأرض تحتك بحنجرتك فتولد شرارة دافئة فوق السرّة وأنت تمطر في هاتف غروبي . .

إذا وجدت أوار الحب في كبدي . .
ذهبت نحو سقاء القوم أبترد

هبنـــي ابتـردت ببــرد الماء ظاهـــره
فـمـــن لنارٍ على الأحـشـاء تتـقـد

صـوتك نتـاج‌تزاوج بين الرعـد والعـسلْ . . لزوجـة غـضـة تغـوص في عـمق أعماقي التي ما كنت أعرفها . .

* أين كنت منذ زمن بعـيـد . . ولمَ تأت الآن . . كـيف غـادرتني كل هذه السنين ثم تأتي وتحوّل كل شيء إلى رعود لا تهدأ جلجلتها وفيضاناتها . .

تقرأ لي أشعار ابن عربي . .

فأتجول بهداك في الصحارى . . بين المرابع ووسط الخيام . . وأحس ببرد التراب يحتوي باطن القدم المرتجفة . . أشرب من فمك ماء «القرب» فتعج في المفاصل رائحة القطران وطعمه اللذيذ اللاذع . . أرى القمر بألوانه . . زهر . . أزرق . . يسبح في الليل ويغازل ذؤابات النخيل وزهر البرتقال الفواح وياسمينات بيتنا القديم الملتف حول شجرة الكينا الضخمة مخبأ «فضة» حين كانت تهرب في الليل من لحافها البارد إلى حضن أبرد . . وتنقر بأصابع خفيفة على نافذتي . .

* تعالي . .

* ماذا ؟ .

تجرني من يدي . . نتعثر في القطط النائمة . . ندوس بالخطأ في بطون القطط الإناث . . تموء بألم . . فيرتجف قلبي . .

* فضة إنها حامل . .

* هوناً . .

تصرّ الأبواب الصدئة خلفنا ونحن نهجر المنزل باتجاه المنحدر الذي يطل على مزارع العنب . .

* لكن الثعابين يا فضة . .

نفترش التراب البارد . . ويصدح صوت «جورج وسوف» بخفوت من «مسجل» صغير في حضنها . .

كلموني تاني عنك . . فكروني . .

صحو نار الشوق في قلبي وفي عيوني . .

تهمس . .

* سنسافر جدة . .

لأول مرة بعد أعوام مرت توجعني «فضة» . . وترش بعشوائية قطرات من العطر الحار على جرح مفتوح لا يزال دمه ينزف أسود مثل مجاري مياه المذبح العطنة في منزلنا القديم . . أحضن صوت «جورج» وسط الظلمة ، وأتعلق وهماً ببقايا كلمات يقولها «ثامر» حين ينتشي وهو يرشف قبلة من شفاه امرأة صغيرة . . يدفئ لهيبها بنفس يسحبه ببطء من «سيجار» نصف محروق . .

. .بلسان ثقيل أردد فرحتها . . بجدة . .

سنسافر جدة . .

* أول الشهر . .

* بداية الإجازة . .

تراود الذاكرة كلمات حفظتها عن ظهر قلب . .

«يمني قلبي بالأفراح

وأرجع وقلبي كله جراح»

«أم كلثوم» صادت بهذا البيت المغنى لب السرّ يا «فضة» .

اقتربت منها . .

* فضة أريد مواصلة الحياة دون ثامر . .

ضحكت من أنفها فها أنا أنفذ.أخيراً رغبة قديمة لمستها في صوت فضة يوم قالت :

* أنت مجرد شيء من كماليات حياته . .

* الأكثر سرية . .

من بين أسناني قلتها . .

وكأنها لم تسمع تابعت . .

* ربما . . ولست وحدك ثم أدارت إسورتها البراقة في يدها هل ترين أنه من

الصعب استبدال هذه . .

* «فضة» تعيش حكاياتي برمتها . . حتى بعد موتها تُسمعُني ما كان يجب أن يكون . . وأنا ليس بمقدوري أن آخذ الوضع ذاته . . لكني أسير خلفها كأنما أنا ظل يلاحق صاحبه بل هو ذاته بينما الشخص المعني هو ظل لحياة لا يدري كيف دخلها . .

بعد موت «فضة» ما عدت أعرف من أنا . . بحثت بشراسة كلبة ضائعة عن منقذ ، عن أذن تحرضني على الكلام ، تساعدني على أن أحتمل مواجهة كوني تمثالاً لرغبة متفجرة لا تفتح أبواب معبدها إلا لرجل واحد ظننته «ثامر» .

فاندفعت إليه مُغيثي قلب «فضة» الذي لم يقرّبه ولم يبعده حتى حواها فراش «حمود» فصمتت . . صمتاً ما عرفت له معنى واضحاً إلا بعد سنوات وبالتحديد في صيف (٩٩) حين ألغيت هاتفي الخاص . . معلنة أن المعبد لن يُفتح ، وأن على المآذن أن تصرخ بما هو معهود منذ أول الأزمان . .

«فضة» يومها ما عادت متواجدة لأشاورها في الأمر ، لكن نقرات أصابعها لا تزال توقظني . .

* تعالي . .

تعودت السفر إلى مدينة بعينها لمجرد أن «ثامر» يسكنها ، وأن نقرات أصابع «فضة» السمراء تدفعني للرحيل خلف أهلي . . ولا أدري ما الذي أجنيه من وراء تلك الأيام الباردة التي أقضيها بين الجدران . .

أو صامتة كصخور البحر . . الذي يندفع نحوي هائجاً ثم لا يمسني . .

٤

تلك الأسفار الروتينية هبة من هبات حرب الخليج ، ومن إيجابياته التي قد فاقت أحياناً في منطقتنا سلبياته . . ولا أدري هل أدمن البدو خلطة كنتاكي السرية ، أو المضغوط الحضرمي ، أو ربما لحم السمك الأبيض الخاص جداً في كبائن أبحر . .

. . تحرق قلبي ذكرى فضة التي كادت تجن حين وطئت قدمها أرض المطار ، صاحت تناديني وهي تهتف باسم المدينة . .

* جدة . .

نهرها «حمود»

* لا تنادي بأسماء النساء يا حيوانة . .

أدركنا الخطأ الفادح الذي ارتكبناه . .

قلت لـ«فضة» أليس اسمي واسمك في الملف المدرسي . . أولم يدرجا في الصحف يوم ظهرت نتائج الثانوية العامة ، ثم أليسا مشاعين بين عمال المزرعة . . ومثبتين في روشتات الأطباء ومكاتب الحجز .

* حيوانات . .

قالها «حمود» مرة أخرى ونحن نصعد خلفه العربة التي تقدمتها أمه وأخته . . .

* آه . . جدة . .

ترتسم صورة «ثامر» على كل حائط فيها . . هو السماء بأكملها ، والأرض الفسيحة التي جعلتها حضنه وصدره . . .

* لا تتحدثي بلساني «يا فضة» أنت لن تخدعيني . .

* وأنت لن تخدعيني . .

* أنا واضحة . . .

* . . . .

العالم يعيش فترة حرب دامية .

وبغداد على حالها .

ما الذي كانت تعنيه الحرب لنا . . لا أدري .

هناك خوف غامض من الموت . .

* «فضة» أظننا سنموت ميتة جماعية . .

ترفع يديها بابتهال

* هل تتمنين الموت ، وحلمك على وشك أن يتحقق ؟ فبعد خمسة أشهر ستصبحين أماً .

* وماذا يعنيك ! .

مطرقة هشمت جمجمتي . . فضة تكرهني مع أنني تركت لها الفراش خالياً . . إنها تمقتني أكثر مما تمقت «عذبة» المرأة الأولى «لحمود» تلك المرأة التي سرقت كل لياليها . . فأسوأ أنواع الحروب عندما تكون بين لصيقين ، بين كائنين يجمعهما مصير واحد . . تاريخ واحد . . رغبات مشتركة . .

بغداد/ الرياض/ الكويت . . «فضة» . . وأنا نتراشق بالموت . . رغم أن بعضنا ضحايا الظروف . . ضحايا الجذور . .

يوم حريق بغداد الثاني . . تفتت أوصالي . . هناك كارثة تحوم حول قدري . . إن لم يكن موتاً محققاً فلا محالة سيكون موتاً معنوياً . .

في الأيام التي تلت القصف على مواقع مستهدفة في بغداد نعق غراب البين

على سهول العشق البكر في صدري . . نقر زهورها . . حولها إلى أقفاص من خوص محروق . .

النبوءة تحققت . . لا بد أن تلتهم النيران مع بغداد امرأة لا تعرفها وجهة البوصلة . . .

فبعد الضربة الأولى بأعوام قليلة توغلت النار القاتلة نافثة سمومها باحثة عبر البحار عن قلب أخضر لتأكله فوجدت بعد شبق وحرقة قلب «فضة» النابت قرب وادي السيل العظيم . . زهرة من زهور الشمس . .

وكما لم تُفقد بغداد نهائياً . . لم يُفقد «ثامر» كعلامة جارحة للقلب . . رصاصة قدر صوبت إلى صدر يتسع لحب العالم . . وكما لم تُفقد بغداد منذ سنين عشر لم تُفقد «فضة» نهائياً إذ لا يزال في الصدر غبش من أمل من أنها ستدخل من فرجة إحدى النوافذ ضاحكة . .

* ها أنا قد عدت . .

* لكنهم قالوا إنك مت ، وإن قبرك هناك . .

* أين . . ؟

* في المقبرة الوسيطة قرب الطريق العام .

وكأنما أقبض على ظل هارب ، وأتملق الزمن ، وأربط ما بين الأشياء ربطاً غير واعٍ ، وكما أتهم نفسي دائماً بالنقص الذي ولّده في نفسي مع الأيام هروب أمي وصدّ «ثامر» القاسي . . وموت «فضة» المباغت والتي ماتت قبل أن تعي الأمور جيداً . . وتعتذر مني . . عن قسوة عن خطأ ربما لم تقصده . . رغم وجود «جبر» الذي يحترق حلقه محاولاً إفهامها الأمور على حقيقتها مجازفاً بنفسه ضارباً بغضب جميلة عرض الحائط . .

أتذكر أنها قبل أن تموت . . نظرت إليّ وأنا أهم بفتح الباب الخارجي للبيت .

* إلى أين ؟

* إلى المزرعة . . هل تذهبين معي ؟ .

* «حمود» هناك

خراستها حولي لا تكل . . حراسة لامرأة ما عادت في أحضان رجلها . . وهي تعلم أنني ما تركته ، وأنا أريده ، وهي أكثر النساء علماً بقلبي ووجهته . . الناس شرق وأنا غرب . . حيث البحر حيث «ثامر» الذي يهجرنا معظم أيام السنة إلى البحر . . حيث الأضواء وصالات الفنادق الغامضة أنكرت عليها لهجتها . .

* «فضة» تحت هذه الضلوع يعيش رجل ليس «حمودك»

* تحبينه . .

* كما اليقين . . وأنت أدرى .

* وهو . .

* لا أدري وبضحكة ساخرة . . أنت أدرى أيضاً . .

مسحت بيدها على بطنها الناتئ ولوت فمها . .

* إلى هذه الساعة ما زلت المرأة التي لا تدري ، ولا تعرف شيئاً . . ولا تستطيع التمييز . .

* أحِبه «يا فضة» . .

* هل سيتزوجك إذا ما تركت «حمود» ؟ .

* لن يحدث مطلقاً . .

غمامة من الغضب تجتاحها . . صرخت . .

* لماذا تخبرينني أنا . . اذهبي وأخبري «عذبة» التي قبلت بالرجوع إلى «حمود» لأنها اطمأنت إلى عدم عودتك . .

* لا . . لا . . يا «فضة» . . أنا لا أخبرك لأنك زوجة الرجل الذي كان زوجي ، والذي توهمت أنني أخذته منك ، ولا أبوح لك ليطمئن بالك . . أحادثك لأنني أحتاج إليك . . لقد جمعنا يتم ومرض وقلة حيلة . . وجمعتنا أمسيات شتوية في هذه البلدة المعزولة . . أمضينا سوياً الليالي والأيام وحيدتين . . نكتب معاً مذكرات يومية نخفيها في جحور صغيرة في غرفة «جبر» . أكلنا كالحيوانات الهائمة التوت البري . . الرطب المتساقط على تراب الأرض . . خلفة البرسيم الأخضر والجراد الجاف . . تسلقنا الصخور والأشجار

العالية ركضنا بجرأة خلف عمال المزارع تخيلنا أنهم عشاق ونحن عاشقات . . تمرغنا على تراب السنابل المحروثة وجرحتنا نتوءاتها الحادة . . جمعنا ورق الليمون في مواسم حصاد التمر وأدمتنا أشواكه الصلفة . . ضُربنا بسوط «السبتي» حين نتغيب عن المنزل إلى ما بعد المغيب . نمنا في فراش واحد ، وأحببنا رجلاً واحداً . . هل تذكرين يوم خطبتك على «حمود» كنا نبحث عن طبيب المستوصف الدكتور «ثامر» ، كنت يومها سعيدة سعادة الكون كله . . شعرت أنني فُزت به في النهاية فاجأناه مع «زينة بنت الرعيان» في دغل المالح . . يومها بكينا معاً أخبرك لا لشيء . . لا أدري . . ماذا أقول . . لدي شعور غير أكيد لكنه يهزني بقوة . . بأن «ثامر» زمن سألد فيه . . إنه بديل لكل أولئك الذين خذلوني قالت «فضة» بحنان باغتني . .

* حتى أنا . .

لم أتمكن من إجابتها . . هدني لحظتها بكاء مرّ . . ها أنا أراهن على غيمة في أن تكون خيمة حصينة لقادم الأيام . .

* لكنه بعيد . .

* هو بعيد . . لكنه قوي . . قوي . .

بلعت «فضة» ريقها برجفة لم تخف عليّ . . توجست خيفة . . لكن حبي «لثامر» يجتاحني كعاصفة . . هو أبي . . أخي . . أهلي . . الزمن الرضي . . وما كنت أراه غير ذلك أتذكر أنني كتبت له رسالة بين يديك من تلك الرسائل التي لا تصله أبداً . . قرأتها لك وما زلت إلى اليوم أحفظها لأنها أبكتك كثيراً بكاء لا يزال يحيرني إلى اليوم .

«ثامر . . حين أقترب منك لا أرى إلا الجمال . . لا أسمع إلا صوت الأزل النقي وذاك الحوار الخفي الذي يترك لي نسج الصور وتخيل الحكي . . من خلال نظراتك التي لا أدري إلى أي شيء تنظر ؟ هناك أم هنا يخيل لي أحياناً أنني أحس بك ترتبك حين تحاول تذكر وجهي وملامحي . . ويخيل لي أحياناً أنني لست إلا نوعاً من أحلام ماضية بهتت لطول الأمد . . فأصبحت ممارستها الحقيقية

لا تخرج عن إطار المعتاد البارد . .

أجلس تحت قدميك . . فلا تختل النظرة ولا التعابير ، لكن التعابير حين تكون جامدة تعطي صراحة للآخر بحقيقتها كأنما تقول لنرحل من هنا . .

شيء يصرخ بداخلي . . قليل من الكلام . . تتويج لهذه الحفلة الصغيرة المتسربلة بالصمت . .

ما يعقد بيننا . . طوراً أترك لنقاء الشمس أن تزيله من داخلي تطهر ذاكرتي منه رويداً رويداً . .

ذاك الطور . . هو طور سلخ اللغة عن الفعل . . فضح الرغبة التي تولد العاطفة الرخوة . . القائمة على نوع من الرأفة الممزوج بعدم القناعة .

بدأت أحزر وأخمن . . ألست امرأة التخمين والتخيل والشك والخوف . . ليس هناك حقيقة واضحة أستطيع الخوض فيها والحديث عنها بطلاقة . . لا أظن . . لا أظن» .

. . ماتت فضة . .

ولا تزال بغداد على حالها . .

و«فضة» تختبئ بنذالة تحت التراب . . قبل موتها بساعات قالت : حدثيني عنه . .

* وماذا أقول ؟ . .

أدارت رأسها نحو الكينا التي تبرز كاملة من نافذة المكان ، وبرقت عيناها حين أخبرتها بمقدم الدكتور «ثامر» . . هزته . .

* تابعي . .

* وماذا يمكن أن يقال في زمن الوصل الغريب ؟ .

لا أذكر أنني زدت على تلك الكلمة ، وأظنها ماتت وغصص لا يحتمل أجّلت موتها ساعات أخرى .

لكنها في النهاية ذهبت وهي عالمة بأنني بعدها في ظلمة قبر هو قبرها . .

تعلم أنني كائن لا أعني أحداً .·.

كانت تقول :

. تحبين أنت كل من حولك ، ولأنك تفضحين تلك المودة تصبحين أشبه بالشجرة التي يُستمتع بظلها دون أن يسأل أحد أهي عطشى ؟ .

واعترفت بصوت هادئ . . أنا أيضاً لا أكن لك مودة . . . . . . شهقت : لم يا فضة ؟ .

رمشت بسرعات خاطفة وتابعتْ . . بالفعل لا أكن لك مودة صافية ولكن ليس بيدي . . وهذا الشعور لا سلطان لي عليه . . ولا أقدر على التحكم به . . ولا أقدر في أمر قلبي . .

لكن مصيراً بل قدراً يُكتب أمامنا ، ولا نملك حتى تغيير لون الحبر . .

* لا تتركيني . .

صمتت كعادتها حين لا أُجابهها . . أربكني ذلك اللوم الواضح في صمتها . .

* ماذا أفعل لقد قتل «ثامر» ثم «حمود» . . وأمي من قبلهما في روحي هذه السمة ، ولا أتذكر أنني حاربت من أجل نفسي . . بل أترك للآخرين حق استعبادي وأعتبر ذلك كرماً . .

لا أُريد أن أبقى وحيدة . . فليس من السهل على مثلي إيجاد الرفيق . . دائماً تلاحقني كلمة «عيب» .

أحزر أنني قلت «لفضة» يوماً أثناء عودتنا إلى دار السبتي يوم حريق بغداد . .

* أخاف «ثامر» .

أغلقت النوافذ بهدوء ، وتعثرت في عطفة سجادة تركية تزين المكان الذي أُعد لنومي في الجهة الأكثر بعداً في المنزل ، حيث بالإمكان الخروج والدخول دون أن يحدث صداماً أو مواجهة بيني وبين «حمود» الممر الذي يفصل الغرفة التي آوتني بعيداً عن مواقع أكثر النساء عنفاً في المنزل . . طويل ومظلم عند نهايته تقع غرف «بركة» التي تثور رائحة بخورها لتتعاور مع الظلمة في إخفاء أرواح هائمة قدمت مع فراشة بيضاء حامت فوق إبريق الماء المكشوف . .

* أرواح الموتى . .

* ألا يوجد بالقرب من هنا مكان به دقيق ؟ . .

* لا .

* ستظل هذه الروح جائعة . .

* لو رأتها عمتي «بركة» لهرولت خلفها ظناً منها أنها روح «يوسف» .

* فضة . .

* نعم . .

* لم لا تقولين أبي ؟ . .

* أبي . . التفت حول نفسها . . وعضت على شفتها . . أخاف ذكراه كما تخافين «ثامر» .

* لكن يوسف ميت . .

ضحكت بدمعات ابتعلتها وقالت . .

* ثامر أيضاً مات . . وإلا فما معنى هذه الهواتف التي نزعتها من أماكنها واستبدلتها . . وهذه العينين الغائرتين ، والسمنة التي بدأت تجتاح جسدك . .

. . .صرير باب قديم أزعج المكان ورائحة نفاذة . . تقدمت خطواتها الثقيلة طولها الفارع وسمرتها في الضوء الخافت . . التتمة الأكثر وجاهة لذلك المكان . . تململت وتثاءبت قبل أن تختفي في الظلمة وسُمع صوت حذائها الجنزر يهبط السلالم الأربعة . . كلنا لعنا الفراشة التي أيقظت «بركة» من هدوئها الليلي النادر . . قالت فضة :

* لا بد أنها تذبح جدياً صغيراً لتوزعه على كلاب الوادي الهائمة لتكسب ودها ، ثم تتبعها «كالمرّية» لتدلها على مخبأ أبي وسط الوادي . . ولن تفلت من لسان «جميلة» فخسارة جدي من أجل فراشة ضالة أمر تستخفه جميلة وستصرخ بها . .

* حفنة دقيق انثريها في الهواء تأخذها الروح وتمضي ، قولي لها «هذا عشاك والله يلقاك» .

٥

وكثيـــرٌ من الســؤال اشتياق
وكثيـــرٌ من رده تعليـــــــلُ

خمرة تثور من أثرها الشرايين . . حمى تشعلها حنجرتك في الدماء الباردة . .
ما تقوله عادي . . لكن حنجرتك مئذنة تبعثر اسم الله في كل أنحاء بلدتنا . .
نار يلفح لهيبها الشفاه والأطراف المتيبسة .

أستدفئ بقلق .
وأركع لله بقلق .
وأتوارى فيك بقلق .
وأنت تسأل .

* ماذا تشتهي نفسك ؟ بماذا تشعرين ؟ .

فوق العادة تكون طاقة الاحتمال حين تتخيل أنك فهمت السؤال . . وحينما تحاول فتح فمك للإجابة تكتشف أنك لا تقدر لأنك لم تفهم . .

تعلم أنني لم أفهم . .
ودون أن أتنبأ بما يمكن . .
تصهل كخيل بري . .

لا تحتاري . . فإنما أنا شيخ كبير يسير على نهج المتنبي . . في كلماتك وعد

بشيء غامض . . ملامحه في خيالي تأخذ لذة لم يأنسها بشر بعد ، فقد تفردت بما لم تتفرد به امرأة . . ألست تلك التي مزقت كفنها ، واندمجت بلحمها ودمها ولونها وإحساسها لتكون أنا . .

فقد قالوا إن «فضة» ماتت . .

كيف ؟ وأين جثتها ؟ .

ها أنا أشهد حنجرتك على موت لم أشهده ، وعلى قبر ليس بداخله سوى كفن محشو بالقطن ، والخرق ، ومنثور عليها أنواع من العطر ، والسدر والكافور . . وماء زمزم ، وحكايات بعمر بلدتنا ، وبطول واديها العظيم ، وبعظمة «حبك» الذي يعمّر صدر عروس البحر . . يتلاطم كموج هائج يعلو ويهبط بزبده وفورانه . . يستدعي حيتانه الضخمة لتضرب بأذيالها الهائلة ذيل عروس البحر . . ترتجف فيطفئ جور الألم ذلك العنفوان الذي تسكبه حنجرتك في جوفها الموجوع بلذة لم تهتد لأسرار سحرها وكينونتها .

لكني لن أمنع نفسي من ارتكاب المزيد من الحماقات فأنا مكروبة بالسر ولا أكذبك إذا قلت إنني كلما بُحت به كبر وتعاظم فأبوح لآخر . . فيكبر ويكبر . . ما الأمر يا فضة ؟ .

أشعر بيدك تضغط على شفاهي . .

لكني على ثقة بأن أذنك لا تسمعني . .

ها هو العمر صعد في السنين بعدك ، وها أنا قد وصلت إلى سنك ، ولم أمت ، ولم أختنق بجنين وأموت ورأسه معلق بين الفخذين . .

لقد رأيتك البارحة مرقت من أمامي عدة مرات . . لم يكن حلماً ولم تكن يقظة . . تعلقت بذيل ثوبك الأخضر لكنك انزلقت من النافذة ، ومرقت من بين أشجار العرعر المتشابكة كالسهم . . تركت لي رسالة صغيرة . . تلقيتها حين غفوت مرة ثانية . . رأيتني . . بل سمعتني كنت فراشة برية تلتحم بحنجرة تبلعها كالبحر . . تغسل أجنحتها وتعيدها . .

ضربني صوتك الحاد . .

* كفى . .

أخفتني . . فعاتبتك . .

* إنها حنجرة . . وليست «ثامر» يا فضة

* أعلم . . «ثامر» انتحر بيده أمامك يوم ودعته باكية . . لحظة مددت يدك إلى شعرك وحللته فانطرح . . وانطرح تحت قدميه غطاء عباءتك . . فانثنى على الأرض وأعاده لك . . وقال . .

* كيف أُزيل اكتئابك . .

وراح يسرد تفاصيل سفره المنتظر ومشاكل الحجز الذي عرقل رحلته المنتظرة . .

«فضة» كأنك تقولين :

كلهم متشابهون . .

كلهم يسمعون ولا يعون . .

كلهم رجال شرقيون . .

جراء . . ترضع من كلاب . .

لتكون في عنفوانها كلاباً

لكن لا يا فضة . .

الحنجرة . . لا . . إنها تملأ جوف السمكة ببراكين تنز حين تثور بفرح أبيض . . يزهر ويتنامى .

الحنجرة . . مطر يغسل المساحات الملونة في داخلي ، الحنجرة أب . . يدللني على ركبتيه ويقبل مفرقي . .

صرختها الحادة توقظني . .

* اسمعي . .

* ماذا ؟

* * لا تبوحي إلا لي . . كفيّ عن الهذيان . . تحدثي معي على الورق اتركي لي رسائلك تحت وسادتك ، وسأتي كل مساء ، سأتي كل مساء . .

* فضة . . الحنجرة آخر من سأحدثه عنك . .

وصاحبها لم يسألني لكنني أستشف أن سؤاله بعض من سؤال «ثامر» الذي قال ببرود وهو العالم الحاضر لموتك .

* كيف ماتت فضة ؟ .

* رفعوها إلى الأعلى رفعوها أكثر . . أكثر . . لوت عنقها عكس الريح فانحلت الصغيرة السوداء ، وطوقت وجهها ، تطاير شعرها والتف . . طارت أكثر ، تضاءلت الأرض ، فأصبح الوادي العظيم مستطيلاً كحجم كتاب بحدود خضراء ثلاثة ، وواحد أسود . . جمعت كفنها الأبيض الفضفاض حول جسدها الذي تخللته الريح فارتفع . . لامس البرد بطنها وعمودها الفقري . . احمر أنفها . . غطته بكف يسارها ، وباليد الأخرى لملمت بياضها المنتفخ بالهواء قرب السحاب ، تقاربت أياد صغيرة احتوتها ورفعتها أكثر . . أخفضت بصرها . . لم يبق من الأرض سوى جزء كمرآة صغيرة تعلو وتهبط كنقطة دم أخضر ينبض في جسد الأرض . . رفعت يديها فأفلت البياض وتلاشت . .

بعدها «يا فضة» دخلت المرحلة الأكثر سرّية . . الحياة المخفية التفاصيل على الكائنات . . فقد اختصك الإله بالأمان الأبدي . .

حلمت بك تصعدين وتهبطين من العالم العلوي إلى السفلي في حرية . . كنت تحملين لي في الأحلام أخبار تلك العوالم التي أوصدت عليك أبوابها . . والتي سجلت عليها لافتات صغيرة . . هنا ارتفع المخلوق عن أن يكون مخلوقاً . .

في ليلة أصبت فيها بحمى شديدة . . رأيتك تتجولين . . كنت «أنا» متلفعة في حشمة بكفنك . . انتبهت من نومي وتذكرت ليلة موتك . .

- كنت ملقاة على أرضية ملساء . . رُفع جزء من بساطها وسجادها المريش ذي النقوش الملونة وفُرش بدلاً منها خيش وتراب ووسادة «رين» وصفيحة مستطيلة مملوءة بالماء الدافئ و«براد» صغير يطفح بماء أسود ثقيل هو خلاصة تمر مطبوخ حتى تهرأ . . تحرك رأسك بثقل . . دثرتك الداية بلحاف من القطن الأزرق المشجر . واستسلمت ليدها وهي تعصر جوفك المشدود بعنف واضح وتردد بصوت مخنوق آيات وأدعية . .

لم أحتمل موتك لأنه بالتالي لن يمنحني إلا مزيداً من التراجع إلى كينونة الحياة التي حرضتني على البصق عليها دون تفصيلات واضحة .
قبضت على يدك الباردة وبين كل ضربة طلق وأخرى تئنين . . فأضحك .
* اصبري . .
وببراءة طفلة لم تتعود مثل هذا الألم الذي يسحق حوض الأنثى عند الولادة أُعيد على مسامعك لذة الهرب من النافذة ذات المصاريع العريضة لأستقر بقفزة واحدة بين يدين صلبتين . . يغطيهما وبر خفي . .
انحدرنا معاً . . دغل له حرف كحد سكين يشرف على الوادي الذي يبدو من ذلك المكان أشبه بمقبرة للرجال الهاربين من وجه العدالة «والدم» والتأثر والجوع والنساء المغتصبات والرجال المقتولين غيلة والهاربين من أحضان عشيقاتهم .
افترشنا الرمل معاً . . اندست أصابعي في ثنايا صدره ، دفعت بها أكثر حتى موقع نبضه ، وحين بدأت أعد نبضاته السريعة ، ظهرت على المساحات المتماوجة ببريق أضواء بعيدة صور مغبشة لنساء وخرائط وسماوات كثيرة . . نادى على أسماء نسائه . . حبيبة تلو أخرى . . لم أنهره بل انكمشت أكثر منتشية إلى حدود الرجفة بصوته الذي يتملك بأنانية فاضحة كل تلك الأسماء دون أن تعصر قلبه أنة عشق صغيرة حقيقية وواضحة . .

٦

أقرأ كثيراً في الروايات والقصص ، وأشاهد الأفلام ، وأسمع حكايات العالم عن «الصدفة» ، وسحرية الصدف ، ووقعها على القلب والعقل معاً .

الصدفة ابنة الأسطورة . . جزء من أحلام الليل والنهار ، بعض من حسنات العرش الأكثر ألقاً .

ما أجمل صوتك . . وصدفة عناقي التاريخي بحنجرتك ، فاجأني . . صوتك المكتوم . .

* أنت صدفتي التي تفاجئني كل يوم بإحساس مختلف عن أمس . . عن البارحة واليوم ، وعن ما مضى كله ، ولا أستطيع أن أقول إنه أقل أو أكثر . . مما يجعلني سعيداً . . فهناك شيء مختلف لأن ما بيننا حيوي يأخذ طابعاً تطورياً غير مخطط له . . معجون بالدهشة . . وأجمل ما في المسألة أن كلاً منا يقول ما لديه ويفعل ما بدا له . دون أن يحسب حساب الآخر ، فلو دخلت مسألة الحساب والتململ والحرص لكان هناك بقايا من ترسبات وتحفظات وتأوهات .

معك أرى طعم الأشياء كالسكر . . الذي يجعلني أتحسر على الحياة التي لم أعرفك فيها . . وعلى الأجمل الذي كان بالإمكان أن أعيشه معك ولم يحدث . . ففي داخلك طاقة من المشاعر والأحاسيس والمتعة والنشوة والحرارة لا تحد . . فأسف لعلمي أنك قادرة على العطاء ، ولكن ذاك الذي يريد أن يأخذه يشعر أنه

لا يعرف كيف يأخذه ، ولا كيف يستطيع أخذه .

ومحظوظ من استطاع أن يفجر كل الذي بداخلك ، ثم يستمتع بالبركان .

* انتبه يا سيدي لعل كل هذا آت نتيجة إغراء الكلام . .

ينحي يده اليسرى بعيداً ، ويعطل حركة إحدى قدميه ، ويبقى . . نصف . .

* إطلاقاً . . فمن الأمور التي يأخذها على الغير . . قولهم «ألا يحركك ما يحرك الناس» .

أرد على القائلين . . أنا لست مثل الناس . فما يحركني شيء غير عادي ، وإذا بدأ يحركني فليس هناك قوة توقفني . . أنا هكذا يا صديقي ، ولا أستطيع أن أكون إلا هكذا .

وما يحدث الآن ليس نتيجة إغراء الكلام بقدر ما هو أمر خارق يعشعش في جمجمتي . . وما يعشعش ليس بالسهل . . ليس بالسهل فأنا رجل أوجعتني الدنيا ، وتقلبت في سود الليالي ، وفرقت أرديتي دهاليز الحياة . . عشت كثيراً ورأيت كثيراً . .

فالذي يطرحني ليس أمراً سهلاً . . وهذا يعني أنه شيء غير عادي والأهم من هذا وذاك أنني إذا تمكنت منه ، فسأعض عليه بالنواجذ بدءاً من الشفاه وانتهاءً بالحلمة .

. . . الحنجرة تفتح لي كنوز الرضا . .

الهمس الخافت الذي تهزه نشوة الإحساس بجسد أنثى يشبه الفطير البلدي الذي ينتفخ ، وتتورم جوانبه ، ويحمر وسطه على ثوران الحنجرة . . بصوت تولد الحياة منه فيحرض الريح على أن تصفق ظهر السحاب بعد منتصف الليل بالتمام ، وبعد أن يكون للحنجرة همهمة كائن ليلي لا يُرى . . تستطيل أجساد الجبال لتقف على أقدام من زجاج لتعانق صدر السحاب العريض ، فيتساقط المطر أبيض كالحليب . .

أمد يدي وأنا أقف عارية إلا من سترة فضفاضة أرق مما اعتادته الحنجرة ، وأسوأ مما توقعه «حمود» .

. . أجمع يدي وأفتح الكف قرب الكف . .

* ربي أين «فضة» لأحدثها . . عن الرعد حين يمطر ضاحكاً . .

* كيفك . . كيف حبيبي ؟ . .

أفتح كفي وأجمع زخات المطر كلها . . أصبّرها في وريقات صغيرة . . رسائل لا تحصى «لفضة» التي تغافل الموتى ، وتنقر نافذتي بأصابع سمراء نحيلة .

* تعالي . . حدثيني أنا . . ولا أحد . .

يخالج الحلم «بفضة» زوايع الحنجرة ، وانحناءات قوس قزح التي تفاجئ سكون المطر بالأجمل الذي كان . . وجه «فضة» الضاج بالحياة . .

* أنا حامل . .

وما بين الفرح بالأمل وليلة الموت أيام كالسحاب . . سقطت من الذاكرة ، وبقيت ليلة موتها . . ليلة الولادة البكر . . محمولة على انحناءات قوس قزح . .

ضغطت على يدي . .

* اخرجي للدنيا . . ما أنت سوى أسيرة . .

* وأنت . .

* سأذهب إلى الله . .

* لا .

* بلى .

ازداد ضغطها على يدي ونادت . .

دكتور ثامر أنا متعبة . . ؟ .

روعتني ظلالات وبقع سوداء عظيمة تحيط بحدق عينيها . .

* دكتور ما الذي يحدث ؟ .

* انهضي . .

شدني الطبيب من يدي وأنا أقاوم . . وأهذي . . دكتور عينها اليسار . . ما بالها . . ما بالها لقد أغمضتها . . دكتور افتح لها عينها أرجوك . .

ندت منها أنة مكتومة . .

فاندفعت إلى الحائط واختنقت وأنا أتابع انفراج فخذيها . . وانزلاق دائرة صغيرة بشعرات لزجة . .

صاح الطبيب . . بالداية . . ثم ضرب يد «فضة» . .

* ادفعي . . . ادفعي . .

آهة صغيرة ثم صمت مطبق .

مسد الدكتور «ثامر» لحيته الكثة ثم هجم على الداية التي تملصت صارخة . .

* ما ذنبي ؟ .

* لمَ . . لمْ تنادوا علي إلا في اللحظة الحرجة . .

انكفأت الداية على الأرض وهي ترفع عن جسد «فضة» اللحاف الأزرق ، وتعريها تماماً ، وتباعد ما بين قدميها فتتصلب «فضة» ، ثم تضمهما مرة ثانية . .

تناديها الداية . .

* اهدئي . . تجلس بكامل جسدها الضخم بين فخذيها ، وتسكب بيدين مرتجفتين ماءً دافئاً ، فينسكب من أعلى السرّة ، ويتحور على ظاهر البطن الذي بدأ يتكرمش ، ثم ينزلق في اتجاهين لينسكب في النهاية على الأرضية العارية موسعاً مجرى من ماء أحمر إلى نهر قرمزي يصب عند عتبة الباب . . حيث وقف الدكتور ثامر . . يتحدث بقلق إلى رجال الإسعاف الذين وصلوا .

* لقد تأخرتم . .

* الطريق سيئ . . السيول الجارفة أعاقت سيرنا . . كيف حال المريضة ؟ .

* أظنها تحتضر والجنين كما تراه . . معلق بعنقه في الرحم إنه ميت .

* يبدو ذلك . .

تحسس الأطباء حرارتها . . مسح الطبيب بيده على وجهها . . ثم تلمس بهدوء بطنها . . اقترب الدكتور «ثامر» منها ، وركز نظراته على وجهها المصفر . . لم يعد يلمح إلا ظلالات بعيدة لحياة قفزت من النافذة . . كما قفزت منتصف ليلة عرسها إلى حيث «عم جبر» .

أخرج «ثامر» رأسه من النافذة ذات الأعمدة المتباعدة ، فاصطدمت نظراته

بوجه «جبر» الذي سأله . .

* ما الأمر يا طبيبنا ؟ . .

* إنها تموت .

* وأطباء الإنقاذ ماذا يفعلون بالداخل إذن ؟

* سنحاول نقلها إلى مستشفى عام بالمدينة . .

* لكنك قلت إنها تحتضر . .

قطع الحديث الدائر بين الاثنين دخول «السبتي» و«جميلة» و«حمود» ضج المكان بالحركة القلقة . . «فتسللت» إلى الخارج .

٧

* صباح الخير . .
* صباح الورد . .
* لا . . صباحك .
* دمي ثقيل أهرب منك وأعود . .
* بالعكس . . هذا هو المفروض ، وسيكون دمك ثقيلاً لو لم تتصلي .
* أنا اتصلت لسبب . .

يقاطعني بحميمية . . مردداً برزانة مهيبة . .

* بدون . . بدون . . بدون . اتفقنا يوماً ألا يكون هناك أسباب للاتصال .
* بلى . .
* ضحك . . ماذا ؟ .
* أول الأسباب . . هو إدماني لصوتك . .
* وثانيهما . . أريد استشارتك في موضوع ما . .

سؤال خف بتر الحديث . . لعله عرف أنني كاذبة . . فليكن . . فالكذب أحياناً . . سفن تبحر في بلاد السحر ، وتصبح مع الوقت غرفاً مربعة معطرة الهواء . . ورويداً . . رويداً . . تذوب جدرانها لتصبح أردية شفافة تضخ المشاعل بالنور فالنار . . في ذبذبات بطيئة . .

* أحبك . .

تطير من النوافذ حكايات الماضي التي تتسلى على حجري خلسة ، وتخربش بأظافرها بقايا ألوان فوق القميص الذي يدفئني . . تجوب بي أقاصي الدنيا ، وتعود بي دون رداء . . أسترق النظرة في وداع يتناوبه ضحك وبكاء ، بكاء وضحك . . ما عدت أميز الحزن من الفرح . . ما عدت أستطيع تفكيك الأصوات التي تكوّن كلمة «أحبك» كلمة تشبه حمام الحرم . . كلما كبرنا عاماً «صغر حجم» الحمامة الرمادية ، واقتربت المآذن من الزند . .

* استمتعي بلحظاتك . .

* كرهت العبارة وشوه الناس جمال اللحظة . . يحيونها . . ثم يقتلونها .

* لكن تظل بالنسبة لهم لحظة . . هناك أناس يريدونها هكذا فقط . . المهم أن يسعدوا . . لكن يميز بينها وبين اللحظة الأصيلة التي يحياها اثنان بينهما رباط وجداني مقدس أنهما يعيشان لحظتهما بكل أبعادها . . بهدوئها وقمة ذروتها . . وهذه لحظات تُخلّد ولا تذوي ، وتبقى خالدة كما المآذن . . مرفرفة كحمام الحرم . . وبالتالي ترين أن الشيء الأصيل يتميز عن تلك اللحظات التي تنتهي بانتهاء النشوة ويبدأ بعدها التعب . . ومع ذلك فهناك أناس يعيشون ويموتون من اجل أن يستمتعوا فقط دون فقدان لديمومتهم ، إنها لحظات تشبه مناديل الورق مرة واحدة فقط . . وتنتهي ، ولا يمنع ذلك أنها صعبة الحدوث مرة ثانية . . ولكن تكون مرهونة بظروفها . . لكنها ليست مضمونة . . لأن تحتفظ بوهجها وقوتها . . ذلك الوهج والقوة اللذان يسبغهما الحب الأصيل فيورثهما الخلود . . ولا تعجبي من إنسان يقاتل الدنيا بأسرها ليصل إلى معشوقته ، وعندما يهدأ المطر وتصمت الرعود يناضل في سبيل الخلاص . . وبالتالي الهرب . . هذا الإنسان يبحث عن لحظة تحقق له متعة . .

ولا مانع من ذلك فكل كائن حر فيما اختار . . لكن العلاقة الحميمة الأزلية هي تلك التي تجعل الآخر يتشبث بصاحبه قبل وبعد ويريد كل شيء قبل وبعد . . تلك الكلمات القليلة تؤطر بدم القلب . . فما تفرزه الحنجرة تقاسيم على

العود الأزلي لصحراء تهتف دائماً . .

* قلبي . . من مطره ؟ .

ألا يمكن أن يكون هناك صفاء ذهن وصفاء سريره أُعيد فيهما اكتشاف المساحات الممتلئة في داخلي بدون وجه حق ، أو بالأحرى اكتساحها وطحنها بحرب شعواء تُعيد تأريخها . . وتأطير حضارتها ، وتغيير أساليب الحكم والحكام . .

ألا يمكن أن أكون مدينة تحكمها . . جزيرة لراحتك . . أليس من المحتمل أن أكون صحراء لغاراتك . . تعيد حدودها تغيّر ملامحها . . تحرقها أو تبذرها . .

لكن أنا . . امرأة عربية . . وأنت رجل شرقي ، نحيا في قلب مدن عربية نصفها مغمور في البحر والباقي هلامي ، والفرق بين المرأة العربية والمدينة العربية أن المدن تحيا بعد أن تحرق ، وتجدد هندامها وكحل عينيها وتعلق الزينات . . إنها امرأة لدنة تعاشر كل من زينها وعمرها ، ولا يهمها إن عاش أو مات ، إن سحق تحت دبابات الثوار ، أو جدد سنوات الرئاسة ، هو يقرص فخذها ويكوي منابت شعرها الداخلية وهي تهتف . .

* عاش حامي الأمة وقائد الشعب . .

بينما المرأة العربية لا تُحرق مجاهرة إنما يُمص دمها في الليل المستور حتى تذوي فتموت . . فتنسى . .

. .سأموت كما ماتت «فضة» مختنقة الفرج بجنينها الذي صرخ صرخة واحدة ثم لفظ أنفاسه في المنطقة الحرجة ، بينما بغداد تعطي ظهرها للعدوان ، وصدرها لوليها الذي يضاجعها . . هاتفة . . قليل من الهم كثير من الموتى وبعض الجوع . . وغداً سأرتدي حلة أنيقة ، وأنجب أبناء أصحاء ، ورجالاً أشد شراسة ، وجمالاً أكثر إثارة . بغداد تتمدد عمراً عبر العصور والتاريخ وكلما أوغل الزمن في البعد والصمت .

والذي لم أكن أريده أن يكون حتى وإن عجزت عن تفكيك أحرف الكلمة الأكثر بهاء ، حتى وإن صِدْتُها حمامة رمادية . . تنقر أضلاعي وتدميها . .

وعصرتها . . وكممت منقارها الدامي . . وخنقتها بعنف البدو في الفلوات وعزة المهرة الأصيلة حين يلامسها جسد المروض . . سأجيبك من بين الضلوع الهائجة بالغضب . .

* أحبك . .

الآن في غفلة عن بغداد وعني أنا ، وعن عين «فضة» ورقابة «حمود» ، وأسلوب المستعمر عند «ثامر» .

أحبك . . أُريد أن أعطيك كل شيء . . كل شيء .

كل شيء . . ثم أموت وأتلاشى ولا أعود ، لكن اتركني قليلاً بين ذراعيك . . وتحدث بما يحلو لك قل . . قل ولا تصمت . . تماد في حديثك عن الناس ، عن الله . . عن الحب والأمنيات .

وبين كل نفس وآخر أطبق عليّ بأضلاعك ، وطوقني من جميع جهاتي . . وإذا ما ارتفع رأسي عن مستوى رأسك فأرحه على كتفيك ، أو أسند ظهرك للخلف ، ودعني أدفن وجهي في شعر صدرك . . استمر في الكلام . . قل . .

فأنا مع كل كلمة أتحلل . . أتحلل . . اغمسني في حنجرتك ، اغرسني في العسل المعقود بين مؤخرة اللسان وعظمة الحنجرة . . فأتواصل بهدوء مع لغة الميلاد الأولى حيث الألفة وثقل الجفن . . وعقدة اللسان . . والأذنان . . الأذنان مجرد وعاءين صغيرين تفزعهما الفرقعة . . فإذا ما مسحت بكفك على صدري هدأت . .

فكل شيء في تلك اللحظات يصبح عدمياً لا وجود له ، لأن الحواس عادت من جديد إلى أولى مراحلها .

فأتم الخلق . . حبيبي . . أتمه . . ! .

اصرخ في أذني . . تعالي . .

فأنمو . . أنمو . . أنمو . .

والنمو عادة يبدأ مع لحظات الإفاقة حين يحتفل الآخرون فينا بقطع الكعك ، دعهم وأكمل حديثك الهامس . .

كن هادئاً . فالآخرون قادرون على عملية الإلغاء ، يأتيني صوتك المغمور مقتحماً . .

* «نفسك في إيه»

لا إجابة . . .

فهناك إشكالية كبرى . .

لأن مفرداتي محدودة . .

وأجنحتي بلا ريش أنيق . .

لذا أبتعد عنك . . ميلاً . . ميلين . . آلافاً وآلافاً . . لكن سؤالك يدخل في اللحم والأعصاب . .

فأجيب سراً . .

* أريدك . .

شريطة أن يكون أحدنا قد هيأ نفسه على طريقته هو ، ولكن الفاعل لا بد أن يكون الآخر . .

فأنت تريد مني بعث روح داخل روح . .

دمج جسد بجسد . .

تثور وتصل إلى مرحلة البوهيمية .

إنها طريقتك لكي تسمح بجزء من دمك أن ينتقل إلى الآخر ، بينما أنا أرغب في تكوين آخر لأنثى تدخل داخلي ، تحمل الدم الحار دون أن تكون لديها عقدة إعادة التفاصيل . . والوصف وتكرار الكلام .

تلك اللذة التي تتوالد بشكل مكثف بين الصحو والمنام . . وفي ساعات الفجر المبكرة وتنفجر أكثر في لحظات الغضب منك . . حين تغمز حنجرتك بكلمة عابثة تصوبها بإتقان نحو الجسد المتهيىء .

* أريدك . .

تتلاحم غريزة الرغبة والغضب والجوع والشبع ، فتنفرط حبات اللؤلؤ المنضود بإتقان حول العنق ، فلا أعود أميز بين الكراهية والعشق ، فيضيق صدري غضباً ،

وتتفتح مساماتي فرحاً . .
أحب عسل الحنجرة . . ويغضبني اقتحامها . .

٨

«فضة» الوهم الذي يطوق أيامي . . أسألك . . هل أنت . . أنا . .

لا أشك في هذا برغم ضغط «حمود» على ساعات أيامي .

فكيف هرّبت عظامك ولحمك ودمك من أسر الكفن والقبر . . وأبقيت روحك أسيرة فيّ .

أين قدماك . . ويداك وشعرك الأجعد . . ؟

«ثامر» أكد لي أنها ليست في قبرك المعلوم . . وجبر . . أوحى لي أن روحك سقاها لي في ماء مقروء عليه آية الكرسي وسورة ياسين . .

فهل يمكن أن تكون روحي الأولى التي أحبت «ثامر» ذهبت مع جسدك وجسدي بقي مع روحك ؟ .

وهذا أدى بي إلى أن أعشق حنجرة رجل نحيل مشدود الصدر يحمل بين أصابعه البنفسجية مدية مزركشة بالحرير الأسود يعابث بها ذيل عروس البحر . .

لا أدري . . وحيدة أنا يا «فضة» في قلب الحدث في جوف الموت الذي لا يفلتك أبداً ، أهتز كأنما رصاصات طائشة تنحر جسدي . ألم يمص ماء قلبي ولا أموت . . وكما لا تموت المعالم فأنا لا أموت .

كأنما هناك تواصل بيني وبينك حين أكد لي «جبر المزارع» أن القبر ليس قبرك ، وأن المدفن وهمي ، وأنك قبل مراسم الغُسل هربت من فراش الموت إلى حيث لا

نعلم جميعاً . .

تلك الحادثة تجعل «حمود» يصرّ على أسنانه . .

* «فضة» ماتت وقُبرت فما معنى نظرة الشك في عينيك !

* لكن . . .

* اخرسي .

أخرس . . وتبقى حكة جافة تهاجم جلدي فأصبح كناقة مصابة بالجرب . . لا أهدأ . .

هل دخلت يا «فضة» في جلدي . . امتزج دمك بدمي لكن ما الذي يحتمله هذا الجسد ؟ .

روحك . . ؟ سطوة «ثامر» . . ؟ عسل الحنجرة ؟ تمازج عجيب يرهقني فلا أقوى . . فأدرب نفسي على النسيان . . ليس نسيانك فأنت أنا . . ولكن نسيان «ثامر» ليس النسيان الذي يمارسه كل العشاق ، ولكن بناء الحجاب بيني وبينه . .

فكما الله موجود . . «ثامر» موجود ، وقيل إننا لا نستطيع رؤيته ، أو لمسه . . كذلك نوع النسيان الذي يخالجني .

وكلاهما . . اتخذا في حقي حكماً يريان أنني أستحقه . .

الله الكريم يا «فضة» كما تعلمين يعاقب الخونة ، ينتقم من منتهكي القيم والخارجين على الحدود بالفعل البسيط الذي اسمه اللهم . وأنا أسجد له . . كما علمتني أمي . . وعلمني أبي حتى يحميني فلا أرتكب الخطايا . .

و«ثامر» الرجل الذي ملأ مساحات الأنثى في داخلي تحت مسمى العلاقة المتعهدة . .

وجدتني أهبه الروح الطفولية الأكثر نقاءً . . كما وهبت الله . . أعظم المعاني . . ربما لأنهما موجودان قبلي . .

بدليل أنني تعلمت وبإتقان شديد الدعاء الحار بألوانه المتعددة . .

المنغم حين أكون تحت أستار الكعبة أو خلف المقام . . والدعاء الخافت حين أركب العربة بجوار أهلي .

والدعـاء البـاكي الصـامت . . حين أسـجـد خلف سـارية في منزلي أو قـرب مـقعد . . في رجاء متوجس بشيء ما . . دعاء عميق . . «لثامر» علاقة وصلة به ولكن لم أبح ، وحين أنطق أنزعه يا لله من صدري . . أصيخ السمع وأرفع بصري نحو السماء .

وأنتظر بزوغ شمس الغد . .

ترى هل سأصحو واسمه على فمي . . أم لا . . أخشى بصدق أن يستجيب الله لدعائي . . أخشى أن أتبرأ بالدعاء من «ثامر» .

ويقتلني أن لا أتابع الصلاة وأعرق في دعاء يمسّ القلب .

مـا كـانت صـلاتي كـالصلوات . . فـروض في أوقـات فـقط بل كـانت ديومـة قطعتها فجأة جمهرة من الملائكة تزاحمت فوق «حنجرة» .

دعيني أسـمـهـا لك يا «فضـة» هل يروق لك أن أسـمي الحنجـرة بعـسلهـا . . بزوابعها وبروقها «علامة» .

فهذا الاسم تفكيك لمعاني الصدفة التي باغتتني عندما سلمت من صلاتي ذات اليـمين وذات الشـمـال . . قـال «عـلامـة» حين هاتفني وسـمع جنوني بالصدفة . .

* أتمنى مثلك صدفة تطيّرني . .

قلت له . . الأجمل أن يكون المرء على حقيقته ولا يتخفى فأنا أُحب الله في هذا الأمر ، أحبه كثيراً ، وهناك فرق لا بد أن الله عالم به ، وأنت عليك أن تعي القصد من وراء حبي لله في هذا الشأن ، فالرسل تأتي إلينا لتحمل لنا رسالة التوحيد (عبادة الله والإخلاص له) لأنه أمدنا بالنعم ، وخلقنا في أحسن صورة .

لكن أحياناً أكتشف أن مثل هذه الأمور ليست كل شيء لتقنعني . .

فأنا أحب الله ، وأعتبر أن العلاقة بيني وبينه علاقة كائن بمعبود وثيقة وطيدة إذا تحققت تلك الصدفة . . المعجزة التي نحن بحاجة إليها وسط هذا الفقر الروحي . .

دون أن تكون غير ما أنت . . بمعنى أن يقبلني الآخر ذاك الذي وجدته على

يميني حين أتممت صلاتي كما أنا . . ذاك الذي أسميته يا «فضة» «علامة» يراني كما أنا . . مقبولة كما أنا في عالمه الجديد . . يفهمني الفهم الكامل بكل جنوني ومتناقضاتي ، ولديه شعور عميق بأنني أشعر به ، وبما يريده بالضبط حتى وإن كنت ضد تنفيذه .

كذلك يعلم أنني كائن ضعيف أخشى أن أتبرأ بالدعاء من «ثامر» ، وأن لا يزعجه تساؤلي الدائم وانكماشي واختفائي المفاجئ .

وعتبي وغضبي دون تبريرات بينة . .

كيف ومثلي وجد عبثاً . . كأنما قذفت بي أمي من رحمها على عجل أن تتبرأ من أجمل الصلات التي تصلها بالله .

وجِدتُ على عجل جنيناً في سبعة أشهر . . نموت وسط فراغ وخواء . . تعبئني حتى آخر دائرة في مفرق الشعر الطهارة . . وما أدراك ما الطهارة ، ما النقاء الذي نموت فيه كشجرة خرساء . . كل عصب . . وكل قطرة دم تمر في فلك أشبه بالسهول الجرداء التي لا يتعثر السائر فيها بقشة في حجم هدب العين .

ما الذي يعيقها وأنا أشبه بالهواء بالسماء وصوت أمي . .

* الصلاة . .

* حاضر . .

* الصلاة يا بنيتي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتحميك من مزالق الشياطين . .

ولا أدري كيف فرشت السجادة . . وماذا قلت . .

هناك فراغ لحياة لا تشوبها شوائب . . فماذا أقول أو بالأحرى بماذا أدعو الله بعد أن أؤدي الفريضة كما تعلمتها . .

وعلامة بعد زمن من العمر اكتشفت أنه موجود على وجه الأرض قبلي بأزمان . . محملاً بفائض من الألم من الجوع . . من العبادة .

حين مرقت حياته بمحض الصدفة . . قبض عليّ لكن بعد مضي زمن من الوقت وضح لي أننا قبضنا على بعضنا رغم التنافر والخوف والقلق المتبادل بيننا

إلا أن ذلك لم يمنعنا من الالتحام أكثر من الالتصاق أكثر . . وكلما زاد حجم القلق والتوجس ازداد توغلنا في بعضنا . .

«علامة» ملأ على عجل غير مدروس بجزء من ذلك الفائض ذلك الجسد العاري أمامه يومها ركضت إليك يا «فضة» بقصاصات رديئة الخط وضعتها تحت مخدتي رسائل . . ملأتها بإحساس غامض يشدني نحوك ألتصق بك لأشعر بأننا معاً وأنني كما ألمسك الآن بعد رحيلك صوتاً خفياً أشعر بلمساتك الحانية . . وأنت تهدئين من هيجان نفسي وثورة أنفاسي . .

تقولين لي :

تحدثي بما في الخاطر . .

ضعيني مكانك . . قولي ما حدث ، وما تشعرين به ، وكأنك تحدثينني بما فعلته أنا سراً عنك . .

* أفهم كلماتك يا «فضة» جيداً ، فينتابني إحساس مخيف وأنا أقف عند المرآة . . أرى وجهك وجهي ، والشامة التي في عنقك ، والحريق الذي تحت الكتف الأيمن ، وأنك أذن تسمع صوت هاتفي المسائي حين يحادثني «علامة» مختلساً متعة صغيرة في ظل حماية وهمية من تخيل جامح ..

ألبس له قميصك . . وأسرح شعري الملتف بإهمال ، وأغسل أسناني بالملح والماء والقرنفل . .

ما أجمل الحلم الصامت معه . .

هكذا أنت تقولين دائماً وكنت محقة . .

جسده بأكمله يجرك كالمغناطيس العنيف إليه . . فيهرول صوتك إلى أنفاسه المحمومة دقائق ، وأحياناً جزءاً من دقيقة . . أتلذذ بسحر الإغماء المحسوس ، وبالظلمة التي تحط على المكان ، وبجنون الصعود والهبوط . . أصعد مع صوته إلى أحضانه المعروقة ، وعينيه المغمضتين ، ورعشة شفتيه التي تحرضني أكثر . .

* حياتي أنتِ . . . صح ؟

ينقطع الصوت ، وأبقى في مجاهدة مع عيني كي تألف الضوء ، حتى إذا

حطت نوارسي الذاهلة فوق القلاع الغرقى . .
شربت كأساً كبيرة من الماء ونمت . .

٩

الغرفة التي شهدت موت «فضة» لا تزال قائمة رغم أن جزءاً من الدار القديمة قد تهدم ، وأُعيد ترميمه من قبل «السبتي» أثناء الحرب .

تلك الغرفة المربعة بنافذتها العريضة لا تزال قائمة ، تغري الواقف بالداخل بمشاهدة شجرة الكينا التي خرج من تحتها ملك الموت ليلف بجناحيه الكبيرين جسد «فضة» ، ويهرب به عبر السموات إلى المدى المجهول . «جبر» قال لي بحزن عظيم بعد أيام العزاء الأولى . . إنه سمع «فضة» تقول قبل أن تتهشم أضلعها تحت وطء قدمه . .

* هذا الملك يشبه «ثامر الزبيدي» .

هي لم تنطق بالصوت الكافي لذلك لم يسمع ما قالته سوى «ثامر» الذي أخبر «جبر» مستفسراً بذهول ، سمعها لحظة حملها بين يديه مع طبيب الإسعاف ، وأرقدها على ظهرها محاولاً إخراج الجنين ، وإيقاف النزيف وسط جلبة «جميلة» وصراخ «بركة» .

* دعوها تمت في سلام . .

جردها من ثيابها ، ثم قلبها على وجهها ، وراح يضغط على مؤخرتها ووسطها في محاولة يائسة لإنقاذها ، ثم يقف بطوله ويحملها حتى توازيه واقفة ، بينما «المولّدة» تلف عريها بلحاف أزرق تقطر أطرافه بالدم الفائر . .

يهزها ثم يلف يديه حولها ، ويسكب في حنجرتها قطرات من الماء . .
يناديها وجبينه يتصبب عرقاً . .

* أرجوك «فضة» لا تموتي . .

ضعيف ذلك الطبيب . . هذا الاتهام من «جبر» وصله . . فاندفع هائجاً . .

* كيف تريدني يا «جبر» ؟ ماذا أفعل ؟ أنا لست إلهاً ، أنا طبيب عام في مستوصف من ثلاث غرف ، وإمكانيات ضئيلة منذ ست سنوات وهو على حال واحدة .

* ثم إنني استدعيت في اللحظات الحرجة بعد أن انطفأت روحها وتسرب دمها .

وها هو طبيب التوليد بكل خبرته لم يستطع فعل أي شيء . أتدري . . لِمَ . . أتدري ؟ . .

ومن بين أسنانه دفع «جبر» من صدره . . لأنها تحتضر . . تحتضر . .

صفق النافذة في وجهه ، وعاد مسرعاً إلى الغرفة الداخلية ، وقذف بنفسه قرب «فضة» وسأل طبيب التوليد . .

* هل من أمل لنقلها الآن إلى المستشفى العام ؟ . وبتوتر أزعج المتواجدين . صفق بيديه . . يا إلهي ساعة ونصف حتى نصل ، تنحنح طبيب الإسعاف وقال برفق . .

* إنها تموت . .

هبت نسمة من النافذة الخلفية للغرفة ملأت الأنوف المتورمة برائحة زهر البرتقال . .

وطرقت الأسماع خطوات «جبر» .

ابتعدت الممرضة للخلف وقالت بصوت واهن :

* دكتور . . لم يعد هناك دم . . سائل أصفر فقط يميل إلى لون الماء . .

انظر . . انظر يا دكتور في عينها اليسرى دمعة . . صرخات مكتومة تهز شجرة الكينا الضخمة . . فاهتز جسد «فضة» برجفة واضحة . . أدارت رأسها بعنف . .

نادت . .

* عم «جبر» . .

* يا لله . . ينادي بصوت مكلوم البعيد القريب الخفي . . قبل أن ينطلق ليدفع بقدمه البوابة الصفراء ذات الكوالين الثلاثة ، ويقتحم الأبواب الموصلة إلى غرفة «فضة» ، ويدوس السجاد بأقدامه المتربة مقتحماً الغرفة على المتواجدين .

ولا يزال «حمود» يذكر رغوه الذي برز من شدقيه ، وجحوظ عينيه وقت أن أخذ «فضة» التي تحتضر بحنينها المعلق في المنطقة الحرجة في حضنه ، وراح يلقنها الشهادة بصوت غريب . . جعل بركة تستيقظ من صلواتها ، وهي على بعد ستة وأربعين متراً في غرفة ضيقة ، وتهز رأسها منادية . .

* يوسف . . يوسف . . يا يوسف . .

وتنزع صوب النوافذ تهمهم ، وتفتح منخاريها على اتساعهما ، وتزيح بعنف ثنيات الطرحة والشعر الملتف حول أذنيها . .

* يا هادي الدليل . . يا لله . . يوسف هنا . .

تفرك أنفها ، وأطراف صدغيها ، ثم تجفل ، لكن يوسف مات . . تقلب شفتيها . . أجل مات . . حضن «جبر» «فضة» ، ودفع بزوجها الذي حاول منعه قائلاً :

* حمود البنت في حالة نزع . .

قرأ بصوت ملتهب في أذنها سورة ياسين والمعوذات ، وراح يلقنها الشهادة وينادي وخلفه السبتي و«حمود» . .

* «فضة» قولي . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . . أشهد أن لا إله إلا الله . . الواحد . . الفرد . . الصمد . . الحي الذي لا يموت . .

ينتظر «جبر» لحظات . . تختنق أنفاسه وينحني مع الرجال . . و«جميلة» التي أقبلت في جلبة واضحة لتركع قرب الفتاة . .

* ابنتي . . سامحيني . .

تحرك «فضة» شفتيها ، وترفع سبابة يدها . . يكرر «جبر» قرب حلمة أذنها . .

الشهادة ويهزها . . فترفع سبابتها بانحناءة أقل . . يُخرج من جيبه «أعواد ريحان» ريّانة ، وينادي على كاس ماء ، يضع الأعواد اللينة بورقها الأخضر الحي في الكأس ، ويفتح فمها باليد الأخرى ، ويسقط بضع قطرات فوق لسانها . . أعادتها بعد ثانيتين فقط مع روحها . . ماءً صافياً . .

تناولها «جبر» بيمينه ، ومسح بها وجهها ، وأغمض عينيها ، ودفع بها للخلف ، ورفع رأسها على المخدة ، وفرد الكف اليمين تحت خدها ، وانحنت «جميلة» تلفها بملاية بيضاء ، وترفع شعرها المعروق الملتصق بعنقها وصدرها وجبينها . .

عثر «جبر» وهو يحاول فرد جسدها . . فمال عنقها الطويل ، والتف على يده . . بكى الرجال الثلاثة . . فيما أتم «جبر» بمساعدة «جميلة» فرد جسدها المتصلب الذي لان وهدأ بعد خروج الروح . .

ساوت «جميلة» قدميها ، ووضعت مخدة بين الفخذين ليبرز وجه الجنين المزرّق . . جرت غطاءً أبيض على جسدها ، وقبل أن تفلته تماماً على الوجه الذي رحل . . برك «ثامر» على ركبتيه . . فوكزه . . «جبر» في كتفه وانطلقا للخارج .

خرجت «المولّدة» وهي تكمم فمها بطرحتها . . لحق بها «حمود» . .

* إياك والصراخ . . الوقت متأخر «وبركة» في حالة مرض شديد . . اخرجي بسلام . . اخرجي . . اخرجي . . مسح دموعه وانحنى على وجه «فضة» ، فشعر بيد «جميلة» تمسح على رأسه . .

* أمي كنت أود أن . .

* صه . .

١٠

في صيف (٩٩) كما نصف العالم أتابع الأخبار من «التلفزيون» ، والغارات الأمريكية - البريطانية على بغداد . . العالم قمقم يحترق . . و«ثامر» نصف العالم الآخر الذي لا تصل إليه وكالات الأنباء ، ولا أجهزة التنصت ولا حتى آليات الحرث التقليدية .

اختفت أخباره . . توارت بإرادتي . . أسدلت عليه ستائر الصيف الذهبية . . «ثامر» اسم للحب الذي يشبه أحداث الحرب . . تارة ترتفع حدته إلى غارات تكتسح الأماكن الآمنة والقرى المهجورة ، وتارة تهدأ ، ولكنه الهدوء المتوجس المترقب الحذر ، ولعل عقلي قد نبت شجرة مغروسة وسط القلب الذي هدّه التعب . . شجرة ترويها دماء القتلى على ضفاف دجلة . . وأخذ حجمه النهائي يوم قال لي في حديث ودي في ذات الصيف . .

* تعالي لنشرب فنجان شاي ، «تعالي وحدك أو مع من تريدين» .

علقني كعادته في عنق الزجاجة . . حشرني بغباء ، وترك لي حرية الولادة . . إما ولادة امرأة لا أحبها ، وهي تلك التي تحظى بالهواء النقي ، وتنعم بيديه ورائحة جسده . . أو ولادة عكسية ، وهي انزلاقي مرة أخرى إلى بطن الزجاجة المعتم ، أراقبه والعالم من خلف الزجاج الشفاف . . حينها أهملت كل شؤوني ، وظللت في زحام المدينة انتظر إصراره . . اندفاعه نحو الزجاجة وبقر بطنها ، وحضن أنثاه

كما تريد هي ، لا كما يريد . . كما تريده أن يعشقها ، لا كما يريد هو أن تعشقه . كنت أعلم أنني في قلب الزجاجة أقاسم «فضة» لغة القبور وظلمة الرؤية ، ولم يكن يعني «ثامر» سوى ضجة الدم الوردي في شفاه المرآة المعلقة في عنق الزجاجة .

آخر مرة هربت فيها إلى صوته بعد أن أعدمت هواتفي المعلومة لديه ، لاكتشافي أنني في لحظات الغياب المسكوت عنه ، قد لا أعثر على تلك التي تلد في غفلة من ضلع رجل واحد فقط . .

يُخيل لي أحياناً أن حواء وجدت بهذه الطريقة ، وأنها إنما كانت لبنة الكمال المفقود في جمال الكون الذي خُلق في ستة أيام . .

اعتصرتني نشوة أن أكون حواء التائهة في الكون البعيد عن «علامة» ، وهيجتني شرور حواء . .

* كيف أخرجه من جنته ؟ .

سؤال ساهم في تهدئة الرغبة الأنثوية التي تجرفني إليه . .

سؤال آخر . .

*كيف يتحول المهمل في صندوق الحياة إلى ثروة ؟ .

وكيف أن صُدف الحياة قد فردت لي حوائط مكتبي الصغير مرآة بحجم الدنيا . . لأكتشف من خلال عقلي الذي نبت مع أول غارة على بغداد في صيف (٩٩) ، لأجد على الهاتف حنجرة تقول بصوت يشبه الرعد . .

* لقد تأخرت عليّ . . أجل . . تأخرت ١٥ عاماً . . وتخيلي لو عرفتك منذ ١٥ عاماً وما زلت ، يومها أفتح عيني على جمال الدنيا . . ساعتها كيف ستكون الدنيا معك . . لكن لا بأس . .

دعينا الآن يا سيدتي . . نفتح أعيننا معاً ، ونفتّح الدنيا معاً . . وبأنفاس مبهورة يتابع . . لا أقصد إلا أن نكون معاً ، ولكن هل يا ترى سنظل معاً ؟ .

فأخبريني كيف نتفتح على الدنيا معاً . .

وفي ذات المرآة ، في المكتب الصغير أيضاً ، يكشف العقل ذاته أنني كنت

أشبه بفأرة في معمل حياة «ثامر» فأرة تجارب بسبعة أرواح . . تكبر وتتوهج كلما زادت تفاعلات المواد السامة التي يقلبها فيها كيف يشاء ليكتشف نوعاً من الغربة في داخله يزاولها في ذات أخرى غير ذاته .

وكان يبدو للفأرة أنها تتقلب على أوضاع يريدها دون أن تعلم عدد تلك الأوضاع ، ولا تعلم أي مرحلة تأمل أن تكون قد بلغت بؤرة الغربة التي يأمل كسرها . . «ثامر» كان يريد هذه «الفأرة» أن تسمعه دائماً عبارة (سأفعل كما تريد أنت) .

وهي بقلبها . . تقلب المسائل يمنة ويسرة . . ربما لو أشعرته بذاك . . فسأسيطر على تلك الغربة التي تكونت في داخله على هيئة لذة . . تبرق ثم . . ثم ماذا ؟ .

أذكر أن «فضة» بعد الحرب الأولى بسنوات رسمت لي وجهه ، وأحاطته بقصيدة شعر شطبت بيتاً منها :

* لم يا «فضة» . ؟

* لأن «ثامر» علامة استفهام ، ولا يحق لنا أن نضعها إلا حيث تجبرنا اللغة . .

* لكن رسمك لا يشبهه كثيراً . . لقد جعلت له نظرة تشبه عذوبة القصيدة . .

هزتني من كتفي . . . هل نذهب ؟ .

* أين ؟

* إليه . .

* جدة واسعة . .

* . . . .

كنت يومها في معمعة توقيع معاهدة لإنهاء عهد لا وقت له ولا تاريخ . . ولا أدري ما معنى تلك السنوات التي عشناها معاً غريبين قريبين . . وهل هي جزء من تاريخه . . أم هامش . . ربما . . وربما لو اهتم قليلاً «بفأرته» . . أوه عفواً . . بلغته وتنظيم هامشه لفاق المتن جودة . . لأن الشروحات قد تكون أشد غموضاً وسحراً من الأصل المشروح . . وهو في سيره الحثيث يرى أن ما يفعله يحدث عن وعي تام منه وهذه مصيبته الكبرى .

فقد كان يمارس أحياناً لغة الحارة ، وأسلوب الولد الشرير ، وتشوقني تلك الرغبة الجارفة في أن يكون معي ذلك الولد الشرير الذي تمنى أن يكونه . . في محادثات لا طائل منها . . تدلّل على أن خبرته بمشاعر النساء صفر . . وذلك يوم هاتفته في صيف ٩٩ لم تكن المكالمة تلككاً ، ولم يكن سبب الاتصال مبرراً للاتصال ، أو مبرراً مضحكاً لسماع صوته .

كنت أُريده أن يلخصني في كلمات تحله من أن يكون علامة استفهام بالنسبة لي ، وأن أكون علامة تعجب في ذاكرتي المرتبكة .

* قال بعفوية شديدة . .

أنت وردة على مكتبي لا أحتاج إليها حين أكتب ، ولا حين أقرأ ولا حين أستعمل المشرط . . وإنما تعيد لي إنسانيتي حين ألتفت إليها فتعتقني من قيد الضرورة . .

لم تكن تلك القفلة أو الخاتمة لعهد طويل . . بعيدة لعهد طويل . . بعيدة عن أقلام الهواة والمؤرخين العظام . . أو حتى حكايات العجائز في ظل الجدران .

يبدو أنها كانت خاتمة الحلم بشيء ما . . ولا أدري لِمَ وعدته بقبلة . . وأنا ألف حول إصبعي المجروحة ضماداً كبيراً تلوث بياضه بزرقة الدواء .

لا أدري لِمَ تذكرت «فضة» وأنا أهيئ ذلك الوعد . . ولِمَ تذكرت تلك الأخرى التي هي أنا ، والتي برغم مرور الزمن لا تزال ترغب في إخراج لسانها في وجه أمها ، وأن تبصق بعنف في وجه «جميلة» .

هل يمكن بعد أن لخصني في كلمات أن أكون غير ما أنا لكنني حفظت الدرس جيداً . . وسأردده كتلميذة نجيبة في تلك اللحظات التي وعدته بها حين يقبل يدي بصمت . . وأدب مضحك ، فالتلطف والتهذيب مع الحبيبة مهزلة بل مسرحية هزلية لا طعم لها ولا معنى . .

فقد وقعت معاهدة بين الوردة وقدم الفيل ، إذ ليس بمقدور الوردة أن تسأل ، وليس على قدم الفيل أن تغير مسارها وسط الغابة ، لأنها تعرف أن البحر المغري يرتاح خلف شتلات الورد .

١١

«الرجل – الحلم المستحيل بدون فضة هو «علامة» وساعته الفضية التي ترتدي يدّه الأنيقة ! . . بالفعل . . أحياناً ترتدينا الأشياء فنضفي عليها القوة والجمال والشباب والحياة .

لم أكن أشتهي أكثر من رؤية يده وحنجرته ، ولأنه كان بعيداً في نهاية المتجر . . فقد اختبأت حنجرته في عطفة ياقة ثوبه . . وظهرت يده . . تحمل هاتفه المحمول كنت أقف خلفه وبجانبه . . وكانت عيناه تبحثان عني في كل امرأة . . عيناه تدوران . . وعيناي تتأملان قامته الفارعة . . يده . . حركته القلقة . . غضبه الواضح .

أدار ظهره يحادث عامل الخدمات . . فاجتاحتني رغبة لأن أركض نحوه وأضمه من الخلف .

أدار وجهه فأربكني الحلم والخطوة التي تراجعت ، المكان يموج بالعباءات السوداء . . و«الغتر الحمراء» ، والهواتف المحمولة ، والأغذية المعروضة بعناية ، وآلات المحاسبة والعيون والحراس . .

وأغرب ما كان في الأمر . . أنني أحسست أنه لا وجود لشيء اسمه رحمة . . فأين هي . . من هذا كله ؟ .

أخذت أتأمل كل قطعة في جسده . . برجفة أنثى وحيدة في كون فارغ إلا

منها ومنه . جردته من ثيابه بنظرة ، وألبسته غيرها بلمحة . . وأرقدته في سريره بلفتة . . ومسحت بيدي على شعره . . وزررت له قميصه . . وقبلتُ يده الأجمل . .

ولمحت في عينيه وعداً مثقلاً بالغيوم . .

* تعالي . .

تذكرت الله فناديته ، فلم أفلح في فلج السماء ، ضحكت وأنا أودعه بنظرة أخيرة . .

يبدو أن الرحمة لا تأتي إلا سراً ، وأن أبواب السماء تفتح في العتمة . .

. . ليلتها نمت ورأيت «فضة» وهي تقفز من فوق كتف القادم من تحت الكينا المعمرة . . يوم خنقها رسول الرب . . كان في عينيها نظرة من يتشبث بآخر خيط . . خيط الحلم الممتد من النافذة حتى نهاية المزارع قرب الأدغال في عمق الوادي . . حيث أشجار (الرين) . . المختبئة بحذر في أغصان الرمث الدقيقة التي تجاور أشجار السلم الجاف و«الشرشر» الذي يمتد على مساحات واسعة فوق الأرض السبخة كألغام الغزاة . .

ضغطت على يدي . .

الرحمة هي القوة . .

اغرزي أظافرك بقوة حتى تسيل الدماء وإن استعصى الأمر فاحلمي . .

ودخلت في النوم الثقيل . . أتابع مسار الحلم . . ارتميت على أرض رملية ملساء لا شوك ولا زهر ، خلعت «بلوزة» خضراء كانت تستر الجزء العلوي الذي تفتقت مساماته على صدمات خفيفة لهواء بارد . . جعلتني ألتصق بكتف «علامة» الذي تعلمت منه كيف أغطي النهد العاري بكفي . . وكيف أتلاشى في الظلمة كنجمة في ليلة غائمة . . حتى إذا ما هطل المطر غزيراً وجامحاً ولاهثاً . . تألقت ، وصخبت كالأرض الجائعة للرواء ، وتقلبت على الأرض منتشية برائحة العطر الممزوج برائحة الطين .

أعرف أنه مأخوذ به في تلك اللحظة فقط . . وأنا مجنونة به حتى الموت

والهوى والغرق على المدى وفي كل اللحظات . .

يُطيّر هواء الليل «البلوزة» ، تراها «فضة» من مكمنها القريب في مقبرة البلدة الوسطى . . تعبر مع خفته من شجرة إلى أخرى . . ولا أخجل من عينيها الرقيبتين على تلك الخلوة السحرية وسط الظلمة المجللة بلون القمر المزرق حيث أقف على ركبتي وأنتزع من ظهر «علامة» شوك «الشرشر» ، وهو بالمثل ينزعه من جسدي المحتقن بدمه . .

تسافر شفتاي بين كتفيه . . يأتي صوته ليزيدني تشبثاً وجنوناً . .

* أتظنين أننا داخل أسوار الأرض ؟ .

* حشرة طنانة تحوم قرب رأسينا على ارتفاع منخفض ، تستقر على خضرة «البلوزة» ، تندس بداخلها ليسكن طنينها . . فتزداد الفوضى داخلي وأنا أعاود نفض جسده من الشوك . .

* أترين حتى الخنافس هنا تطير ، ويخدرها عطر الأنثى ، وتلعب الورق . . وتنبح لو أرادت كالكلاب . .

فهل تظنين أنني أشبه الخنفساء الطنانة . .

مرق ثعبان أملس شديد البياض . . من بين أقدامنا ، والتف بسرعة على ساق شجرة جرداء . .

* إنه يشم رائحة البشر . .

* البلوزة . . ! ! .

* لتحملها بثقوبها وخنفسائها . .

* الثعبان . .

* لنجاهد في جذبها أم تفضلين العودة عارية . .

* ربما أيقظه تكسر الحشائش تحت الأقدام السائرة في الليل . . حيث يصب القمر ضوءه الناصع على الأرض المرتعشة على أصوات «مواتير» الماء الرتيبة ، وصفق أجنحة البوم لعسبان النخيل المنحني للأسفل ، وكان كلما ارتخى عسيب من العسبان الجافة وارتفع ، انكفأت لأقرأ له على ضوء القمر ما حفظته من أشعار

وأنا أعالج شيئاً بيدي . .

يسألني بخفوت . .

* لِمَ لا تخلعين حمالة صدرك ؟ .

* دعه . . فكل ما حولنا بهيج وجميل عداه . .

يهبط من أعلى الشجرة طير عناق أبيض . . تتهافت عليه فراشات وخنافس مضيئة . . تركض فضة نحو المكان . . فيتحول المكان إلى مملكة ليل . . وتنزلق مع الجموع . . سترتي . . ويتلاشى «علامة» خلف ستار الحلم . . ويحيرني استرجاع الحلم . . أكان بكل جنونه في ليل القرية . . أو وسط صخب المدينة . .

ثم . . يحرقني التساؤل . . أين تفاحة آدم . . وأين أنا ؟ .

١٢

«فضة» نزف من الصعب إيقافه . . استمرارية لحياة من العسير وضع نهاية لها . . ماض بلا بداية ، فقد اكتشفنا معاً ونحن نتجاوز مرحلة من العمر ، أننا من عائلة واحدة لكن بلونين متغايرين ، ولهجتين مختلفتين . . وطبقة اجتماعية بعيدة كل البعد عن الطبقة التي تنتمي لها الأخرى . .

كيف جاءت «فضة» إلى بيتنا ؟ سؤال ألحّ عليّ فترة من زمن دون أن أجرؤ على أن أسأل أحداً ، لم أسمع بها من قبل . . لقد وجدتها فجأة تنام قرب سرير «جميلة» تتوسد ذراعها الأسمر النحيل ، وتلتحف بلحاف عتيق . . وكأن ذلك الفراش قد وضعته «جميلة» لتعرف هويتها ، وإلى أي طبقة تنتمي . ولأن «فضة» لم ترفض ولم تمانع . . بل نامت في سلام . . فقد أعطت الإذن لكل من حولها بأنها صفر ، وأنها ليست سوى ثمرة ذلك المتسكع الذي اسمه «يوسف» ، العضو المتبقي من الفرع الثاني لعائلة تفرق شملها في أنحاء الجزيرة العربية .

تأملتها كما تأملها معظم أفراد العائلة الأصغر سناً ، واستوقفتنا تلك الهالات السوداء التي تحيط بعينيها وموديل ثوبها «الكرته» . . خطوط ثوبها بشارة أولى وأخيرة لحياة غريبة بدأت يوم زفت في ليلة مطيرة إلى «حمود» الذي يضاجعها آخر الليل حتى يجف حلقها ، وتتنمل أصابع يديها وهو يئن . .

* أحب يدك . .

ينتفض فجأة ويدفعها أمامه .. صوب دورة المياه ..

* استحمي ..

* لِمَ ؟

* لأني أريد ذلك ..

سألتني يوماً بعد ستة أشهر من عرسها هل الزواج يعني أن يخلع الرجل ثيابه أمام زوجته ، ويضع يديها وشفاهها فقط على جسده .

* ماذا ؟ .

* كررت تساؤلها ..

أحسست بمغص شديد في المنطقة السفلى من البطن كان السؤال أكبر مني .. لكنني فهمت الوضع الشاذ الذي تعيشه «فضة» .

وأيضاً كنت واعية بالرسالة التي تريد «فضة» إبلاغها لي . في تلك الليلة المشؤومة بعد حديث طويل مع «فضة» شعرت بالغربة ، وأسفت للقرار الذي اتخذه والدي فيما رفضته أمي .. الزواج من أخرى تنجب له الأولاد .. قررت أمي بعده السفر إلى الجنوب ، وكان وصولنا ليلاً في ساعة متأخرة ، فالطريق من «أبها» إلى بيت السبتي في الجهة المقابلة من الجنوب الغربي لم يكن وعراً ، ولم يكن طويلاً .. كان شاقاً معبأ بالشاحنات .. وكان والدي يغني ويهدئ من سرعة العربة .. كلما قطعت عليه أمي صمته ببكاء هستيري ..

ويفرمل بعنف إذا قطع عليه جمل طريقه فنتنبه إلى أننا برفقته .. فيلتفت ..

* هل تريدون شيئاً .. ؟ .

* لا .

* منذ زمن لم نزر أخي وأولاده ..

يوجه كلامه لي .. هل تعرفين أن عمتك «جميلة» أنجبت ثلاثة أبناء في السبع السنوات الماضية .. وأن «السبتي» ينوي الزواج مجدداً .. وأن العجوز «فضة» توفيت ، ثم يضحك بسخرية .. ملقياً ملامته الجارحة بصوت عال ..

* أمك لا تخبرك بشيء ..

* مسكينة بركة . .

العبارة الوحيدة التي نطقت بها أمي ، يومها لم يذكر أحدهما سيرة «فضة» الصغيرة التي لا أعرفها مطلقاً حتى شاهدتها تهجم على العربة صائحة . .

* عمي . .

لم يكن أبي يكرهها ولم يكن يحبها . . قبّلها في جبينها ، وأشار إلينا بالنزول وهو يسألها . .

* متى قدمت من دومة الجندل ؟ .

* منذ أسبوع . .

قرص خدها . . أحسنت . . ها أنت قد أصبحت فتاة كبيرة . . والعريس جاهز . . فما رأيك ؟ .

أشارت نحوي . . عمي من هذه ؟ .

* ابنتي . .

أنهت بقية كلامها وهي تعاون أمي في الهبوط من العربة ، وتحمل باليد الأخرى حقيبتها الرصاصية ذات الأرقام السرية .

* من هذه يا أمي ؟ .

سؤالي متأخر قليلاً لأننا دلفنا إلى داخل الحوش الكبير ، وتطايرت الدجاجات النائمة وهزّ «نبهان» بذيله . . وأقبلت «جميلة» تلف شيلتها حول وجهها الثلجي ومن عمق صوتها الناعس :

* مرحبا . . مرحبا ألف . .

تعرّفت على «جميلة» أكثر من خلال فراش «فضة» الغريب ، ومن جهة غير معلومة فاحت رائحة حارة خليط من زعفران ومياه راكدة . . أخذت دورات متصاعدة في المكان ثم تلاشت . . ضغطت على قلبي وأنا أتبع الرائحة التي تلاحق بقاياها الظهور التي تسبقني . .

الرؤية صعبة في الضوء الذاوي . . وفي الداخل رأيت العراء مستمراً . . الصالة التي تحيطها الغرف مكشوفة من الأعلى . . وغرف النوم مواربة . . ورائحة النوم

العميق . حوامات هوائية تذبل عليها زهرات البرتقال التي تعاشر ظلمة المكان وقططه وخنافسه المضيئة . .

احتلت أمي سريعاً الجزء الخاص بأبي ، وتجادلا كثيراً قبل أن يأويا للمرة الأخيرة إلى أحضان بعضهما . .

* أين أنام أنا ؟ .

جاءني صوت «فضة» من الخلف . .

* تعالي .

١٣

في أول صباح قروي صحوت على صوت «فضة»

* صباح الخير . .

رائحة قاتمة تخنق المكان . .

* هل هذه رائحة الخبز ؟ .

تكسّر شديد في أنحاء جسدي ، وجوع يهيجه أكثر رائحة البيض والمرق الذي تعده «جميلة» . . انزلقت من فوق السرير الخشبي الجاف بثيابي المتكرمشة . . واجهتني شمس الثامنة . . تلفت يميناً ويساراً ، حيرتني طرقات المنزل المجهولة ، والباحات الواسعة ، والعنزات التي تتقافز حول «جميلة» قرب التنور ، وتمتمات رجل تأتي من خلف - عمود - ضخم من الأسمنت العاري من الطلاء . . تدس كل أجزائه عدا قدميه العاريتين المشققتي الكعبين . . أكثر المكان مفروش بالحجارة الصغيرة وقد نسيت ارتداء الحذاء . . وقفت فوق رأس «جميلة» . .

* عمة «جميلة» . .

* «لبيه»

* أين أمي . .

خرج رأس الرجل من خلف العمود . . حرك قدميه فوق بعضهما حركة سريعة . .

احترق جوفي وأعدت السؤال بمرح خامل . .

* أين أمي ؟ .

* نائمة . .

تلك اللهجة الباردة حرضت الشك ليطفح به صوتي ، وأنا أتعلق بثوب أبي الذي جاورني فجأة دونها . .

* أبي أين أمي ؟ .

ورغم الضوضاء التي أحدثتها فيما يشبه الجنائزية التي تتبع الفقد كمراسم متوارثة قبلت بعد مرور ساعتين من البكاء المتواصل أن أتناول قطعة من الخبز والعسل قرب والدي الذي انحسر وجوده كله في حياتي في تلك اللحظة فقط . .

وكان الجميع في انتظار دور آخر أشد عنفاً تقوم به فتاة في الثالثة عشرة حزناً على فقد أمها التي عهدت بها إلى عائلة تتعرف عليهم للمرة الأولى . . والذين يرون بحسب وجهات النظر المختلفة أن ما حدث أمر عادي كما تراه كل النساء في المنزل .

* تزوج عليها وهجرها . . كرامتها فوق كل شيء . .

* إن ما فعلته أفضل فعل تقوم به امرأة لديها عزة نفس .

* من «عافنا عفناه» .

لغط يعمي بصري وبصيرتي .

حين لا يتورع الرجال عن التندر . .

«وحمود» الرجل الثالث في المنزل . شاب متزوج حديثاً يغازل امرأته «عذبة» . .

* ماذا لو فعلت مثل عمي . . ؟

* لن أبقى دقيقة واحدة .

«السبتي» من أنفه الضخم يقول :

* «المرأة» التي تهرب من بيت رجلها «عاهرة» ، ثم انتفض وهو يوجه كلامه لوالدي . .

طلقها . .طلقها وإلا طلقتها . . أنا . .

آلمني رأسي . . صرخت . .

* أبي . . جائعة . . أنا جائعة جداً . .

أمد يدي بدون أدب إلى صينية الخبز المدعوك بالعسل . . أشهق وأنا أضع لقمة حارة في فمي . . أضم شفتي عليها وأشرق بدمعة كبيرة أخذت طريقها حتى أسفل الذقن ، ابلع بنهم فتنحدر دمعات أكبر . . أكبر . . أكبر . . بكثير بكثير من لقمتي . .

تقترب «جميلة» ويجلجل صوتها . .

* كلي . . كلي يا بنت المطلق . . خيرك وخير أهلك وخير كنز ظهورهم «النشمي حمود» وإخوانه ، أرتعد . . نظرة خاطفة في الوجوه . . كشفت لي عن كره مستتر في عيني «فضة» ، حدس لا غبار عليه برق في عينيها فجأة ثم تلاشى ، اختفى تماماً ولم يظهر بعد ذلك إلا بعد أعوام ، حيث تأكد لي أن تلك الفتاة السمراء كانت تعي أن شيئاً ما يوشك أن يحدث في حياتها . . وكنت قلقة حتى وأنا أشاركها الطعام واللعب والسهر على الأفلام بعد منتصف الليل في الجزء الخلفي من المنزل . . وقت هجعة الشباب الصغار أو سفرهم . .

لكن نظرتها تلك في يوم الفقد ذاك . . هرّبت كل دمائي إلى قاع الدغل المليء بروث الحيوانات وزهور المطر النابتة عليها بألوانها الصفراء والحمراء ، وحبيبات اليانسون النفاثة تتهادى وسط زهراتها البيضاء . . انسكب هناك وسط القاذورات والروائح العطرة تخرج من وسط نكهاتها اللزوجة . .

نفرت حبة النهد السمراء . . حين ذكرتني بضحكة ماكرة بجزئية من فيلم رأته منذ أيام ، ووعدتني برؤيته في ذات اليوم الذي هربت فيه أمي . .

. . تدحرجنا معاً من الأعلى للأسفل فوق مرتفع رملي يطل على الوادي بعد وداع قصير لوالدي . .

* هل ستسافر أبي . . ؟

* كوني عاقلة . .

* ستسلو وسط أخواتها فقط أرسل ملفها المدرسي وانتبه لعملك يا رجل . . بنات (مال اقوم) .

رمقت «السبتي» بنظرة وجلة ، ثم انثنيت بأمر من والدي ، وقبلت ظاهر يده . . فأعادت «فضة» بوشوشة . . سيرة الفيلم الموعود . . فتوهجت السمرة الخفية . . لوحت لوالدي . .

* وداعاً . .

تنميل تصاعد في شرايين يدي اليسرى . . فأرخيتها إلى جانبي ثقيلة ومتورمة . . هاتف خفي يقول . .

* لن تخرجي من هنا . .

وبثبات غالبت الطفلة المتوحشة في داخلي التي ترهق أمي . . طغت مرارة اليأس على لساني فأنا بدأت أحاكم أمي غيابياً ولو كنت أملك الإذن لإطلاق الرصاص . . كحكم عادل . . نعم . . إنه حكم عادل فقد كان على النواميس الكونية أن تفرض مثل هذا القانون . . على أن يتم بعد أن يبلغ الولد مرحلة من العمر يصبح بإمكانه أن يصدر الأحكام دون تراجع أو تردد أو شك . . يصدرها عن قناعة تامة . . بأن هذا الرجل أو تلك المرأة قد حُكم عليهما بالإعدام علناً لأنهما لا يصلحان لأن يقوما بدور آدم وحواء ، ولأن الله مستغنٍ عن خلافتهما في الأرض . . أساتذتنا في المدرسة . . يأمروننا في كل بداية درس أن نحب والدينا . ويدعمون تلك المطالب بآيات طوال يرتلونها بخشوع . .

* وجع . .

تتمتم فضة بذلك . . ثم تلوي فمها حتى لا تراها المعلمة . . أرتبك وأرفع يدي .

* «أبله» .

* نعم .

* «فضة» لا تحترم القـ . . . . .

تبكي «فضة» قبل أن أكمل نميمتي . . تجرني المعلمة من ياقة ثوبي بعنف .

* قفي خارجاً . . وارفعي يديك إلى الأعلى . .

استغرب لقرار المعلمة . . إنها تعاقبني على صدقي . . تلك الحادثة كانت أول الصدامات بيني وبين «فضة» لكننا «ننسى» بمجرد أن نبدأ في اللعب الليلي أمام «الفيديو» الذي نسيه أحدهم وبداخله فيلم عجيب . .

ننزوي كالقطط . . نتلمس أماكننا على الضوء المتسلل من النوافذ الغارقة في الصمت ، نستغرق في تأمل المشاهد وكأننا في كون آخر . . وسط الظلمة والهسيس الذي يحدثه الصوت المنخفض للجهاز . . ومن عمق لذة التجربة والوجوه الخرافية وحرارة ما يحدث والمنعكس على روحينا معاً . . أقترب من أذن فضة . .

* فضة ؟

* ماذا . . ؟

* هل الأستاذة تشاهد مثل هذا ؟

* هس . .

* انفصلنا عن بقية البنات في المنزل تمادياً في حفظ السرّ الذي يجمعنا بعد الحادية عشرة في ليالٍ متفاوتة . .

تهددني «فضة» وهي تقرص فخذي . .

* حذار أن تعلم «نص الاتريك» ، إنها نمامة وستخبر إخوتها وسيضربنا «حمود» .

أقلق لقلقها وحين أقسم لها . . بأن لا يحدث تقول بنبرة شك :

* هل نسيت ما حدث في الفصل . .

* ولكن ذلك كلام مقدس . . وأنتِ . . تصرخ في وجهي . . غبية . . بقرة صغيرة .

١٤

الغباء سيرة حياة أحياناً . .

وأظن أن الغباء والبلاهة لا ينقطعان عند حد من العمر معين . . أو يُحد منهما عندما يبلغ المرء بعضاً من ثقافة أو وعي . .

بل إنه يتخذ مجراه الأبدي حتى بعد أن يصل المرء إلى سن الإدراك والتحسس المهووس تجاه الأشياء والناس . .

أعتقد أنني سجلت هذه الكلمات في مفكرة صغيرة وأنا على مكتبي المدرسي . . أتلقى التعازي في وفاة كبير أسرتنا بعد غياب أسبوع كامل . . الرجل الذي رفض أن يحملني السائق كل صباح من المنزل حتى المدرسة . .

* لا . . المكان بعيد . . وأولاد الحرام كثر . .
* لكن عمي . . أنا راشدة ومسؤولة عن عمل ليس بالسهل .
* اصعدي الباص الأبيض الذي يقل بنات الحارة .
* «حمود» موافق .
* «حمود» ضحك من منخاره الواسع ثم تابع . . هذا الصباح سيأتي الباص . . لقد واعدت الرجل . . وإياك والخلوة مع السائق . . سأقطع دابرك لو خالفت أمري . .
* حاضر . .

رفع سبابته مهدداً . . فانحنيت على يده أقبلها . .
* تحت أمرك .
تحرك . . فاستدرت لألحق به . . عمي إلى أين . .
* قريب .
ابتعد صوب الشرق ميمماً جهة شتلات النخيل التي أحياها حديثاً «جبر» بعد أن تنازل «السبتي» له عنها نظير قيامه بعمارة المزرعة ما يقارب السبعة عشر عاماً .
أسرع في خطوه مع بزوغ الشمس . .
نصف وجهها وضح فضجت قلوب النخل المتماوتة ، واهتزت أصوات مواتير الماء . . التي تعالت من ثلاثة اتجاهات مختلفة . .
لا يوجد في باحات المنزل الواسعة إلا أنا ، والقطط ، وابن «نبهان» «مروان» الكلب الأبيض الشقي الذي هجع مستمتعاً بحسحسة الذباب الأخضر على ذيله فوق «الطوالية» التي كنت أجلس عليها ليلة البارحة . . آه شرب بهدوء من العسل المعقود في حنجرة «علامة» .
* سلام . .
أبعد سماعة الهاتف عن طبلة أذني . . أذني التي لا تحتمل قوة تلك الحبال التي تحتجزني ، تحملني ثم تُقعدُني بينها ، وبيدي ألفها حول قدمي ومعصمي . . فتسري رعشة مكهربة .
وكيف لا ؟ .
كأنني بين يديه . . في صدره .
كيف تعود الحواس إلى أماكنها ، وأنا التي أعطيتها خروجاً بدون عودة . .
يوم خرج «ثامر» من البلدة بعد موت «فضة» ، وكأن «فضة» كل نساء الأرض . .
ورضيت أن أكتسح كل مكان كان لها . . سريرها . . ذاكرتها . . روحها . . وزوجها . .

كأني بها تقول : . . دائماً الكرامة تأتي مع الحب ، والموت ظل الحب . . هما تلك الجوهرة التي تضيء توهجه ، وحين لا تكون ، لا يكون هناك فرق بين الإنسان والحمار .

هل أنا حمارة أو حتى قطعة مقطوعة الذيل تتسلى بأكل الفُتات وهي تردد . .

* عمر سنعيشه بالطول أو بالعرض . .

* أتذكر اتصاله التاريخي . .

* سيدتي ها أنا أهاتفك من جديد لسببين : أولهما أنني مسافر غداً . . والثاني . . بي رغبة للاتصال بك .

قلت له :

* أنت كالمطر . .

* غداً سأكون في الرياض . . تضخم صوته ، ولأنه لا يشبه الرجال . . ولأنه يُريد أن يحافظ على دمائه الشابة متوهجة . . مدهوشة باقتحامه الجزر الوثنية في داخلي . .

أصغيت إليه بحماس شديد . . بحاسة جديدة هي خليط مرتجل ، بدافع مني بين العقل والقلب معاً .

* سأكون غداً في الرياض . .

* ستكون رحلتك مضجرة . .

* أريد أن أسمع صوتك . .

يفاجئني بخطوه السريع . .

أي حماقة تلبستني يوم وافقته . .

* أنتظرك . .

ما كان يدري أنني أعصب شعري بطرحة سوداء حداداً . .

وأنني أقضي نصف ليلي أتجول بين أسرة بنات المتوفى المحزونات . .

وأقتطع جزءاً من نصفه الآخر لهدهدة طفل «زينة بنت الرعيان» امرأة عمي الميت . . التي تهاجمها حمى النفساء . .

يوم اتصل كـان الجـمـيع في حـالة برء واضـحـة ، وكنت لا أزال أؤدي دوري مضاعفاً وكأن «فضة» تجرني خلفها . .

* لا تتواني فالناس تستثقلنا . . نحن - وإن كنا منهم - غريبتان .

ركضت بعد مهاتفته صوب المرآة . . أف قناع كثيف من السمرة ، وذبول حول العينين وحركة بطيئة . .

سألت «فضة» الغائبة .

* أهذا الواضح على وجهي ضريبة الرتابة والحياة الواحدة ، «السبتي» قبل موته صفعني . .

* عـودي إلى بيـتك الزوجي ، فـلا بنات عندنا تُطلق ، وإن لم يحكمك «حـمـود» سأحكمك أنا ، يريدني أن أصرخ وأعترض وأمنعه عن صفعي . . لا أتذكر أن أحد أفراد عائلتي فرح بنوبة غضب بدرت مني . . لقد ألبستني «فضة» بلباسها . .

* الصمت . . الصمت . . اخفضي رأسك عندما تمر العواصف . وصايا «فضة» لا تروقني في أكثر الأحيان فأحاول التمرد عليها . . فيقمعني المستعمر الذي ينام في صدر «ثامر» أركض إليه فيتوارى وحينما أتوارى يظهر . .

ولا أكـاد أرتب الأشـيـاء في داخلي . . حـديثـه الوردي . . رسـائله القليلة . . مواعيده حتى يبعثرها . .

* أنت لحوحة . .

رصاصة أولى أفرغها في الصدغ النابض . . جعلتني أعتدل وأهيئ الجهة الأخرى لرصاصة أكثر إتقاناً كيف يمكن أن يكون الحب . .

بالريموت كنترول . .

بالآلات الحاسبة . .

غداً اتصلي . . وبعد غد لا . .

أنا أعـمل فـلا تقطعي جدولي اليـومي . . هل يمكن أن يحكم العاطفة نظام معين . .

أعلم أنه الفوضى . . وأن الحب الفاشل . . ذاك الذي نضع له جدولاً أشبه بالجدول المدرسي ، ثم نمارس نزواته ورعونته تحت رقابة الزمن . . هل اللهفة على من نهوى . . عيب ننعت به ؟ .

* أنت لحوحة . .

غريب أن يبدر من رجل يملك النقيضين معاً . . الغافل/ الفطن . .

الهارب من الناس إلى الناس .

فكيف توصف أنثاه الأكثر براً باللحوحة وهو الفطن الذي قرأ وصايا الله في كتابه وإن من بلوغ الأرب عند ذي الجلالة والإكرام الإلحاح . .

الخضوع . . حين تركع بين يديه . . داعياً وملبياً وهاتفاً .

لن أنزع الرصاصة ليبرأ الجرح . .

وفي ذات الوقت لن أترك الجرح يفرز صديداً نتناً يلوث محاصيل القمح .

سأترك القلب على طبيعته . .

مردداً الوِرْدَ الذي يشاء . . فأنا لست ملاكاً ولا خرافة ، بل شيطانة أليفة تسبح في فضاء المسافة حيث تمرق الأمطار من فوقها ومن تحتها تغسل صدرها الموجوع بعقيدة أقرها الله ، ورفضها «ثامر» ، وتخضع لمس باطن الإصبع السبابة «لعلامة» .

ترى هل تؤنسه أم تحرقه ؟ .

عقيدة تقف بأقدامها فوق ذؤابات الأشجار العالية فتؤنس روحها الغارقة في الضباب الكثيف . . الروح التي أحبت «علامة» حباً أشبه بملمس الماء على الراحتين واللسان يتشقق عطشاً . . لجور السؤال الملحّ . . والمتقد دائماً في الذهن . . في حوار دائم مع الجسد . .

حوار يُبرز سطوة الجسد . . ولعله الظافر بالأمنية التي تهبنا صفة المذنب المحق ، المذنب الذي نخبئه بحرص تحت رداء العقيدة . . ثم في غفلة نفلته يوم تفتح السموات أبوابها في السرّ ، وتهبط الرحمة أيضاً في السرّ .

وإن كان ذلك في رؤية «فضة» عطاءً لا ثناء عليه ، فقد حلمت بها ليلة سفر «علامة» إلى الرياض .

تهزني . .

* «علامة» سيأخذ فوق سنوات عمرك وقتك ودمك . .

* «ليكن» . . ليكن يا «فضة» ، ففعل «ثامر» الابتزازي ، وجريمة عقد الزواج بدون علم من «حمود» ، حافزان لتكرار الفجيعة مع «علامة» لكن بشعور مغاير عن ما مضى . . بطريقة مغامر يبحث عن ثروة لا نهاية لها في منجم معزول في أقصى القطب . إنه بر الأنثى الذي لم يستهو «ثامر» ، إنها طبيعتي التي لن أتركها . . وبر الأنثى عندما تسمو وتصبح كائناً فوق المعتاد - الأنثى التي تمد كلتي يديها باسطة كفيها . . لتناول الآخرين روحها . . قلبها . . وقتها . . ساعات سرها وحلمها . . صائحة بفرح . .

* خذوا أيها الرفاق وسوسة شيطان وابتهال نبي .

وكيف لا أكون الأنثى البارة ، وأنا التي ناضلت أشهراً في سبيل الحصول على فيلم تحدث عنه «ثامر» عشرات المرات . . وشاهده «حمود» مئات المرات ، وكلاهما يدفعانني لفعل المشاهدة بمهارة مفضوحة . .

تغيبت عن عملي لأتابع مشاهده بهدوء بعيداً حتى عن عيون الشمس ، بعيداً حتى عن قلبي الذي لا يحسن سوى الحب ، وضخ الدم بصبر وأناة . . مشاهد مدهشة . . هياكل هنا وهناك لا أستطيع تمييز هذا من ذاك . . نسوا أسماءهم وأوطانهم .

قلت «لفضة» التي تشاهده معي . .

* لو كنتِ مكان أحدهم أكان يمكن أن تميزي إحساساً معينا تستطيعين التحدث لي عنه .

قالت : لو أنني أعاني من مغص كلوي لنسيت المرض عند ممارسة هذا الفعل في جوه العادي المألوف . . ثم التفتت مقطبة . . وقالت :

* تكمن لذة هذه الأجواء عند التحدث عنها ، عند التهيؤ لها . . وأيضاً في تمنيها ، ولكن أعتقد بأنني سأسحق جسداً وروحاً عند الاندماج فيها . . وضعت أصابع يدي اليسرى على أذني . . تخيلت لو أنني . . .

لا بد ساعتها سأخرج من الجو أشلاءً وفُتاتاً تذروه الرياح . . بل ربما شاة تثغو في المراح ، أو عنزة لا يسترها ذيلها القصير . .

إنها لحظات مروعة لأجساد تُخدر أولاً ، ثم تكوى بالحديد السائل ، وتصعق بالكهرباء ، وفي النهاية عند بلوغ الروح الحشرجة تُسل تلك الأداة إلى موقع آخر ، فتحقن بنفس المادة المخدرة فتتراجع الروح ، ويتهاوى الجسد في ركن قصي يُعيد ترتيب شرايينه وأوردته وشعيراته الرقيقة التي سُلت في لحظات التعذيب على الجسد الآخر الذي يحتاج إلى طاقات أعنف لمواجهة ما لا يحتمل . . لكبح اندفاع المعدة وانفجار الرئة . .

أدارت «فضة» وجهها نحوي وأنا أضغط بأصابعي الثمانية على أذني . . ضاقت عيناها . .

* أيمكن أن يكون هذا بعضاً من الموت اللذيذ ؟ .

* لا أدري . .

فتحت فمي ثم أغلقته . . قدرتي على التحكم في اللغة هزيلة . . لغتي ضعيفة ، كذلك ثقافتي ضحلة ، لكن داخلي يموج منذ سنوات بشيء لا يمكن وصفه أو إهداره أو حتى إهماله . . لقد بُنيت حوله السدود والحواجز ، لكنها لم تصمد ، وها هو يتغير ، يخرج كبركان مخيف لا يكتفي بالتهام مدينة واحدة بل نصف الأرض . . نصف البحار ونصف السموات . .

تتهاوى تطوح بها أعاصير البركان إلى الفراغ الأبدي . . إلى العدم المتواجد خلف الذاكرة . . طاف برأسي صوت «ثامر» ، إلحاحه وهو يطاردني في كل حديث بيننا ، ثم أمنياته بأن تتهيأ لنا صورة شبيهة بتلك الصور المشاهدة ، يضحك طرباً . . ليت كل نساء الأرض معنا . .

يصمت قليلاً . .

يطول الصمت بيننا . . فيهدل صوته ضاحكاً .

* هل يروعك الكلام . . إنه فضفضة رجل جبان إلى امرأة تحبه ، ويأمنها . . فهل على الكلام جمرك وحظر . .

ماتت «فضة» ، وغادر «ثامر» البلدة ، وتقطعت الأسباب إلا من الرجل الذي جمعنا . . امرأتين له تحت جناحه بسريرين مختلفين . .

أذكر أنني مرضت ، وارتفعت درجة حرارتي قُبيل المساء ، وعاودتني رعشة الحمى التي تداهمني منذ فترة طويلة ، واشتد التهاب العنق الذي يشل يدي اليسرى . . ففزع «حمود» نحوي باسماً .

* خير . . وسلامات . . ثم أغلق الباب ، وفتح ذات الشريط ، فاندفعت نحو الحوض ؟ أفرغ ما في معدتي . . وهاجمتني نوبة سعال حادة . . وفي الساعة خضعت لفحص طبي سريع . . أمر بعدها الطبيب بمراجعة المستشفى وإجراء التحاليل اللازمة على الفور . . قال الطبيب محذراً :

* تهاجمك النكسة تلو الأخرى . . ليلة البارحة كنت بخير فما الذي جد؟ . .

* تحممت مرتين . .

* لقد أخطأت . . صدرك متعب يا بنتي .

انفجر «حمود» . . إنها مدللة يا دكتور . .

* صحتها ضعيفة يا سيدي . .

* إنها كالبقرة ، ألا ترى أن وزنها أثقل من وزنك مرتين ، لم أعد أسمع حوارهما . . هاجمتني مشاهد الفيلم الموت . ./ الحياة . ./ العذاب . ./ الجحيم . ./ الفردوس . . «وحمود» الذي يدفعني بشراسة لممارسة الفعل والمشاهدة . يراقب وجهي ويصرّ على أسنانه . .

* ما رأيك ؟ .

* شيء مريع . . قذر . .

* أنت المريعة . . باردة . . قطعة خشب . . لا تصلحين إلا لقيادة العميان في الطرق الطويلة . . وكأنني لم أسمع شيئاً . .

* انقضى الليل . . وعشت الموت بطعم مغاير . . المعايشة الحسية حيث العبور إلى الفردوس الباهت عن طريق الجحيم البارد .

١٥

الغباء سيرة حياة أحياناً . .

العبارة ذاتها قالتها «فضة» ليلة زفافها حين لحقت بها بتحريض من عمتها «بركة» التي تركت في غمرة فرحها للنار أن تلتهم جزءاً من طرحتها الطويلة . .

أسرعت نحوها . . وأطفأتها بضربات سريعة من يدي . . فاحترقت ثلاثة من أصابعي . .

يومها ضربتني «جميلة» على مؤخرتي ضرباً موجعاً وهي تغلق دوني باب حجرتها . . ثم طردتني بعدها بعد أن داوت الحريق المؤلم . .

قرب «فضة» في حوض «العزلاء» الواسع افترشنا الرمل والحشيش ، وقذفنا بالحجارة إلى الأعلى ، فتساقطت حبات البلح نصف الناضجة على رؤوسنا .

* ما بك ؟ .

* أفعل الخير وأعاقب عليه . .

قالت : بهدوء وهي تسحبني من يدي إلى بقعة خصبة بين أشجار الرمان . . لأنك غبية . من أجل الآخرين نفعل أي شيء لكن دون أن نشوه أنفسنا .

وبحركة لا إرادية حركت أصابعي المسلوخة .

* آه . . لكنها ستشفى . . أجل ستشفى . . لكنني سأشفى . . تكررت تلك العبارة بعد حادثة الحريق الصغيرة تلك عشرات المرات بل مئات المرات . . وفي

كل مرة اكتشفت أن وراء الحوادث الصغيرة التي تجدد الصدام مع نفسي . . ذاتاً غبية تُعلّم دروساً كثيرة للآخرين لكنها لا تتعلم ، وأسوأ الأحداث مرارة . . يوم قلت «لفضة»

* هناك رجل يصلني بالحياة . . كان ذلك قُبيل زواجنا نحن الاثنتين .

وبحرارة متوهجة فرت من صوتها . .

* ألا يقدرك الله على الصمت والصبر . .

ذكرتني بما كان يجب أن أفعله ، لكن الاعتراف بما هو محرم قد أفلت من فمي . . ما عاد بالإمكان التراجع ، لم أكن قادرة على الحب وحدي . . حتى «ثامر» كنت لا أقوى على مواجهته وحدي ، أو اختلاس قبلة منه بعيداً عن الآخرين .

أذكر أنني التقيت به خلسة في مكان خفي في «مكة» تحت إحدى المآذن . . وأنا أمسك بيد «فضة» التي قبلها قبل أن يقبلني . .

وأذكر جيداً أننا تخاصمنا بعدها نحن الثلاثة أنا وهي لأنها قالت :

* أنت لا كرامة لك قبلني أمامك إذاً هو يحتقرك . . هو أيضاً تطاول بحديث لم يكن في البال .

* تمنعت . . هل ذلك مقصود . . ليقال إنني أركض خلفك . .

ابتعدت عنه . . ففاجأني صوته . .

* ما الخبر ؟

* أنت رجل نصف . . نصف

فهم ما أعنيه . . وعنفني قائلاً : . .

* أنت التي أحضرتها معك . .

«ثامر» محق ، لكن كيف هي الرؤية لدى الآخرين ، ثم أنا . . أنا ألست من أولئك الآخرين . . وهل «علامة» في الزمن الجديد الذي أقلبه بين يدي الكائن الوحيد الذي أريده . . سرّاً حتى عن نفسي ، وإذا ما تمليته برؤيتي التي تفضح صمت الصخر وجدته رجلاً يمتلئ غروراً وشهوة . .

وهل أنا كما تقول «فضة» حين قبضت على قلبي تحت جلباب «ثامر» ذات يوم .

* إنها مجرد ألاعيب رجل يكبرك سنوات . .

لا أصدقها ، أو بالأحرى يصدقها عقلي ، أما قلبي . . فلا . . ما الذي يحدث؟ لماذا تطير بي الذاكرة إلى أيام الحرب . . وذلك الانفتاح الأجمل ، إذ أصبح بإمكاننا أن نحمل أشرطة الفيديو إلى داخل غرفنا ، نملأ بها تلك الخلوات التي يجمعنا فيها قليل من الأوان مع الدكتور «ثامر» في المزارع التي شُلت حركتها من الملاّك الذين يركضون خلف مصالحهم ونحن نتكدس في البيوت القروية هرباً من الكيماويات الوهمية . . قالت «فضة» في مرحلة سابقة لأيام الحرب .

* أهلنا هم الأسلحة الكيماوية التي أبادت الإحساس بالأمان في ظل رائحة رجل حقيقي . . ثم تصمت منتظرة ، فلديها الحدس الكافي أن أمامها نموذجاً للتسرع الغبي . . تتركني ألتقط الحديث نيابة عنها . . دون أن تلبس نفسها تهمة صغيرة سرّية حتى أمامي أنا . .

أضحك وأسرح صوب السماء . . بحب يغمر مساحات صدري .

في الماضي كان «ثامر» أجمل الخلوات ، ولا أظن أن هناك لحظات تعادل لذة الهرب إلى حيث يختبئ بين أشجار التوت خلف المنحدر المغطى بتعريشات العنب ، ومساحات الحلفاء الواسعة الأشبه بمقبرة أمواتها أحياء ، كان يحمل بيديه (عقدة شيح) لتحميه من الهوام وكنا نستدل على مجلسه الخفي عن طريق رائحة سجائره التي نتبادلها معه . .

وكنت يا «فضة» تحرصين على أن تأخذيها بعده مباشرة ، تشدينها بنفس طويل وعميق . . تجعل نظرته تضيق وهو يتأمل ، ولا تسعُلين مثلي ، آخر مرة أذكرها يوم لحقت بك عندما أعلنوا خطبة «حمود» لك ، وكنتُ المنقذة الأكثر حباً لعمتك بركة . . كنت تبكين أمام «ثامر» يومها كنا قد كبرنا وبدونا أكثر قدرة على الكلام المنظم ، وأكثر قدرة على ترتيب تأملاتنا استشعاراً لجمال الأشياء والتقاط نقاط القبح من منابتها ، لحظة بدأنا نعي معنى الفراغ ومساوئ الطرق المستقيمة ،

.كنا أيضاً قادرات على تنظيم الخطط الصغيرة لفرص ضئيلة من سعادة نسند بها الحائط الذي يتساقط رمله . . رويداً رويداً . . في تلك الأثناء كنت أعاني من صدمة الفقد الحقيقي لأمي التي هربت بأختي المريضة . . وتركتني همزة وصل بينها وبين عائلتي ، أو ربما ورقة رابحة في يدها لإمكانية العودة . . والضغط والامتلاك لرجل ما عاد بإمكانه أن يحبها . . إذ شاع بين النساء فجأة وحتى البنات الصغيرات أنها لن تعود .

* كيف «يا عمة جميلة» لن تعود أمي ؟ .

* لقد طلقها عمك «السبتي» نيابة عن والدك في المحكمة . . أظلمت الدنيا ، وتبعثرت أمنياتي برؤيتها مجدداً ، واعتصرتني عبرة كتمتها فكسرت عظام حنجرتي . . انسللت من بين يديها المشغولتين بصنع حلوى الخطبة فلاحقني صوتها :

* أمك تلك الغبراء لم تقدر النعمة .

في تأنيب «جميلة» حسرة على أمي التي لم تكن في قوتها : لاحقني صوتها أكثر . .

ماذا في ذلك ؟ الرجال يتزوجون . . الرجال يخونون ، والرجال ينامون في فرش غير فرش نسائهم ، ونتشون بأصوات غير أصواتهن . . وهذا عمك «السبتي» متزوج بامرأة في عمر أصغر بناته شفاه الله وعافاه من مرضه . . ماذا في ذلك . . قعدت على كبده وكبدها . . زمجرت بحنق . .

لكن أمك . .

لم أعد أسمعها . . وعبرت الخارجة التي تؤدي إلى بيت العجوز «فضة» القديم ، بحثت عنك يا «فضة» وألفيت «بركة» قرب القدور تحوم في المذبح . . تغسل الدماء المتناثرة على جدرانه ، فتفوح رائحة الدم لتشتبك برائحة عرقها الذي تمسحه بطرف شيلتها أبو مفتاح . . أناديها . .

* عمتي «بركة» . .

* أهلاً . .

* هل تركت «عذبة» المنزل . .

تضحك وهي تحمل الخروف المسلوخ لتلقي به في قدر الماء المغلي . . ستعود . . ستعود . . ستعود . . النساء يغضبن حين يتزوج رجالهن ، و«حمود» الآن في منزل والدها ، لقد حمل لها مهراً يوازي مهر فضة .

* لكن لماذا يحير «السبتي» «فضة» ؟ .

* اصمتي ولا دخل لك . . صوتها يتقطع في بحة واضحة ، وهي تنحني لتحمل الخروف الآخر لتلقي به في القدر الضخم الذي تشتعل تحته النيران التي التهمت جزءاً من طرحتها ، وكادت أن تصبح الشواء الأمثل لتلك الحفلة . . وأشارت بفتور . .

* الحقي بها المجنونة لا بد ستجدينها عند العزلاء . .

وأنا أهبط المنحدر إليك لحق بي «نبهان» يهز ذيله جذلاً ، انحدرنا معاً صوب المزارع المطلة على الوادي الذي يفصل بين المدينة وبين القرى المزروعة المتناثرة على أطرافه من الجهة الغربية .

أقفز فيتطاير رمل المنحدر خلفي ، ويسابقني «نبهان» تارة من جهة اليمين وتارة من الشمال . . نندس معاً داخل تعريشة عنب أحمر . . أجمع الحبات الناضجة ، ونبهان . . بخفته المعهودة يقلب التراب تحت منبت الشجرة الكبيرة . . شيء مخفي هناك .

استخرجها زجاجة دواء خالية مملوءة بالملح والفلفل الأسود . . أفرش على يدي ورقة عنب طازجة وأرشها بالملح والفلفل وأقضمها . . وجبة غرائبية تجعلني أسابق «نبهان» بعد أن دفنت كنزي القارورة بملحها وفلفلها .

نبح «نبهان» فجاوبته الكلاب المختبئة في العرين ، وحوّمت قبيل الغروب الغربان العائدة إلى أوكارها . . حين لمحتك «فضة» تحت العزلاء . . أشرت «لنبهان» فانكفأ عائداً ليرقد من جديد قرب المذبح حامياً لحم الوليمة من القطط الضخمة التي تحرك أذيالها مهيئة نفسها لاقتناص غفلة معهودة من بركة أو إغفاءة «لنبهان» .

* فضة هل تعلمين أن أمي لن تعود ؟ .

تبكين معي . . بكاؤك خليط . . فأنا أعلم أنك لا تبكين على أمي إلا بالنزر من تلك الدموع الغزيرة التي واجهت بها وجه طبيب المستوصف الذي استوقفنا . .

* مساء الخير يا بنات . .

* دكتور «ثامر»

* أجل

أزاح لثاماً أحاط به وجهه وقال :

* معذرة اليوم جمعة وقد دُعيت للتنزه . . رفعنا مناديلنا على رؤوسنا ، وغطينا شعورنا المضفرة ، ناداك يا «فضة» بإشارة من رأسه . . هززت رأسك بنعم . .

أعلم أن حديثكما المتتابع السريع بما يشبه الشفرات المتقطعة يدور حول أمي .

* ما الذي فعله ذلك السادي «عبد الرحيم» ؟ .

شيء من الفرح اغتصب قلبي . . حرر أركانه من الفقد الذي لوث دماءه .

ذلك الاغتصاب ضغط بشهوة وهو يجرف كل قذارات الحب الأمومي إلى الخارج بنشوة حذرة أزهرت برؤية «ثامر» . . بتأمل حركة يديه . . لحيته الشقراء وثوبه البني الفضفاض سرنا معاً تعمقنا في الدغل اللدن . . بعد مطر ليلي غزير دفن جحور الثعابين والنمل ، ونكس أوراق الشجر إلى الأسفل في صلوات لم تستطع حرارة الشمس الذابلة طوال اليوم أن ترفع ظهورها عن ذلك التبتل الصامت . . بل ذوبت الندى الذي يقطر من رؤوس الأوراق . . في فترات متباعدة دون انتباه إلى أن الطبيعة تعيد في حنان إلهي غير محسوس حفر الجحور لبيض الهوام المتناثر . .

* كيف حال العروس ؟ .

رفعتِ إليه يديك وأشرت إلى صدرك . . كما تراها التفت ثامر نحوي . .

* هل ستعودين في الإجازة إلى أبها ؟ .

* «فضة» لن تعود رفيقتك في المدرسة ، بعد فترة ستصبح سيدة متزوجة . .

* لا أعتقد . .

* أخشى أن يزوجك «السبتي» إنه لا يطيق رؤية النساء في منزله فرادى . .

. . .من البعد مرقت سيارة ضخمة في الطريق العام فجر دويها الغروب الهاجع . .

وبقدر ما كان منتشياً ويقظاً لحركة الأقدام الغريبة والعيون المتلصصة بقدر ما كنت قلقة مأخوذة بما لم أحسب له حساباً في الزمن الخالي ، رأيت الدكتور «ثامر» في تلك اللحظات القصيرة بطريقة جديدة ، ومن زاوية أشد وضوحاً وجهه . . لحيته . . طريقته في الحديث . . ونظراته التي ينقلها بيننا بالتساوي . . طفل يمارس حريته . . يدخن ببطء شديد . . ويلحّ عليك بالفعل وأنت بالتالي تدربينني دون قصد منك يتأمل أساورك البراقة في يديك العوديتين . . وهو يقول :

* يداك . . لونك . . مثل لون جدتك «فضة»

لكن عمتك «بركة» أشد سمرة .

قاطعته . .

* هل تدري كلنا بيض إلا «فضة» وعمتها «بركة» فهما سمراوان . . لون مغاير لنا . . لا أحد يشبههما .

أمي قالت إنه لون الجدة المتوفاة «فضة» لكن لماذا تزوج عمي بها . .

تنحنح «ثامر» وغير من جلسته . . فأجفلت على صوتك الباسم . . وأنت تهزين رأسك في حديث ودي مع الدكتور .

* لا تؤاخذها يا طبيبنا . . كالعادة هي في لحظة غياب تام .

* انكمشت وأنا أمسح أنفي . . وما عدت أسمع ما يدور ، تساؤل ملح . . هل التاريخ المخلوق الوحيد الذي يُنسج في حالات عدم التمييز في لحظات الغياب التام . .

النبش الصريح في المعلوم المسكوت عنه كان أشبه بالقصف المركز . .

ما حدث شبيه بحالة الاستسلام للحنجرة ، بهدوء لُغِمت المنافذ السرية . . وبهدوء عصف الانفجار بكل المحاصيل اليانعة . . وتمت المسألة وسط جو من

القناعة التامة في أوقات سابقة للفعل .

إذاً لماذا تبقى «فضة» ولونها . . هي المسألة الاستثنائية الوحيدة في محيطنا الضيق محرم الخوض فيها أو كشفها .

ولماذا تصرّ «فضة» على كتمان ما شاهدته معها ليلة هربنا من فراشنا الليلي بصوت جورج وسوف إلى المنحدر . .

وروعتنا بقعة نور تنبعث من الدغل الذي يحاذي الوادي . . ففزعنا إلى عم «جبر» الذي تعلقنا به خذنا . . معك . .

وكان الموقف أشد وأقوى من صفعة بصاج نحاسي على وجهي . . بينما . . استدارت «فضة» لتفرغ ما في جوفها . .

رأينا لمع النصل في يد ثامر . . تحز بجسارة . . في جلد شيخ جاوز التاسعة والستين . .

كانت ليلة ختان عظيمة . .

ولأول مرة أرى «السبتي» يبكي . .

في أثناء عودتنا . . تعلقت بذيل جبر . .

* هل الرجال يختتنون الآن . . لكن لِمَ تختتنون الصغار . . كيف يفعل الدكتور ثامر هذا ؟ .

* صه . . شد أذني . . حذار أن تفتحي فمك بكلمة أقسم . . سأعلقك من رقبتك في «العزلاء» . .

« . . . جبر» ماكر . . على وجهه سخرية ومرارة . . زادت من توهج خديه الأحمرين . .

* «فضة» ما الذي يحدث ؟ .

* إخرسي . .

. . . لم أنتبه لصمتهم الذي يراقب حرجي وعيني التي تحفر مع قطرات الندى ندبة غاثرة في صدر فضة . . التي صاحت بمرح . .

* «هيه» نحن هنا . .

«فضة» هل اعتبرت ما صدر مني تحدياً . . ومناهضة واعتراضاً على زواجها ، وهي حفيدة «أمة» كانت فيما مضى إحدى قيان المنزل الكبير لكن . . لا . . فالظلم خيبة . . إذاً كيف أفلتت الأشياء مني أمر لا أعرف كنهه . . فهذا الرجل الماثل أمامنا أشبه بأحد الفرسان العابرين . . وغداً سيمضي لكنه جزء فاعل في لحظة بدأ فيها قلم القدر يسجل حكاية قديمة . . إذ لم تكن نظرته لي بريئة وخاصة حين أغرق في حديث يُفجر أسئلة . تمثل الإجابة عنها أزمة قد تتحول إلى تاريخ قد يصادره الآخرون إذا تم التجاهل الجماعي له .

لكن نظرة «فضة» بحركتها السريعة تُصرّ على أن تصبح بلاهتي سيرة تثبت الأرض تحت قدميها عضت على شفتيها :

* ليت جدتي «فضة» شاهدة على هذا اليوم وأنا أزف إلى ابن «السبتي»

اكتشفت لأول مرة من خلال نظرات الدكتور «ثامر» المثبتة بشراهة على جسدها أنها فتاة مكتملة طويلة . . لها أنف دقيق رغم سمارها . . مملوحة النظرة كثة الشعر ، وأكثر ما يلفت إليها . . ذلك الحور الساقط للأسفل فهو أشبه بدائرة غليظة حول عينين مفتوحتين وكأنهما لا تعرفان النوم أبداً . . ذلك السواد الذي يشكل كحلاً طبيعياً - يحتد وتزداد سمرته في أحيان متفاوتة ، وفي مناسبات قليلة يهدأ حتى يصبح خطاً مريحاً جذاباً وساحراً عندما تمتلئ عيناها ببريق يوحي بأن تلك الفتاة تسير على جنب . . تأكل وهي تأخذ زاوية حادة . . تنام على حافة السرير . . روح في حالة تأهب دائم . . ذلك التأهب تزداد وطأته في حالات السلام القليلة عندما يصبح ذلك الحور خطاً دقيقاً ناعماً يميل إلى اللون البني الداكن . .

ومن حالات السلام تلك الصدفة التي جمعتنا بالدكتور «ثامر» يوم خطبتها . . سألته «فضة»

* ما الذي تفعله الآن ؟ . أعني . . دائماً وأنت وحيد . .

ضم ركبتيه بذراعيه وراح يهز جسده في نسيان تام . .

* هذه البلدة يا «فضة» تعني لي نصف العالم ، فهي البقعة التي وجدت بها

السـلام الروحي والأمـان النفسي - أرض حـالمة لا تزال بكراً هي المكان الأمثل الذي اختـاره الله لمثلي . . الطلاقـة التي نبـحث عنهـا في الحيـاة . . فـالمدن أسـر ومسكين طفل المدينة إنه يولد مسلوخاً عن الطبيعة ، عن التـراب والرمل والهواء والماء وحشرات الأرض ، وطيوره وحيواناته ، يولد بجلد ناعم ويموت بجلد مائي . .

فحين قدمت إلى هنا . . كانت أول امرأة راعتني هي العجوز «فضة» ، التفت إلى «فضة» .

قرص خدها . . جدتك

لقد عاشت وعلى مدى حياتها الطويلة لم ترتد الحذاء ، ولم تكن قدماها وهذا ما أستغربه مشـقـقـتين . . كنت أقـبض عليـها تستـحم في البرك ، وحين تسمع خطواتي تخرج رأسها من الماء . .

* يا ولدي ابتعد فأنا أغتسل . .

* لم أكن أطيعها بل أجلس قربها . . أدعك قدميها بالحجر الذي تفضله . . منتظراً أن أشرب من يديها اللبن الذي تحضره لي والخبز المعفر بالرماد . .

* كل يا ولدي . .

طعامها الغريب . . يشعرني بأني أنبت كما تنبت الأشجار وإذا نحن لم ننمو كما تنمُ الأشجار فنحن ناقصو نمو لا نعرف نصف الحياة ، ولا متعة الأشياء وليس أسوأ في حيـاة المرء من أن تتسـاوى عنده الأشـيـاء وقد وصلت إلى تلك المرحلة المتقدمة في «جدة» أثناء عملي في أحد مستشفياتها الكبيرة حتى نُقلت إلى هذه البلدة برغبتي يوم دخولي إلى هنا عصفت بي كآبة مُرة أسابيع طوالاً لا أنام حتى أخلع ثيـابي كلهـا كـأن كل حشـرات الوادي تنام تحت جلدي . . وصراصيـر الليل تقبع فوق نافذتي . .

فـأهرب إلى المزارع وهذر الزرّاع . . ولا من صـديق كـأذن «جـبـر» التي لا تمل هذري . . أتكلم وأتكلم فـلا يمل . . كأنما خلقت أذناه لتسمعاني أجمل ما حفظته هنا وأشار إلى رأسه .

تلك المراسم الاحتفالية التي أقامها أهل البلدة ابتهاجاً بافتتاح المستوصف . .

ففي تلك الأيام كنت مستعداً لأن أنسى كل شيء . . فالكرم هنا قلب داخلي ، وغير المعهود . حك ذقنه . . وضحك متمتماً واحمر وجهه ربما أن كلامي أكبر منكن . .

* لا أرجوك قل . . واقتربنا أكثر . .

ألاحظ أن الرجال هنا يكرمون الغريب برائحة التراب . . بالندى . . بالنساء اللاتي يتنافسن على إطعامي . .

رمقته «فضة» بنظرة جعلته يلتفت نحوها . . غير مجرى الحديث . . وهو ينظر إلى ساعته . .

* الوقت متأخر والليلة «عليك الهرجة» يا «فضة» ، اختفى بين الأشجار . .

ذابت «فضة» من بين يدي . .

ولم أنتبه أنني وحيدة إلا على صوت «جبر» ماذا تفعلين أيتها القردة . . ثم طوح بعصا صغيرة . .

* اذهبي . .

* لم أتزحزح . . ولأول مرة . . لم أبلع دموعي ، نهجت بصوت واضح

* «ليه»

ثم إن فضة كانت هنا . .

زعق آمراً . .

لقد صعدت الآن نحو المنزل ، ألا تعلمين أنها ستكون هذه الليلة . .

*كنا معاً . . كيف . . ؟

* لا تكثري الثرثرة . .

اصعدي واستعدي فوالدك قادم في طائرة التاسعة .

١٦

يأتي الآباء . . يذهب الآباء . . لا شيء يتغير ليس هناك ما يبشر بالفرح أو ينذر بالسوء ، ضاق الليل بالسهر ، وتدافعت النساء بعطورهن يتأملن العروس . . بعضاً من وقت ، ثم ينطلقن ليجاملن «عذبة» .

زغاريد وجلبة . . ابتهاجاً بالعرس . . بالخطبة وبمولود «عذبة» التي تجاهر بأنها تستطيع أن تغلق على «آليات حمود» في حقيبة ذهبها حتى ولو أعرس بعشر نساء . . كانت وهي على فراش النفساء لا تخفي حرقة وهي توشوش لأمها .

* لعنة الله عليه ولد جميلة يتزوج عليّ أنا .

تقرص أمها فخذها هامسة :

لا تري النساء ضعفك . . النساء عدّوات ، «فحمود» من أخذ ؟ تلوي فمها . . أمة ابنة أمة .

ولأن أذني تلتقط سريعاً ، أفرز لساني مرارته «لفضة» .

* «عذبة» تهين جدتك . .

لم يكن مزاجها سيئاً في تلك الليلة . . كل شيء يبدو مهيأً ونضراً . . نسمات الليل تنذر بمطر خفيف ، فالجو كان مليئاً بالسحب القاتمة ، والكلاب لا تحوم كعادتها حول أسوار المزارع .

. . عدلت «فضة» من هندامها أمام المرآة . . وبدون أن تلتفت نحوي . .

عضت على شفتها السفلى . .

* كنتُ معه . .

* من ؟ .

* ثامر . .

انقلبت معدتي . . واعتصرتني حرقة . . فأسرعت نحو دورة المياه . .

لحقت بي وضمتني من الخلف ، وضغطت بيدها على معدتي حتى هدأت نفسي . . تناولت «فوطة» من حقيبة مهرها ومسحت فمي ، ودفعتني من صدري بأعصاب متماسكة وقالت :

* أعلم أنه يعجبك . .

ضحكت من أنفها وتابعت . .

خذيه هو لك من الآن .

* أحبه يا «فضة» فلِمَ تفعلين هذا ؟ .

* اسأليه ! .

* كلب . .

* يقول إنك لحوحة . .

تحركت نحو الباب ، فاستوقفتني بإشارة وهي تكمل كحل عينها . . يقول . . إنك تخافين عليه كأمه . . تخشين عليه من النساء والبرد والطعام الحاف . . تغربلين نفسك وأنت تغلفين له التحف الصغيرة وزجاجات العطر الثمينة . .

قطعت كلامها بضحكة طويلة مبتورة . .

* عجيبة ! أنت كل هذا تفعلينه ولا أعلم . . أدارت وجهها وبسخرية قالت :

* كل هذا لا يريده . . إنه يريد ما لا تجيدينه . .

استدرت فلاحقني صوتها . . سافراً . .

* «تكفين» غلفي تلك الروح الهائمة فوق البحار السبعة بورق السولوفان . . إنها بضاعة مرفوضة أيتها البقرة الصغيرة الغبية . .

. . . ذاكرتي مشوشة عن تفاصيل الاحتفال بزفاف «فضة» وليلة الدخلة . .

كنت أصغرها بخمس سنوات ، واحبها بقدر ألف سنة ، ماتت وهي الشاهدة على نمو تلك الروح التي تود أن أغلفها بورق السولوفان . . نحو الأعلى . . حتى وهي تحدثني عن لحظة اللقاء بينها وبين «ثامر» على مسمع من عم «جبر» الذي صفعها فرفعت صوتها صارخة . .

* أتدري . . لِمَ تصفعني ؟ لأنك أنت قليل أدب ، وعمتي جميلة قليلة أدب . . والسبتي . . وثامر والعالم كله . . كله قليل أدب . .

* كرر الصفعة على وجهها فتعلقتُ بكتفيه . .

* عم «جبر» لا تضرب «فضة»

* ألا تسمعين ؟ إنها امرأة متزوجة .

* «طز»

كممتُ فمها . . صارخة . . «فضة» «عيب» أخاف أن تسمعك أذن غير أذن عم «جبر» ثم لماذا هذا التصرف مع الرجل الذي تحبينه كأعظم رجل في الدنيا . . دفعت بي نحوه .

* أنت «سوسة» فلا تلمسيني . . ولن أصمت فالعالم كله قليل أدب ، وأنا واحدة من هذا العالم ، ولن أحيد عن الطريق . . قلة الأدب حياة كاملة ، والوحيد الذي ليس قليل أدب هو «مرهون عقليّ» ، لأنه لا ينتمي لا إلى الرجال ولا إلى النساء ، مخلوق مريح من أجل هذا وضعوه حارساً على بوابة المدرسة ، وقهوجياً في الأعراس ، وحكماً في غياب العقلاء . حكت أنفها وهي تنثني على حزمة برسيم باردة ، وتمضغ بعض وريقاتها الطازجة . .

قالت بصوت خفيض جداً . .

سأظل أحلم بالدكتور «ثامر» ، ولن أتورع عن تكرار التجربة . ابتعد جبر عن مجلسنا فأدارت وجهها نصف . . قلبت شفتها السفلى ، ورفعت حاجبيها . . اسمع يا أنت ، لا تضغط على أذنيك «يا شيبه» ، ثم صاحت . . ما أجمل تلك اللحظات . . وما أروع كسر الحاجز وقت أن رفعت يدي له ، وخرجت على خيوط الشمس أمشي كما تمشي فراشات الصيف باتجاه أضواء المنازل التي تختبئ في

مخازنها المبيد والسم بعد أن كنت نائمة كما تنام جدتي وأمي بانتظار الرجل الذي اختاروه لي زوجاً .

الصعود تم على شق الضوء ، وقد جاء متأخراً بعد فوات الأوان ، وبعد أن وقعت على ورقة الملكة دون أن أرفع رأسي ، ومعه تأكيد بأنه بعد ثلاثة أيام فقط ، سأحاط بالنساء من أمامي ومن خلفي . . أمشي خطوة . . خطوة على دق الطبل ونقر الدف ، وخطوة خطوة أرتقي درجات مفروشة بالسجاد الأحمر .

وأستسلم لنظرات النساء والرجال ، وكل الذين أعرفهم ، أعلم أن كل ذلك سيتم ، لذلك مارست الصعود وبدقة أكثر عملية الصعود على كف سحرية ، حيث اختبأت في حضن «ثامر» لحظة أن شرقت السماء برذاذ خفيف فمسحته يد القمر . .

الذي ظهر باسطاً رداءه منادياً .

لبيت النداء في عيني «ثامر» الذي يتكئ بجانبه الأيسر على عشرات النســـاء .

* كذب . .

هزت رأسها بمرح معجون باليأس . . وتابعت أنا مثلك لا أدري مدى صدق هذا الحدس ، إلا أنني أختصم معه كلما أخرجتني الغيرة عن سجيتي وكلما صعدت على ظهر الحلم إلى حيث تركع هياكل المسخ . . وراودني الشك وثوراته هناك في السماء حيث وقفت وتجرأت على صنع قبلة حقيقية . . لا يحملها المسخ رسولاً بين الصوت والصوت . . والرغبة المجردة الوقحة التي نتبادلها في الهاتف . . هذا المسخ الحقير . .

بل أتت قبلة حقيقية مباشرة من أنثى مكتملة مهرة أصيلة حسمت الأمر . . ونفضت الفزع وتقدمت خطوة ثم أخرى ، ونفذتها كأول عمل صالح في حياتي الكئيبة .

من الذي باستطاعته منعي وأنا التي نويت ؟ . من يوقف تلك الرغبة الجامحة في هجعة الغروب في ذلك المكان البعيد عند منافذ السماء . . بعيداً عن هياكل

المسخ التي أوقدت نار تلك الأحاديث المختلسة في الصباحات المبكرة ونهايات المساءات الراعدة . . دعكت وجهها بكفيها بقوة عنيفة ، وتثاءبت ثم تابعت :

لقد تراجعت في اللحظة المناسبة . . تراجعت حتى كادت قدماي أن تزلا وأهوي من انتهاء الفضاء حتى ابتداء الأرض المجدبة .

«فثامر» رجل لا يقوى على ملامسة النساء ، لكنني أديت واجباً عظيماً تجاه نفسي البشرية .

١٧

مما ورثته «فضة» في منزل ابن عم والدها «السبتي» ، وضع مشوش احتفظت به طويلاً رغم علنيته ، حتى قفز بها «ثامر» من محدودية التفكير إلى رحابة القدرة على التآلف مع كل وضع . . وبدأ العجب الذي يسيطر عليها يتقلص . .

إذ كيف لامرأة أن تعيش في بيت رجل كان يوماً زوجها . .

الإجابة تسمعها كل عام من «السبتي» ، يكررها كل عيد وهو يدلف على «بركة» في مجلسها ، ويتكئ على حافة «الصلل» المصبوغ «بالبوية» الخضراء ، المزركش بالذهبي والفضي ، والمنقوش بالأبيض ، والدولاب الخشبي المتربع بدرفه المصبوغة بنفس اللون على رأس «الصلل» .

فما إن تراه حتى تكسر فوق الجمر الأحمر المتقد في حفرة صغيرة وسط «الصلل» بخورها وعودتها ، ويعلو صليل «النجر» فترتفع زمجرة مخنوقة في صدر العجوز «فضة» المتكومة في مصنف حجازي في الركن المقابل «للصلل» مرحبة بمقدم «السبتي» وهو يخطو خطواته التي يسبقها صوته الجهوري . . وخلفه سيل من الأطفال والنساء مع تباشير أول يوم في شوال ، حيث تصحو القرى الرابضة على حافة الوادي من «سغب» مروراً بـ«شبرة» و«البهن» حتى «ظلفع» على رائحة العود الأزرق الذي يكنز من العام إلى العام ، وبخور الدواسر الثمين ، وأصوات «المهاريس» ، وصوت الإمام في مسجد العيد الذي سوِّر بالطوب ، ورش ترابه

بالمياه ليلة العيد حتى ركدت الأتربة . . مردداً الله أكبر . . الله أكبر . .الله أكبر . .
وحيداً يتردد من قرية إلى أخرى ، ثم يهوي في قاع الوادي الجد العظيم الذي تربص بمسجدنا حتى تمكن منه ، فانقض عليه وابتلعه .

صوت الإمام الخاشع لا تزاحمه «مواتير» المياه ، ولا جلبة المواشي ، في حين تفتح الأبواب الخشبية المنخفضة من بيوت الفلاحين والرعاة جنباً إلى جنب مع أبواب السبتي الثلاثة ، وبيت «المالح» الضخم .

تمتلئ الساحات والطرق الضيقة بالصبية والفتيات ، يسيرون بثيابهم الجديدة من دار إلى دار ، وجيوبهم محشوة بالزبيب واللوز ، وإذا أنهك أحدهم التعب نام تحت ظلال الجدران .

و«بركة» لها باب تعرف أن الصغار سيطرقونه مع تباشير الصباح ، وكعادتها تفتح الباب على عجل ، ونصف عملها في يدها . . تحشو جيوبهم باللوز وتدفعهم خارجاً . .

* عذراً يا صغار فأنا عارية .

ينطلق الصغار . . يثرثرون ثم يكرون عائدين منتظرين فتح «السحارية» ومتهيئين «القفشة» ستكون حديث العيد . . إذ عمد أحد الصغار إلى الجلوس خلف «بركة» دون أن تلحظه ، وشبك ذيل ثوبها الواسع «بدبوس» في أعلى طرحتها السوداء . . فحبس الأطفال أنفاسهم . . على صوت القادم . . يجر خلفه جماعة صغيرة من رجال وأطفال ونساء منادياً :

* «بركة» . . يا

تنتصب أمامه ويدها على فمها الذي تحجبه بلثامها .

* يا مرحبا . .

يهز يدها . . عيدكم مبارك . .

ويستدير على ضحكات وقفزات متسارعة من الصغار . . يجأر :

* كلاب . .

يخلع عباءته القصب ، يلفها حولها ، ويحل لها الدبوس ، ويتنحنح ثم يسعل

بتحرج . .

يصمت كل من في المكان ويصطف الجميع بانتظار قهوة «بركة» التي يضغط «السبتي» على يدها داساً بها العيدية .

مكرراً عبارته التي وعتها «فضة» بعد زمن ، وألفها الصغار قبل الكبار منذ سنوات بعيدة .

* «كنت حليلة واليوم حميلة»

ثم يزحف على ركبه حتى يوازي الكتلة السوداء ويصيح في أذنها . .

* عيدكم مبارك «يا فضة» . .

تهمهم «فضة» بشفتين غليظتين وبأدعية خافتة بلهجتها الأصلية ، وهي تتحسس بيد مرتجفة الأشياء القريبة ، وتتلمس أطراف «مصنفها» ، وتنفض أطرافه وتهش بيدها . . فيما يغرق الآخرون في مباهجهم وينسون وجودها .

تعبس . . ثم تهز جسدها وهي تنادي على ابنة ابنها . . «فضة» الصغيرة التي برز صدرها فوضعت على أطراف «بنس» «كرتتها» زرين بلاستيكيين بلون ورق العنب اشتراهما لها «جبر» من سوق الخميس . .

تطمئنها «بركة» بصوت عال . .

* إنها برفقة أندادها . .

تشيح العجوز بوجهها . . فيلامس «السبتي» بشفتيه أذنها الكبيرة . .

* استريحي يا عجوز . .

ومن الباب الخشبي ذي النقوش التركية يطل وجه «جبر» المتورد ، وينضم إلى الجمع في حين تنسحب أكثر النساء . . وأولى المغادرات «جميلة» التي تمد يدها مصافحة .

* عيدكم مبارك . .

* يدك جافة إذاً أنت راعية النهار ؟ .

* ما أدراك ؟ .

* ثوبك الأغبر .

يرتفع صوت «السبتي» . .

* القهوة . . «يا جبر» ودع النساء . .

* هذا الحر مهلك . . قالها «جبر» وهو ينفض ثوبه ، وينفخ بفمه من فتحة ثوبه . . وينتقي مكانه بعناية قرب «الصلل» ، ويردف موجهاً حديثه «للسبتي» . .

* لقد شح المطر هذا العام وستهلك مزارعنا .

شد السبتي على عصاه وقال . .

* لقد شح الناس بحق الله فشحت السماء برزقها ، ولو استمر الحال على ما هو عليه فسنهلك . . قال جبر وهو يلعق أطراف أصابعه من أثر دبس التمر . .

* اسمع يا عبد الرحيم يا سبتي ، لو فكر أحد الجيران ببيع مزرعته فلا تتوان عن شرائها ، وأظن أن الجفاف سيخفض من قيمة المزارع . . فالأحرى بالرجل أن يقبض قيمة مساحة خضراء خير من أن يقبض ثمناً زهيداً لمساحة جرداء . .

* لن يبيع أحد . .

* قلت لو . .

* ليس هناك مجنون واحد بعد هذا التحول يقدم على بيع مأمنه ومصدر رزقه . . لكن الشيء الوحيد الذي يراودني هو العودة إلى تربية المواشي في المزارع ، وأظن التي جفت بعد موت صاحبها . . «يوسف» - رحمه الله- وأحرقها الظمأ هي مكان جيد ، وسأحرثها عما قريب . . وسأصلها بجزء من الوادي . . وأحفر بالجزء المقتطع من الوادي بئراً ، ومنها أوصل المياه عبر «مواسير» إلى كل أنحاء المزرعة . .

* الوادي حرم الله . . !

لم يعلق أحد الرجلين المتصدرين للمجلس على عبارة «بركة» الأخيرة . .

كل ما تصاعد من أصوات لحظتها . . رشفات سريعة لقهوة العيد الحارة . . والنهوض لمقدم بعض الجيران من الجهة الأخرى لبيت «السبتي» ، وبخروج «السبتي» تسرب الواحد تلو الآخر ليخيم الصمت من جديد على مجلس «بركة» الذي سيظل خالياً حتى يحل أول شوال القادم . كسرت «بركة» بعدهم عود

كبريت وراحت تنقب به أسنانها دون أن تحول عينيها الشاردتين عن ملاحقة الأطفال الذين ملأوا الساحات بالصراخ واللعب ، ومطاردة الخراف الهاربة التي سُنت من أجلها السكاكين .

«بركة» في تتبعها لما يحدث في ذلك العيد وكل عيد يراودها حلم لا يموت . . وهو كيف يمكنها أن تدوس بقدمها على رقبة «السبتي» في يوم ما من أيام عمرها . . ذات الرجل «يا فضة» يعرفه حتى النائم من ضرب قدميه على الأرض . . فهو حين يعبر السبل يعرف العمال والصبيان والرعاة وقع خطوه ، وحتى النساء اللاتي يقتعدن أعتاب دورهن في كسل سرعان ما يختفين خلف الأبواب . . إذ ليس بإمكان أي فرد أن يصوغ له عذراً لخطأ ارتكبه ، أو يبدي امتعاضاً من شيء مهما كان عظيماً . . حتماً سيناله بسياط لسانه ، وبعين ثاقبة مليئة بالتهديد والنكال حتى ولو بعد أشهر طويلة . . كان يسمع ممن حوله وحتى من أبنائه نعوتاً توجعه . .

«الكافر» «الشحيح» . . . إلا أن ذلك كله ينساه بمجرد أن ينام . . لا شيء يشعره بالحسرة أو الندم . . سوى تلك الأنات التي تخرج من صدره كلما خلع ملابسه . . وأوصد الباب وواجه «جميلة» المستلقية . .

* تظنين أنني عبدك وملكك ؟ .

* أبداً .

يرفع قدمه ويرفسها على مؤخرتها حين تبتسم . . أقسم برأس «حمود» سأخلع رأس هذا الذكر لو وافقت «بنت الرعيان» تلك المزيونة الشحاذة على الزواج بي . .

* «يا الله كِبَر بهُدىً» . .

* اخرسي . .

* في أي مستشفى وعند أي طبيب ستفعل هذا ؟ . وهل نطلق النار احتفالاً ونذبح عقيقة ؟ .

* سترين أيتها الخائبة . . ثم إنني أريد ولداً .

* كما تريد . .

أذكر أنني سمعتها توشوش بسرها «لبركة» ليلة عرس السبتي «بزينة بنت الرعيان» . . الرجل منذ شهرين ليس على ما يرام . . هل تراه . . تصمت . . وتغير مجرى الحديث . . أقسم إنني لم أرفضه ليلة في عمري ، بل إنني أفزع إذا ما رغبت في الخروج إلى الخلاء ، أو ارتداء قطعة من ملابسي المعطرة . . يفاجئني الأمر . . وما عليّ سوى التنفيذ يجب أن يتم على الفور ولا جدال . .

يقتلني . . فأرى كأنما تنفر من الأركان المظلمة البراغيث والفئران . . وتنفق للرائحة التي يفرزها جسده ويعلو هدير صوته .

* الرجال كلهم مرضى . . وقذرون

وعليّ أن أجاريه . .

* معك الصدق ولك الحق . .

* القتامة . . والخلع . . والردة لا تصيب إلا الضعفاء الجوعى

* وعليّ أن أقضي بعضاً من الوقت قابعة بين يديه أنتقي الألفاظ والكلمات في تمجيده وتبجيله وفي جوفي دعاء . .

* ولد . . يا لله .

١٨

«علامة» أتوق إليك . .

* تخيلتُك كثيراً . .

* أتوق إليك . .

* أجيبيني . . فقد تخيلتُك ليلة البارحة كثيراً فقد شغلني ردك . . على هاتفي . . اتركني فأنا أُريد أن أبقى وحدي . .

* أبداً . . لقد أرحت نفسي وصدري المثقل بالإحساس الذي كنت أعتقده لن يجيء ، وها هو يورق بداخلي كزهر الربيع . . ودعني أسألك . .

حدد إحساسك نحوي حتى أستطيع أن أُجيبك . . ألصقت سماعة الهاتف على أذني اليسرى الأكثر فضولاً . . واستدعيت «فضة» من الغيب لتسمعك وأنت تقول بتنهيدة طويلة جداً . .

* هذا السؤال سألته لنفسي قبل أن تسأليني . . قلت أنت يا «شايب» . . بعد هذه السنين كلها أتيت إلى مدينة جنوبية لتتمتع نفسك بإجازة ، ثم تذهب وأنت محمل بالصور والهدايا ، وتفاجأ بإنسان ما . . في بلدة ما . . فترتبك أضلعك الهاجعة منذ سنوات وسنوات . . ماذا تريد وما الذي تحتاجه ؟ ، وماذا تشتهي نفسك وماذا ستعطيك ؟ . هذا ما سألته لنفسي كثيراً كنت أريد أن أعرف ما الحكاية بالضبط . . وتعاركت مع أسئلتي بعضاً من وقت ، فوجدت أنني لا

أحتاج إلى إشباع جنسي . . ولا أريد تمضية وقت حتى تحين عودتي . . ولكن وجدتني وبصدق أحتاج إلى امرأة مملوءة . . مملوءة حتى النخاع بمجموعة أمور وأشياء قد وجدتها فيك أنتِ ، وجدت إنسانة . . وجدت امرأة حين نفكر في أمر نصل إليه معاً . وإذا تحدثت لا أحتاج إلى شرح حتى يصلها حديثي . . بل أجد أن كلماتي تصلها كما أُريد . .

. . إنسانة ما في داخلها أكثر مما في خارجها . .

والأشياء التي تريدها لم تجدها بعد . .

وكثير من الأشياء التي بداخلها أمور فيها الإحساس بالفطرة الطبيعية . . الإحساس بالأشياء كما خُلقت أول مرة . .

امرأة أنتِ . . ما في داخلك من الإحساس والمشاعر ، ومن الوعي والإحساس بالناس وبالأفكار . . مغاير عن أي امرأة تأخذ الأمر كأي موضوع وبمجرد أن تغلق السماعة تنتهي . .

امرأة أنتِ . . تعطي الأشياء طعماً . . وتهبني أنا إحساساً أنه ما زال هناك أناس يحسون بالأشياء كما أُريدها وأتمناها ، وتماماً كما ظللت سنوات أبحث عنها . .

إنسانة أنتِ . . سنون وأنا أنقب عنها ولم أجدها ، وأخيراً وجدتها ، لذلك لا بد أن أتمسك بها . . لأنني لن أجد مثيلتها ، ولن أجدها هي لو لم أمسك بها الآن .

فهل تشعرين بما أقول كما أُريد أن يقال وأن يُحس . . فأنت . . غير . . غير . . غير عن كل الناس فقط من هو ذاك الذي يعرف . .

استطرد . . بعد صمت جعلني خلاله أغير موضع سماعة الهاتف إلى الأذن الأخرى . ليس فقط يعرف . . ولكن كيف يكتشفك . . فأي أعمى قادر على ذلك؟ ولكن كيف بالإمكان لأي كان أن يستخرج تلك النقية من بين ركام الحياة الذي أفسد لها كل شيء جميل في داخلها . . وإن كنت أرى أنه لم يفسدها ، ولكنه عذبها وأشغلها بأمور حياتية عادية غير هامة ، أما الأشياء المهمة فقد

انشغلت عنها .

وإذا استطاع هذا الكائن المتحدث إليك أن يصل معك بهذه الصورة المتخيلة إلى مناها ، فمعناه أنه قد وصل لشيء ينسيه حور العين .

ثم بمزاحه اللذيذ . . قال :

هذه واحدة من النساء لا تعرفينها ، لكنني أعرفها وأعرف أنها تستحق كل جميل في هذه الحياة فتعالي . . سأجعل لك منزلاً صغيراً .

* لا . . أريد غرفة صغيرة . . أختارها وسط مدينة ما . . أسجل على حوائطها اسمي . . واسمك . . صورك وصوري . . غنائي وغناءك . . أملأ أركانها بك . . بعصافير الدنيا وحمام الله . . أعلق على نوافذها عناقيد الوهم الزرقاء وأحلام الحياة الزهرية . . أريد أن أضع في كل ركن من أركانها سريراً صغيراً ، وأريكة ، وقارورة عطر ، ونهراً ، وشلالاً وحصاناً أحمر . . وإبريق ماء ، وقنديلاً ، ومنديلاً ، ومرآة ، وأغنية .

نحـن في عيشـة الوصال الهنيـة
نجتلـي الراح في الكؤوس السنيـة
قـد لبسنـا هياكل النـور لما
فارقتنـا الهيـاكـل البشـرية

صوتك يربكني ، ويزيدني الحلم الذي تضعه بين يدي ضياعاً وأنت تقول :

* سأخلق من أجلك مكاناً وزماناً . .

أما المكان فقد عرفته . .

وأما الزمان . . فهو المتعة الأبدية . . السعادة .

أوجعتني الأمنيات . .

وصادرتني من مكان الحلم وشوشة «فضة» في أذني :

* أنت تشتهينه فوق الاحتمال .

* أشك يا «فضة» .

أشتهي الحلم الذي يرسمه . .

وأغرق في تلك الشهوة المحمومة التي تتربص بي في قاع الحنجرة . . وتتمدد بعفوية فوق لسانه الريشة راسماً لي ملامح المكان . . وموغلاً في الغيب .

سأهبك المتعة الأبدية . .

السعادة . .

كيف يوقظ كل تلك الحرائق في داخله لامرأة لم يرها . . صوت فقط يأتي إليه بين الحين والآخر . .

وسألت «فضة» وأنا أزحف على ركبتي . . أحبو نحو الركن الذي يحوي صورها وبقاياها . . ناديتها . .

* «فضة» سأذهب إليه . . سأجعله يرى هذا الوجه المخبأ في صوت رقيق وهادئ . . سأريه القصة القديمة محفورة على تقاطيعه الجافة . . وعبثاً أن أبقى خفاءً لرجل فوق العادة . . لرجل يطير بي كل مساء فوق الروتين . . وينشر لي رائحته في أجواء الليل تعابثني حتى غفلة النوم . .

«فضة» أتوق إليه . . وكلما تعاظم هذا الشعور احتواني الحزن . . فأندس أكثر في حضن الوحدة . .

غريب الوضع الجديد يا «فضة» ، الخروج من الوحدة إلى حضن «علامة» الوهمي إلى السعادة التي يحزمها مع بروق ليل الجنوب ، ويدفع بها مع الريح إلى سريري الملاصق لحائط في غرفة جانبية أخبئ تحته كل كنوز العمر .

«فضة» سأسارع إليه . . سألقي بنفسي بين يديه عارية إلا من صدق يصعّده خفقان قلب مغسول بالغربة ، ومضاء بالزهر والضوء ، ومسجون بإرادته في غضاريف حنجرة تشع فيها كواكب الله لتبقى هادئة في مدارها . . ولا تختل كما اختلت يوم التقينا في بيت تتراكض في باحاته الخيل . . طفلتان غريبتان قريبتان . . كنت يا «فضة» قد وصلت من هجرتك الأولى والتي أردت منها الخلاص قبلي بأسبوعين فقط ، وكانت بداية الوحدة الوضع المألوف . . الذي يفزعني تخطيه حتى ولو بالحلم مع «علامة» .

. .كان وصولنا في ساعة متأخرة ، وفي الطريق سمعت والدي يتحدث عن

مجهولة لا أعرفها «فضة» عادت . . ثلاثة أعوام وعادت بهمها ، لقد توفيت جدتها . . جدتك لأمك التي أخذتك من أحضان «بركة» بعد خمس جلسات في المحكمة مع «السبتي» ، لكن منائح القدر سرعان ما تزول .

ماتت جدتك فُعدت سريعاً لتنامي على حشية بالية بين جدتك . . الأمة الحضرمية وعمتك «بركة» ، عُدت خاضعة من جديد لهزات الأرق التي تولدها نظرات جميلة لتحل عليك عقوبة الصمت والإهمال .

احتلت أمي بعد وصولنا من أبها . . الجزء الخاص بأبي من المنزل ، وتوهمت للمرة المليون أنها قادرة على العيش مع تلك العائلة مراعية حرمة العائل الأول . . متيقنة أن الفراش الخالي من أبي الذي اختار غيرها سأملؤه أنا . . وسأكون في مأمن من الإحساس بالغربة وسط ذاك الخضم الهائل من الرجال والنساء . .

يوم دخلت المنزل توقعت أن كل من فيه يجهل معرفته «بفضة» حتى تأكد لي مع مرور الوقت أنها أكثر ألفة لهم مني .

وكنت أنا الكائن الوحيد الجديد . . الفتاة التي تحمل دماء امرأة تنوي الهرب وتبيته فقط . . كيف يمكنها اقتناص الفرصة . .

وعثرت قدمي للمرة الأولى بعد وصولنا الأول ، وصحوت ذات صباح على دمعة كبيرة تحورّت فوق مخدة أمي الخالية التي احتضنتها لأنام عليها ثمانية أعوام دون أن أغسل غطاءها خشية أن أفقد رائحتها .

١٩

أصبحت أُذن «علامة» جزءاً من معالم بلدتنا ، لهجته الحنون وهو ينكش أخبار البعيد . . تحرضني على أن أحدثه عن أبواب مزرعتنا الخشبية ، عن ساعات العصر الثلاث التي تجمع بعض رجال القرى والتي تقلصت حتى باتت أقل من ساعة واحدة . . وهي قد تصل إلى نصف ساعة في أيام القيظ الحارة ووقت حصاد التمر ومواسم الزفاف . .

وليلة خطبة «فضة» قضى القوم ليلهم في السهر واللهو حتى منتصف الليل . . وقضت النساء نصف نهار اليوم التالي يتحدثن في أمر تلك الخطبة التي أتت بغتة ، والانهيار الذي أصاب العروس وهي تغادر «صحبتها» .

وجبر مثله . . مثل كل فرد في القرية سمع بكل ما كان يدور وهو وسط المزارع . . يدخن سجائره بسرية ، ويقص الأعشاب المتسلقة التي تزاحم الشجر المثمر . . إلا أن أمراً كان ينغص عليه يومه جعله يترك عمله ، ويتجه إلى حيث مجلس «السبتي» عند الجابية - شعر أن ساعات العصر أطول بكثير مما اعتاده ، والحرارة مزعجة ، والسماء لفته حتى من خط سحابة تلوث زرقته الناصعة ، قال وهو يلقي التحية على «السبتي» :

*أي شيء يحدث يا بو حمود .

* ماذا ؟ .

* ما في دارك لا يجب أن يخرج إلى الطرقات . . ثم ألا ترى أن تزويج فتاة مثل إحدى بناتك يحلم ليله دون استشارة حتى عمتها . . هذا والله أمر . . . .

أخفض صوته عند مرور عامل الزيت راكضاً بهفة ذات عصا طويلة خلف سرب من الدبابير السوداء . . برم «السبتي» شاربيه وقذف بتوجسه في وجه «جبر» .

* النساء يتحدثن بما لا يسر منذ الصباح يا «حمران» ، و«جميلة» رأت «فضة» وهي تتسلل إلى حيث الهاتف اللعين ، وقبضت عليها «عذبة» آخر الليل تقف عارية إلا من بعض ثياب خفيفة وسط المطبخ ، كن يحلفن ولا أصدق .

ولقد دخلت عليها وجلست معها حوالي نصف ساعة ، ولم ألحظ ما يسوء في مسلكها .

هادئة ساكنة كعادتها . .

وقد حاصرت «جميلة» وبناتها وأولاد أختي ، عل أحدهم يثبت عليها فعلاً أو سوء تصرف فلم أفلح . . إلا أنهم يؤكدون أنها رافضة للأمر كله .

صمت قليلاً وضغط بباطن كفه على عصاه وبرمها وتابع . .

«جميلة» تؤكد أنها رأت بقعاً بيضاء على ثيابها الجديدة ، وكسراً في طرف النافذة المطلة على أشجار الليمون . . زرّ على أسنانه . .

أقسم برأس أمي لو أن ما يقال صحيح فسأضربها حتى تتبول في ثيابها ، «حمود» لا يُرفض . .تسمعني ولا بنات عندنا يرفضن .

حرك «جبر» قدميه ، وفرك إصبعه الكبيرة في القدم اليمنى وقال :

* إنها فتاة يتيمة تربت على حجرك وفي دارك . .

* أشار السبتي بيده . . فصمت «جبر» . .

تلك الدمدمة وصلت إلى مسامع «فضة» وهي تُقعي بين أوراق الحلفاء العالية ، بعد أن انسلت خارجة من غرفتها بقدمين ثقيلتين ، ووقفت بمحاذاة النافذة ، ثم هبطت إلى الأرض المنخفضة عند البرك ، وجثت تستمع إلى حديث الرجلين الذي أنهاه غروب الشمس الوشيك . .

نهض «السبتي» ونفض عباءته وانطلق صوب الرعاة العائدين ، ولوّح لراعيه الذي انفصل سريعاً بأغنامه عن بقية الركب .

الساعة السادسة أو هي الخامسة والنصف وخمس دقائق وهذا هو الوقت الحقيقي الذي أثبتته ساعة «عم جبر» التي لا تخطئ فهي ماركة قديمة جداً . . قديمة قدم الصلبان والكنائس والعهود والمواثيق والحكايات والمرض والحروب . . تلك هي نظرة «فضة» نحو «جبر» ، وساعة «جبر» ، وكوفية «جبر» ، وصورته التي سرقتها من تحت وسادته .

عادت إلى نافذتها ، ومن مكانها وقفت ترقب «جبر» ذا الوجه الأحمر ، وهو يغير مجرى الماء ، ويدوس بقدمه على الخنافس الطيارة والخنافس ذات الرائحة الكريهة ، ويهش الفراش الذي يتكاثر على زهرات البرسيم البيضاء ذات الحواف البنفسجية ، ويجمع حبات الليمون الساقطة . . وينتظر بطوله الفارع متكئاً على عصا ترافقه في تحركاته حتى يمتلئ المجرى الطويل بالماء منعدلة إلى مجرى آخر إلى أن أوقفه في النهاية نحو أشجار الليمون التي تعتبر نهاية المطاف ، ما عدا النخيل فإن مجاريه تفتح دفعة واحدة ، ويستمر «الماتور» في ضخ الماء حتى صلاة . العشاء وقف فارداً ذراعيه مستنشقاً فوح روائح زهر الليمون بعد أن يرتوي ، وراح يقرأ وجه السماء الغائمة . .

وقفت قربها . . نفضت شعري المدهون . .

فعاتبتني وأشارت . .

* استحمي في البرك . .

تركتها تتأمل أصابعها المحناة وتحادث عم «جبر»

* أنا جائعة وأي شيء سآكله . .

أشار إليها جبر . .

* اهبطي إلى المجرى . .

جلست على حافته . . وبدأ يدور بخبرة مزارع عجوز حول أشجار الجوافة واللوبيا . . يقطف لها بعض ثمار خضراء لم تنضج . .

مسح «جبر» لحيته البيضاء ، وعطس ثلاث مرات ، وتعثر وهو يقبض على يدها حتى أخفاها تحت شجرة رمان ضخمة ، وفرد طرف عمامته على رأس الرمانة ، وقضمها بفمه وقسمها نصفين ، فتناثرت حباتها الحمراء في يده وعلى الأرض . . وراح يراقب «فضة» وهي تأكل بشراهة كقطة خائفة ، وتمسح يديها بأوراق الشجر بينما الماء يجري من تحت قدميها . .

* تبدين سعيدة بما يحدث حولك . .

أعاد «جبر» كلماته وانتظر ، فلم تحرك ساكناً ، نظراتها مركزة على الطريق المشقوقة بين المزارع والأشجار المتشابكة ، والموصلة إلى مساحات شاسعة على أطراف الوادي لم يكن أمامها سوى الصبايا الصغيرات المحملات . . بحزم العلف في صعود عشوائي باتجاه المنازل ، وعند أول الطريق الموصلة إلى المنازل يتفرقن يومئ جبر إليّ .

* تعالي وجففي ثيابك من البلل . .

وبهمهمة واضحة يقول : ثرثرة الصبايا وضحكهن حياة هذه السويعات من الزمن ، وقوة خارقة لجذب الأجساد الثقيلة المتباطئة إلى جوانب الطريق . .

فتنتعش الوجوه ، وتتجدد الدماء ، وتمتلئ السبل الترابية التي تشق المزارع بشكل متعرج ابتداءً من الشارع العمومي الذي شقته البلدية ، وجعلته حداً لكل المزارع التي تقع مباشرة على طرف الوادي ماراً بمزارع «السبتي» التي يقطعها من المنتصف ، فمزرعة المالح المواجهة . . وبقية المزارع التي تليها حتى يتفرع إلى شقين يتجهان كلاهما إلى الوادي .

هل ترين ذلك . . يضحك وينظر إليّ . . احفظي الدرس جيداً . .

* أجل . .

ظلال الأجساد التي تستطيل عند الغروب تتزاحم أكثر عند «دكان» زينة بنت الرعيان ، ويكثر لغط الأطفال أكثر وهم يتزاحمون لخطف علب المشروبات الباردة وأكياس البسكويت . . والتسالي وحلوى العود الملونة ، والبعض الآخر يسحب خلفه «كراتين» الموز المستطيلة وصفائح الزيت الفارغة مربوطة بحبال طويلة . .

يركضون مثيرين الغبار والأتربة خلفهم

* عربة . . عربة . .

وابن حمود «السبتي» الأصغر لا ينسى شقيقته التي تحبو ، فيحملها بين ذراعيه بأنفها السائل دائماً ، ويضعها في «الكرتون» ويجرها خلفه ، لينساها في غمرة اللعب في مكان بعيد ، أو خلف شجرة ، أو كثيب رمل تحبو وتتقطع حنجرتها من البكاء . . وكعادة عم «جبر» نحو «جميلة» وكل ما يخص «جميلة» خدمة يُعجب لأمرها . . يهرول للبحث عن الصغيرة التي يغسلها في المجرى ، ويعصر في فمها قطعاً من البرتقال فتتورد وتنام .

أنسى «فضة» لأعود مع «جبر» إلى حيث تجالس صمتها الذي يخرجها منه سؤال «جبر» . .

* أي شاغل يشغل بالك «يا فضة» ؟ .

لم تكن هناك ملامح محددة على وجهها سوى بريق حاد في عينيها ، وضغط واضح على عضلات فكيها امتدت يده نحوها وسألها . .

* هل هناك شيء ما يخيفك . . ؟ .

بلعت ريقها بعنف وبحنجرة مبللة بالدموع قالت :

* «يا جبر» أنت فيما يبدو سمعت بما حدث . . «السبتي» يريد تزويجي عنوة من «حمود» ، وحمود رجل متزوج وله أبناء . . ثم هو لا يريدني . .

* وما أدراك ؟ .

* بلى . . وأنا أيضاً لا أُريده . . يا ناس . . ارحموني . . لا أريده . . لا أريده .

الغريب أن «فضة» هربت ونسيتني . . فحمّلني «جبر» الطفلة السمينة .

* اصعدي بها إلى المنزل ، لا بد أن والدتها قلقة عليها .

* والدتها غاضبة في بيت أهلها . .

* آه . . ضرب جبهته بأصابعه . . نسيت . .

أودعيها جدتها . . «جميلة» هيا أسرعي .

أصعد المنحدر بأنفاس متقطعة . . كمداً أكلم نفسي بصوت عال . . «فضة»

تهرب مني . . أعلم أنهما معاً . . «ثامر» وهي .

لكن كيف . . أليست الغاضبة التي انتقدته حين تحدث بطريقة غريبة عن أن الرجال في القرى يكرمون الغريب برائحة التراب . . بالندى . . بالنساء اللاتي يتنافسن على إطعامه . . واحتدت عندما تمادى قائلاً :

النساء هنا يتنافسن أيضاً على زيارتي . . كطبيب مُخلّص من كل ألم يضاجعهن في الليل الطويل .

فلقد شعرت لفترة من زمن بأنني حركت شيئاً من ركود طويل . . وكما أصرف روشتات الدواء . . أوزع الكلمات اللينة ، وأهدي المدائح الرقيقة والابتسامة الحنونة . . ومثلما أغلف الدواء في كيس من النايلون ، أغلف الدواء الأكثر فعالية في كيس ينبض بالدماء فتحمر الوجنات الذابلة ، وتنشط القدم النحيلة في مسيرها .

٢٠

لم تكن المزارع على مداها تتسع لتنهيدة أخرجتها من صدري وأنا أضع الطفلة بين يدي «بركة» التي باغتتني .

* أين «فضة» ؟ . .

* سأناديها . .

تملكتني وأنا ألهث بين الأشواك . . الوحدة التي تطعن قلبي . . تحسست ثوبي الواسع وأدرته على وسط نحيل يميناً وشمالاً . .

* آه يا أمي أين أنت ؟ .

. . . وقفت قرب المكان المعهود . . تطلعا نحوي وأنا اقف صامتة بعيدة عن موقعهما . .

وناداني بصوت واحد . .

* تعالي . .

ضحك «ثامر» وهو يتأمل شعري الملتف بدهنه وبلله . .

* اجلسي هنا . . قربي . .

ضرب على كتف «فضة»

لقد حوّلت هذه البلدة مسار حياتي وهذه الوجوه البريئة . . صمت . . وتطلع نحوي . .

* أنت تنهجين . . هل كنت تركضين . .

ضاقت عيناه ، كان نذلاً ، وكانت «فضة» تعرف أنه نذل . . والوحيدة التي لا تدري أنا ، حذف على مرمى يده بحجر نحو «بومة» تطل برأسها من جذع نخلة . . تنهد وقال :

ما أجمل المكان . . في المساء . . وما أجمل صباحاتي بطيورها . وما أروع فرح النساء بي وهن يتأملنني كأنني كائن هبط من العلياء . .

أدار وجهه نحو «فضة» فقالت . .

* مغرور . .

* آه يا «فضة» الليلة تدخلين برجل من كبار عائلتك . . دعيني أكمل لك الإجابة عن سؤال الأمس قبل أن نفترق . .

سألتني . . كيف أقضي وقتي هنا وهربت مني قبل أن أكمل وأقول لك . .

لا تحمليني هماً في صدرك الصغير . .

ابتسمت «فضة» وتطلعت نحوي بخبث . .

بينما تابع . . هناك أشياء كثيرة أنشغل بها غير الدوام الرسمي في المستوصف .

أقرأ . . أكتب . . أفكر . . أزور المرضى في منازلهم . . أنام قليلاً أول الليل ، ثم أنام في الوقت المحدد حتى أتمكن من الخروج سحراً إلى أرض الله النقية . . أتخبط في مناقع المياه ووحل الأودية . . أشتبك مع الثعابين السامة . . وأتعارك مع الضفادع الهائمة فوق البرك . . أخرجها من ثنايا ثيابي باردة لزجة وأنا أغرق في برودة مياه البرك ، واستحم على طريقة جدتك العجوز الحضرمية «فضة» ، وآكل أيضاً مثلها من ثمار الأشجار الباردة . . أتطهر من التلوث من الخمر . . والسهر ومعاشرة النساء المشحونات بالرغبة المترفة . . أتطهر حتى من اللغط المسمم بأخبار السياسة والانقلابات والحروب . . ولكن كل ذلك لا يمنع من أنني أحن إلى الحديث فقط إلى كائن واحد . . هو «عم جبر» الذي يقفز من فوق سريره مشيراً لي . .

* يا رجل «بالحرام» أن تجلس عليه . .

* يقعي أمامي بسرواله الطويل وفانيلته القصيرة التي تكشف سرته الغائرة في لحم بطنه المشدود . . يرخي رأسه نحو الجانب الذي يواجهني . .

* هاه . .

خُلق فقط ليسمع وليقول قليلاً بل أقل من القليل . ومع الأيام عرفت أنه هارب مثلي إلى هنا . . قادمٌ من الأرض البعيدة . . من عبثية التاريخ ، من المُلك الذي لم يُعرف له صاحب ، من التراب الذي تقاتلت فوقه عشرات الديانات . . هارب وكأنه خارج من بين الهيكل والمحراب ، كان يضحك أحياناً وهو يقول :

* يا أخي ما نعرف (مين الصادك فيهم) . . أهو الهيكل أم المحراب .

يتابع هزله . . أتصدقني لو قلت لك إنني «تخانكت معهم إخناكه جامدة» .

لأنهم لم يريحونا لا هؤلاء ، ولا هؤلاء .

العمر خمسون سنة «وبدهم» أضيعه في عبثية . يصمت قليلاً ثم يضحك - تعرف يا دكتور «فلسطين» هذه نكتة التاريخ . .

يا أخي كلنا بشر ، والرب واحد ، وكلٌ يعبده بطريقته . .

خذ بالك يا رفيقي «يا ثامر» حين أعطى الله لتلك الأرض الخصوبة في ترابها ، والماء الناجع في جوفها ، ليس عشواء من الخالق فهو يعلم - أنها الوطن - الذي أهدى مسماه - وطن - إلى كل وطن .

إنها أرض الأقدام الكثيرة المختلفة ، واثق أنا يا أخي أنها مشاع للجميع ، وأن كل ما يقال روايات وهمية .

فهي قادرة على أن تؤوي أصحاب الهيكل وأهل المحراب . وكل أهل الأرض بالتعاش والحب

«جبر» الرجل الوحيد الذي تعلمت منه مسألة هامة . . هي - كيف أبسّط الأمور - إذا لم تكن «فلسطين» في نظره قضية العرب الأولى ، إنها فقط حادثة التاريخ الحديث - الحادثة الأطول عمراً . . وإن القضية الحقيقية هي قضية حضارة مهدرة . . حضارة اندحرت بدون كرامة داسها «التتر» ، ولم يستطع قومنا عرقلة

تلك الأقدام الهمجية ، فهل بالإمكان إيقاف حركة عقول من يحرك العالم . إلا بالحكمة .

* إنها مصيبة .

* لو لم تكن هذه القضية في حياة العرب لأصبحنا مسخاً .

* كيف ؟ .

* لقد حركت عقولهم . . أصبح لنا على الأقل رجال يخوضون في التاريخ ، وينقبون في الأرفف القديمة التي بعثرها «التتر» فتراكم التراب المعجون بالدم عليها حتى بعثرتها أقدام أصحاب الهيكل من جديد ، فتجرأنا ودخلنا المعمعة معهم .

* حرك رأسه وأردف - بالله عليك - .

* كيف كان الوضع في عالمنا قبل الاكتساح اليهودي ؟ أليس فوضى من «مماليك» تحرك سيادتهم عقدة العبودية - إلى عجم بُلْه هم «العثمانيون» . آه يا رفيقي كانوا البداية الحقيقية لذلك العطب الكامل الذي شل حركة تلك الثورة بداية نزول القرآن والدستور الأمثل . .

* * وما سرّ ذلك العطب ؟ .

* ربما هي المثالية المطلقة . .

* هل تعتبر الإسلام هو الدين المثالي الوحيد ؟ .

* كل الأديان جاءت بالمثل في دساتيرها . . المُثل التي يريدها الله في خلقه وما قام به الإسلام ، إنما هو إقرار لتلك المثل ، لكن الطبيعة الشريرة الكامنة في البشر ، وتلك العقدة المتأصلة في العرب خاصة ، هي أول ثغرة للعطب . .

* ما هي ؟ .

* العصبية قديماً . . والتنطع المقيت حديثاً . . أما الوسطية فقد ألغيت . . ودائماً الجرثومة الخبيثة تدخل من المنفذ المريض المعطوب .

٢١

يهبط صوت «علامة» على السمع والبصر والفؤاد . . .

قلنا يا ناريمان اشتاقي

فاشتاقت . .

وانداحي

فانداحت . . .

هدهدة تسكن الخوف في الصدر الموجوع بتجربته يقول . .

* سنلتقي . .

* كيف ؟ .

* دعي الأمر لي ، فالأشياء مرهونة بظروفها .

أحب هذه الإصرار في «علامة»

هذه الرجولة البربرية . .

وأحار بين الحب واللاحب . .

أشتاق ولا أشتاق . .

ماذا أريد بالضبط . .

لا أدري . .

أخشى أن يكون لقاؤنا مشنقة للحلم ، بل إنه يرعبني الإحساس بأن ما

سيكون في زاوية حميمة الحصاة الصغيرة في الحذاء الضيق . . تسير في الرمضاء القاحلة وخلفك «جمل» لو تمكن منك لدهك بأحشائه أحشاءك . . فتموت محشوراً .

ماذا تريد بالضبط الحرق/ الرمضاء/ أو الموت غيلة .

إن أنت تأخرت ثانية لإخراج الحصاة من الحذاء الضيق . .

عقلي الذي أُريد من الآخرين الاحتفاء به . . هذا العقل الذي غرز بيني وبين «ثامر» مسمار انعدام الثقة .

ربما هو ذلك . . لكن التعبير الأدق هو أن الصور اختلطت ، وبات من الصعب أن ألملم شظاياها الورقية خشية أن تستكمل تفاصيلها فتضطرم جمرات السنوات القديمة .

الآخرون «علامة» ، «ثامر» ، «حمود» ، «أبي» ، «عمي» .

* كل واحد بلون . . كل منهم يقف على حافة البئر فمن منهم سيمد لي الحبل . . لأصل إليه . . أُريد أن أشعر بلذة الوصول إلى كبده ، أحدهم هم بالهبوط نحوي فأقصيته ، وقطعت حبله من المنتصف .

و«علامة» قال يوماً .

* كل هذه الأمور وردت بذهني . . ذلك العقل المُغْفَل والمنسي والذي حدثتني عنه . .

* حينَ قلت :

* في البيت القديم حين كنت صغيرة لا تتورع امرأة من أن تخلع إزارها وتدهن أوراكها «بالزبد والفكس» أمامي . .

ولا يتورع رجل من أن يتبول واقفاً تحت نخلة وعيني تشاهد . . ثم يغمر .

«هبلا» . .

ثم «ثامر» الذي قبّل «فضة» أمامك وكنت المعشوقة التي دبرت أمر اللقاء . .

وحجته . .

عقله الذي ادعى أنه عقل رجل عصري . .

* قال انسي . . انسي .

فالاحتفاء بعقل امرأة . . بوعيها . . بثقافتها . . قد تكتفي به امرأة في مجمع علمي . .

لكن حبيبتي . . لا

إذ لا بد أن يأتي يوم وتقول :

* أنا بشر . .

والمسألة كالتالي . . .

على أحدنا أن يعلم بالأمرين ويتعامل معهما بمواءمة . .

قلت «لعلامة» :المرأة الواعية قد تعيش تجربة رائعة مع كائن ما . . ثم تمر السنوات وحين يجالس أبناءها . . يقول في ذاته :

* كم هي لعوب

نعم . . فالرجل عادة يسقط المرأة . . يسقطها وخاصة تلك التي تعشق كيانها وإنسانيتها .

* أبداً فمن يقول هذا حقير . . لأن الاثنين عاشا . . لحظة سوية . . لحظة مسروقة من عمر الزمن . .

قاطعته :

* سأحدثك بالأزمة العظمى بيني وبين «ثامز» ، وأسباب الأزمات التي تولدت لي ، فقد عرفته طفلة بريئة . . كما يقول . .

أقدس وأسجد .

أتذكر أنني تحدثت مع رفيقة لي بالمدرسة تعرفه . .وفاجأتني . . بكتابين منهديين منه لها . عقبت على لوني المخطوف . . إنه ينشر الرغبة في أجسادنا الراكدة .

ثم حدثتني عن «فضة» ، وعن وهم الحب الذي سقته له دون بلوغ المرام . . ولا أظنه أهدى لها هذه الكتب ، ولا أظنه يتجرأ . . لكن الرجل لا يدخل مع امرأة

مثل هذه المداخل الضيقة إلا إذا كان يحتقرها ويستهجنها . . لكن «فضة» . .

«ثامر» يرى أن «فضة» قديسة . .

هل ترى «يا علامة» . .

كم أنظر إلى الأمور بسوداوية . .

قال : هناك مواقف معينة يتخذها شخص ، وهذا الموقف ممكن أن يكون عادياً وبالإمكان أن يكون موقفاً لو اتخذه شخص آخر . . سيكون في منتهى النذالة . . بمعنى أننا لو وجدنا ولداً صايعاً قام بحركة غير أخلاقية ، فلا بد أن نعتبره ولداً مجنوناً معهوداً بمثل هذا الفعل . . بينما لو يأخذها شخص آخر . . نعتبره نذلاً وملعوناً . .

قاطعته . .

* «علامة» . .

* نعم . .

* دعنا نتكلم على أننا أصدقاء . .

* تفضلي . .

* بجد . .

* بجد . .

* أخشى أن أتحدث بثقل في أمور . . قد تأخذها على محامل أخرى . . كما حدث مرة حين قلت لك . .

* أنا أرقد على السرير . . فتحدث . .

* فأربكتني بنداء حار . .

فغضبت . .

فقلت مدافعاً عن نفسك . .

* امرأة تقول لي أنا أتحدث إليك وأنا أعتلي السرير . . فما معنى هذا . . ؟

ضحكت بحنان . . ذاك من باب الدعابة الثقيلة فتحدثي يا صديقتي قولي ما بدا لك .

* المشكلة يا صديقي أننا نطالب الآخرين باحترام وعينا . . أنا مثلاً أقدس ذلك الذي يعي هذا الأمر ، لكن الجانب الآخر . . الجانب الجسدي سبب لي حفرة غائرة في القلب . . من الداخل . . في الإحساس .

أول الأمور كون المرأة المرتبطة يُحظر عليها أي فعل سوى فعل الزوجة المعلوم . . فلا بد من التوقف عند إشارة حمراء أزلية .

فالمرأة في هذه الحالة لا تستطيع أن تعبر عن مشاعرها ودواخلها . . وبالتالي لو كان هناك مستمع وتقبل منها ، فهو في داخل نفسه رجل شرقي يمقتها ، وبالتالي إذا حضن زوجته . . بعد أن تضاجعه أذن الأخرى المسكينة . . سيحضن امرأته وهو يلهث : أنت أشرف امرأة في الدنيا . . ويستبعد من خياله المرأة التي توهمت أنها حبيبته وأعطته قلبها . . لماذا ؟ .

لأنها ربما هي في نظره تمارس لعبة معينة . . والمرأة هنا لا تريد نصير شعارات فقط كما فعل أحد المسؤولين الكبار في قناة فضائية معروفة ، وهو يدخن سيجاره الفخم حين سئل عن المرأة هنا . . فقال :

* المرأة هنا غلبانة .

مثل هذا الكلام لا تريده المرأة . .

لكنني . . أنا بالفعل غلبانة . . رغم النظرة القوية الموجهة لي بأنني كسوس الشجر ، ألست الفتاة اتي تزوجت برجل امرأة أخرى ، فهم يرون أنني مستحوذة على حق غيري ، وإنني المفضلة .

هم يقولون ذلك لكنهم لا يعلمون بالخفايا لكن بصدق . .

فقد سألت نفسي ذات مرة . .

* ماذا أريد من الدنيا ؟ .

لا شيء فقد فقدت الأشياء طعمها .

* وقبل سنوات سألت نفسي ذات السؤال ماذا أريد من «ثامر» ؟ .

فأجبت بكذا إجابة . . وأكثر الإجابات عشوائية فوجدت أنني أصحو في الصباح ، وأكتب إجابة ، وفي الليل أكتب إجابة أخرى . . أكثر عشوائية . لم أترك

حالة أو وقتاً يسيطر عليّ . . حين أحبه أكتب إجابة . .
وحين أشتاق أكتب إجابة . .
وحين أكرهه أكتب إجابة . .
ووجدت بعد أن جمعتها . . أن ثلاثة أرباع المشكلة التي أعاني منها هي كراهية الحديث الجسدي على الهاتف من قبل «ثامر» . . المسألة مكروهة جداً . لأن ذلك الرجل نوعية من الرجال يكشف ورقه بسرعة . .
فإن كتمت ولم أسايره . . ينه الحديث بسرعة . . ثم بعد دقائق يُعاود الاتصال ، غريب أمر الرجل . . لماذا تكرر اتصالك طالما أن الأمر معلوم لديك .
يُخرج كتاباً فتكتشف المضروبة في داخلي أنه لامرأة أخرى . . يعشقها . . . .
يقرأ مقطعاً شعرياً فتعرف من في داخلي أنه أيضاً لامرأة تستهويه . .
إذاً أيها «الحمار» ألا تعلم أن من على الهاتف امرأة ؟ .
ثانياً : كنت أتمنى فعلاً أن يهاتفني . . آمراً تعالي في اليوم السابع من شهر رجب . . من شوال . . أو ذي القعدة . . وارتدي من أجلي رداءً زهرياً . . أو أخضر . .
أف . .
قطعت الحديث . . الموجع . . وعدت لأذن «علامة» .
* اسمع يا صديقي . . أقسم إنني لا أوجه كلاماً أقصدك به . .
* قال بلهفة . .
* ثقي أنني متأكد أن هذا الكلام ليس موجها لي . . فأنا لست بالدرجة التي تتصورينها ، فمن الضروري أن يكون الحبيبان في لحظات أصدقاء . . ولا بد أن يؤقلما نفسيهما على أنهما أصدقاء ليأخذ الحديث الجدي بينهما موضوعيته ومصداقيته . .
أكملي . .
أذكر أنني كذبت على «فضة» واشتريت قطعة جميلة . . وقلت لها : لقد أحضرها لي «ثامر» وقال ارتديه من أجلي . قالت – وهل ارتديته وأنت بهذا

الجسد الضخم ؟ .

قلت . . نعم فهو يراني بعين الحب . . ثم قذفته في حجرها . . خذيه هو لك . .

* لكنك ارتديته . .

* رائحته . . إنه جديد . . خذيه يا «فضة» ارتديه من أجل «حمود» .

وضعته فوق مخدتها . . لكنني حين أشاهده في خزانتها . . اكتوي بذبحة عند منفذ الصدر بالبطن ، وأنزوي منتظرة أن يأتي الموت . .

وهذه عادة أمارسها كثيراً . . فأنا أشتري الأشياء الرقيقة . . ثم أرميها . . في أقصى الخزانات المهملة في المنزل . . وأنساها آه . . ماذا قلت وماذا كنت أقول ، يبدو أنني في شتات ولكن بالفعل لدي رغبات . . وعندي أحلام فوق الخيال أُريد أن أعيشها ، وأن أمارسها ، و«فضة» الأذن التي لا تكل سماعي . .

* «فضة» إلى متى . . ؟ هل سأموت وأنا لم أشعر بلحظة حب بيني وبين كائن أحبه بشكل حقيقي . .

* نعم – نحن نمارس الحياة العاطفية بالطول والعرض ، ونخلّف ونعاود الممارسة . . ونشتاق . . ونذوب ، لكنني أعتقد أن ممارسة العاطفة ليس هذا ، وأن له طعماً آخر . . وأنه شيء آخر . . أنا متأكدة ١٠٠٪ بدلالة الموقف الذي حدث بيني وبين «ثامر» حين ضمني من الخلف . . هناك إحساس عاصف . . لم يستمر أكثر من ثانيتين ، لكنه فجرني من الداخل ، وتركني في دوامة رهيبة لا أتوقف عند حد أو خط معين ، وزادتني هذه التجربة كراهية له . . لا لا . . أنا لا أكرهه ، لكنني أحقد عليه . . في ناحية معينة بل نواح كثيرة . .

«ثامر» فكراً ليس معي . .

روحاً ليس معي . .

جسداً ليس لي . .

ولا أعلم على أي خط كنت أحيا معه .

وهذا بالضبط ما أكره وأحياه مع «حمود» لا يوجد شيء داخلي . .

موات . . موات . .

صوت «علامة» يهبط من علو بعيد قائلاً :

دعيني أريحك فأنت متعبة . .

فالمسألة الأساسية أنك كنت تنظرين إلى «ثامر» كحلم . . وتريدين منه أن يكون على قدر الحلم . .

وهذه مسألة طبيعية بحكم الوعي الذي ينادي به والذي لمسته فيه . . وبحكم الشعارات التي يرفعها . .

«فعندما يتحول الحلم إلى مجرد ولد داشر . . يريد شيئاً من امرأة داشرة . . يبقى ساعتها ينكسر كل شيء» حتى وإن قالت المرأة . . يا ابن الكلب ليس هذا هو الموضوع . . وليس من السهل أن تأخذ هذا من أي كان . .

هنا يشعر أحدنا أنه طُعن طعنة كبيرة . .

* اسمعني ! .

* ماذا ؟ .

* «ثامر» حين يتحدث إلى «فضة» ، إلى «السبتي» ، إلى رجال الحي . . أو امرأة غريبة جميلة ، أو كئيبة تدخل بلدتنا . . ليس الرجل الذي أعرفه . . ليس هو . . ليس كلامه ولا حديثه ولا لون وجهه . . ولا حتى حركة يديه . .

رجل آخر . . رجل ثان . . فهل يحتقرني ؟ ثم حتى وهو يقبلني لا يعرف أصول القبلة .

أتذكر حين زرناه «وفضة» معاً . . وقبلّ «فضة» وهي التي تنحت لأنها عشقت زوجها وآمنت بحبي له . .

* حين لمته قال :

* «فضة» ضيفة ولها حق الضيافة .

قال «علامة» . . .

* هذا عمل حيواني . .

لا تقاطعني «علامة»

* لقد شعر بلومي . . بالفعل هي ضيفة ، ولكن لا داعي لأن يكون الأمر

علناً . . فنحن بشر وبنات ناس . . ولسنا «خواجات سكارى في مقهى» .
استوقفني علامة . . بصوت أجش .
* حتى الخواجات هم بالتالي بشر ، فكم من صدامات تحدث بسبب مواقف شبيهة لموقفك ، حتى الصديقة «الجيرل فرند» لا تعلمين الالتزام الأدبي نحوها .
ولا يعني أنه ليس هناك أمور سيئة عندهم . ولكن هناك أشياء رائعة . . فالمسألة إنسانية والإنسان واحد . . هنا وهناك . .
* «ثامر» قال «لفضة» يوماً :
صديقتك متخلفة . . نعم . . طفلة مدللة وطيبة ، بل هي مدللتي وتربيتي . . لكنها ترفض أن أمارس حبي علناً . .
فالخواجات يا «فضة» يقبّلون نساءهم في عري الشارع . . ليس لأنهم لا يجدون مكاناً يمارسون فيه خصوصياتهم . . ولكن لدى بعض الناس رغبة في إعلان حبهم للآخرين . .
قال «علامة» . . معلقاً على حديثي المنفعل . .
اهدئي واسمعيني . .
* المسألة ليست هكذا . . فالخواجة يقبّل حبيبته في الشارع ، لأن الثقافة الغربية ترى أنه - (Individual) أي أن أمارس فرديتي . . ينظر الآخرون أو لا ينظرون . . لا دخل لهم . . ولن أهتم فيما إذا نظر إليّ الآخرون أم لا ، فهناك لا يمكن مطلقاً أن يقبل رجل امرأة أخرى أمام حبيبته – فلن تتورع عن صفعه أمام الملأ .
فالخواجات في هذه الأمور متوحشون جداً ، فلو فعلها «خواجة» ، قبّل قبلة تحية . . فهذا لا بأس ، لكن قضية أن يُقبّل أخرى أمام حبيبته ، فهذا أمر سيؤدي إلى صراخ وضرب عنيف قد يصلان إلى نزف الدم . .
أكملي فقد قاطعتك كثيراً . . ثم يتابع . . ما أريد أن أصل إليه في النهاية ، هو أننا كشرقيين . . كرجال «ملاعين والدين» فواحدنا يُنظّر كثيراً ليس من أجل شيء . . إلا لأجل أمر واحد فقط يريد أن يصل إليه . . فهو لا يشرح ولكنه يبرر ما

يريد فعله – مقتنعاً أو ليس مقتنعاً – فهذه مسألة أخرى وهو يريد أن يبرز .

غير هذا لا يوجد .

إنما لمجرد أن أحدنا عرف امرأة . . ويتفاخر بها . . بأن فلانة أعطتني . . وحين يتزوجها يشك فيها ، وتبريره لذلك . . أنها طالما أعطتني ستعطي غيري ، فهذا إنسان نذل وكلب ومريض . .

لأنه يا ابن الكلب ، هي أعطتك أنت لأنها تحبك . . . غيرك وهي لا تحبه ، لو ملأ الأرض دموعاً فلن يفرح منها بشيء . . فلماذا لا ننظر إلى هذه المسألة – أن امرأة اختارتك من بين العالم كله ، وأعطتك ما تريد أنت ، وما تريد هي بممنونية ، لأنها تحبك ولا شيء آخر . .

وهذه نقطة الخلاف الأزلية في المجتمع الشرقي ، والتي منها مقولة أن الناس هنا في تخلف كبير ، ففي الغرب يقولون نحن لا نحاكم ، ولكن نتعامل مع الناس كبشر دون أن نحاكمهم . .

وهذا لا يتم بيننا مطلقاً . .

* «علامة» . .

سأسألك سؤالاً . . ليس سؤالاً بمعناه ولكن لا ترد ، ولا تعلق ، اسمع فقط . .

هناك شيء أكبر من الحب عندي . . أقسم إنه أكبر من كون أنني أحب . . أي نعم أحبه ، وقد أخذ مكانه في نفسي وخاطري . .

فالحب نبض . . مشاعر تتحرك . . لا أدري . . لا أدري ، لكن ما قلته من كلام سابق ترتب عليه هذا السؤال :

* لو كنت أنت هذا الإنسان بالنسبة لي . .

* أي من الرجال . . الشرقي . . ثامر . .

لا أدري بالضبط ما تعنين . .

أكملي . .

أتذكر حين قلت لي ذات مرة لا تعدي أحداً ، ولا تعاهدي أياً كان . . على أمر . .

فما بيننا لا يزال في أوجه . .

. . . .

. . . . الكلام يتعطل والصمت يطول . .

الأشياء في أوجها كالبركان . . سواء ثار وفجّر . ثم حتى لو هبط البركان فلا بد أن ينتج من وراء هذا الثوران أشياء رائعة . . مناظر طريفة . . تربة زراعية جيدة . . عيوناً وينابيع . . اخضراراً ينتشر في المساحات . . يعمرها بأكملها . . لكن روعة البركان في ثورانه . . في لونه الناري ، في ذوبان الصخور وأبخرتها ، فهذا بحد ذاته قمة الجمال . . فالأشياء في قمتها تهم امرأة . .

آه . . لقد تعبت . . قل شيئاً .

* تعلمين . .

* ماذا ؟

* هناك كلام كبير تريدين إيصاله لي ، ولكن قصرت اللغة عن إسعافك . . فقولي . . ماذا هناك . .

* دعه لوقت آخر . .

* قولي شيئاً . .

* أحبك . .

* اسمعي . . قلت لك ذات مرة إن المشاعر إذا أتت لا يجب أن نرسم لها صورة مثالية رومانسية ، فإذا ما اصطدمنا بالواقع نصاب بخيبة أمل كبيرة ، في نفس الوقت لا نريدها بوهيمية . . إذا ما انتهت يحتقر أحدنا نفسه . . ويحتقر الآخر . . إذ لا بد أن نؤمن بشيء واحد . . إذا أحب أحدنا إنساناً فلا يرسم في ذهنه ماذا يريد منه ؛ فأنا مثلاً . . إذا حسبتها بالضبط . . وبشكل فعلي أجد أنه لا شيء محدداً أريده منه . . .فأنا أُريد منه كل شيء لكنني لا أريد أن أعطي لها مسميات .

* يكفي «علامة» .

أنت لا تعلم بمشكلتي ، فأنا أخشى هذا اللقاء ، لأنني لا بد أن أكون «صنماً»

في حضرتك مع أن لدي من الأمنيات التي أود إحياءها معك .. الكثير .. والكثير ومهما تحدثت لن أفي بما أشعر .

قال :

* حتى لو حدث هذا فسيكون أجمل ما أتمناه .. وأحلى على قلبي من العسل .. أن الآخر وفي موقف معين تحول إلى «صنم» فهذا لا يُغضب ..

لا تصدقيني أتعرفين لِمَ ؟ .

لأنني لا أفترض أنني أريد شيئاً معيناً ، وفي ذات الوقت لا أريد الآخر نديماً لي ، بحيث إذا أتى لا بد أن يكون ١٠٠٪ .

فاحتمال أن الآخر يقابل الآخر وهو على شوق كبير كبير وطويل ، وبمجرد أن يتقابلا .. يضم أحدهما الآخر ، ويبكي على صدره .. ومع ذلك يخرجان من مكانهما وهما في حالة رضى كبير .

لذلك لا بد أن لا نطلب شيئاً محدداً وألا نفترض شيئاً محدداً .. فلا تفترضي أو تتخوفي مني .. ويبرمج عقلك ألف سؤال وسؤال من هذه الأسئلة .. إنني قادم إليك من أجل أمر محدد ، هذا لا يكون إلا إذا كان عقداً تجارياً أو مصالح معينة .

فمثلاً .. سأذهب لعقد صفقة مع شركة .. قبلها سأكون محضراً عدة نقاط سأناقشها معهم .. ومحدداً الهدف الذي أريد الوصول معهم إليه . والموضوع الذي سأتحدث فيه كثيراً ، والموضوع الذي سأركز فيه .. وكذلك الموضوع الذي لا يجب الخوض فيه .

وفي النهاية سأقيس أنجحت أم لا ..

وهل وصلت إلى ما أريد أو لم أصل .

لكن مع اثنين يحبان بعضهما هذا أمر غير وارد ، فقبل تحديد الموعد يكون الاثنان قد رسما آلاف الأحلام والأمنيات .. قد تحصل وقد لا تحصل .. وقد يحصل أقل وقد يحدث أكثر .

ونفسياً هما مهيئان أنه لن يحدث أي شيء ، فليس معنى هذا أن يقول ..

خسارة الوقت الذي ضاع .

فالعاشق الحقيقي لا يستطيع من البداية أن يفترض أمراً . . ويستبعد أمراً آخر ، بل تغلب عليه التلقائية . . فلو التقيتك مثلاً . . التقيتك وفي ذهني أشياء معينة .

فلو لم تحدث تصدمني مسألة أن اللقاء لم يحقق أهدافه . . هذا باطل . . لأن الهدف الأول الذي حدث هو أن اللقاء تم . .

. .ماذا يحدث فيه . . هل يمكن أن يحدث أكثر من الحلم . . أقل . . فهذا طبيعي . . ونفترق على هذا .

لذلك هناك . . أمور لا يُخطط لها . . ولو خططت لمثل هذا الذي سيتم بيني وبينك . . فخمسة أعوام لا تكفي لإنجازه .

فأنا أريد كل شيء . . كل شيء . . وحتى إذا ما اتصلت بك أو العكس . .

ويكون الهدف شعوري بتأزم جنسي أُريد إشباعه ، وإذا لم يحدث . . مع السلامة . .

فاللعنة عليّ .

وهذا لا يمنع من أنه وارد وموجود عندي وعندك ، ولكنه ليس الهدف . فأنا لا أرسم شيئاً ولا أفترض أمراً ، فبالإمكان أن أكون كياناً جامداً . . ولكن من رابع كلمة من فمك أشعر أنني سأخترق الجدار . ولكن الأهم من ذلك هو أنه يجب أن نتعامل مع الآخر على إنه إنسان ، ولكن ليس كأي إنسان . . فأنا اتصلت بفلان من الناس ، وصار بيننا نوع من الود والتفاهم ، لأنه في الأساس إنسان واع . . فالذي حركني وشدني هذا الوعي . وعلى هذا الأساس أتعامل معه على أنه إنسان . . نعم . . ولكن أتعامل معه احتراماً لهذا الوعي .

لذلك فهو ليس كأي كائن آخر . . ولن يعدم المرء . . فآلاف النساء بانتظار هاتف يملؤهن جنسياً .

مثل هذه المرأة ليست هدفي . . لمجرد أن هناك امرأة ملهوفة وشبقه لصوتي . . فحتى هذه الأمور لا بد أن تكون على درجة من الوعي والاحترام . . ولا بد أن تتم

بهذه الصورة ، لذلك لا بد أن نحترم هذا في داخلنا وفي تعاملنا مع الآخرين . . نحترم أننا أحببناهم ، لأنهم أولاً على قدر من الوعي . . ولأنهم ثانياً على قدر الحلم الذي بداخنا . . فلا نفسد الحلم بنزوات عابرة . . وعلى فكرة أنا لست ضد الأشياء ، إذ قد أهاتف حبيبتي وأنا في مزاج معين وحاد جداً ، ولكن بمجرد ما أجدها في حالة مزاجية أخرى تنطفئ تلك الحدة ، أسايرها بحالتها المزاجية التي وجدتها عليها .

* اسمع يا صديقي . . «يا علامة» . .

صوتك حين تلقي مقاطع من الشعر . . يجعلني أصل إلى مراحل كاملة من الجنون والبهجة وهذا الإحساس هو بالضبط ما أريده . .

فالجسد والروح اكتفيا وتزامنا حتى الإشباع الكامل . . فأنا أصل إلى الإغماء الكامل عن طريق ضرب الأحرف . . ونغمة الصوت إلى المنتهى اللذيذ . .

وحين صمتت الأحرف . . وانتهت الكلمات ودخلت برجولتك . . . . العادة الطبيعية التي يمارسها كل البشر . . أفسدت أشياء بداخلي . . وبالتالي حين انتهت الأمور وصحوت . . كان نصف المسألة لذة ونصفها غضباً ، بمعنى أنه قد يحدث أحياناً أن أسمعك كما سمعتك قبل قليل . . نصف الكلام مؤيد ونصفه لا . رغم أنه مستوعب في داخلي ،لكن لا يعني أنني موافقة عليه كله . فقد تحدثت كثيراً . . وبعض . . كلامك قيد الطيور في داخلي . . ولكن حين تقول بصوتك . .

يا ناريمان اشتاقي . .

يا . . نا . . ريمان اشتاقي . .

أصل إلى قمة اللذة . . ولا أريد أكثر من هذا . . وما يحدث بالطرق العادية من إيصال الجسد إلى لذته . . تعب . . يرهق . . ويوجع .

فالرجل الذي أبحث عنه ، والذي لم أجده في الرجل المثقف الذي لا يعوض . . الرجل المطارد من كل النساء في بلدتنا . . «ثامر» . .

ولم أجده مع الرجل الذي أنا وهو من بيئة واحدة ومن بيت واحد . .

«حمود» .

لذلك فقدت الأمل . . لأنني لم أجده . . ولن . . وأفضل شيء أن تبقى في عزلتك . . وتؤمن بأن مزرعتك . . عزلتك أجمل مكان في العالم .

. .ولو حدث ووجدت الرجل الأمنية . . فأنا أُريد أن أصل معه إلى اللذة الكاملة بدون الطرق المعهودة . . بمعنى أن آتي إليك «يا علامة» لو كنت الرجل الحلم ، وأجلس بقربك دون كلام . . فأنا أدرى الناس بطبيعتي ، لكن لو صمت الرجل الأمنية . . لا بد أن يكون هناك نقص ، لأن ما يحركني ويلهب إحساسي ليس «ذكر الرجل» . . وإنما صوته . . حركته . . حديثه . . لغته . . لفتاته . . إحساسه المرهف الذي يسمعني ويفهمني . . لحظتها . . سأتحول إلى امرأة لا أعلم ماذا فعلته ، ولا ماذا حدث وأنا في حالة بوهيمية بلا حدود ولا رادع . . لن أنتظر المبادرة منه . . ككثير من النساء اللواتي يتواصين :

* دعيه يبادر . .

فبالإمكان أن أحيطه من جميع الجهات . . أتنفسه وأتنفس برحابة . . أمارس حقي كامرأة في حالة خفة فوق العادة ، وانعدام وزن فوق العادة ، ولا دخل لي به . . هو . . .

فأمره لا يعنيني .

ويبقى السؤال الأشد حرجاً . .

مع من تمارس إنسانيتك وكونك امرأة . . غير . . غير عن أي امرأة أخرى .

أين هذا الرجل الذي وصل إلى أقصى مراحل الوعي . . فيعرفني لدرجة أن يرى تصرفاتي ويلمسها . . ولا يستنكرها ولا يعتبرها تصرفات وإحساساً غير طبيعي ، ولا يرى أنها مجرد مهارة امرأة .

لكن هذا هو إحساسي المجرد . .

فأحياناً تبدر منك كلمة . . أو تظهر نغمة في صوتك ، لحظتها أنتهي صعوداً إلى القمة ، ، وبالتالي أن تستمر ساعة أو نصف ساعة دون أن أتأثر . . رغم أنني سعيدة ولكن المسألة الأكثر دقة لم تحدث .

. . . ومع ذلك :

لن ولا يجب أن أتجاهل أن في داخلي أمراً غريباً «امرأة غريبة» . . «فضة» قالت ذلك . . كل صديقاتي ، والمشاكل في حياتي سببها هذه الغرابة . .

ولن أنسى أنه من الخطأ الفادح أن أحُدّ من اندفاع الرجل الذي أمامي على أساس أنه مخلوق طبيعي ، والأشياء بالنسبة له هي تلك التي تتم بالصورة العادية بالمعاشرة الملموسة . . أنا لست ضد ذلك ، فأنا إذا أحببته سأكون معه على جميع الخطوط التي يرتئيها ويهواها . . لكن قبلاً . .

أتأكد أنني حبيبته وأنه يفهمني ، وأنه سيحُيطني من ذات اليمن وذات الشمال ، وسيملؤني وسيكون ذلك الحارس الأمين عليّ إلى أن أصبح تلك المرأة التي لا تصلح لشيء أبداً .

٢٢

يوم ماتت «فضة» ترك «ثامر» بلدتنا دون إنذار، عاد مرة أخرى إلى جدة. لكنه واصل تواجده بيننا عن طريق الهاتف الذي شاغلني به منذ سنوات بعيدة.

يوم خرج أول مرة بعد دخول «حمود» «بفضة» . .

* سأذهب في زيارة للأهل . .

عصرتني لوعة الغيرة . .

«فضة» صامتة . . تراوغني بنظرات لا ترعبني، لكنها تفتت من نواياي حيال ثامر . .

* هل قبّلك «حمود» . ؟

* نعم . .

* هل أحببته ؟ .

* كثيراً

يزغرد قلبي فرحاً . . وأبلع ريقي منتظرة أن تضيف كلاماً آخر . .

لا كلام . .

فجر اليوم الثاني لليلة دخلتها . . سمعتها ترفع صوتها على «جبر» في مشادة عنيفة بينهما تحت شجر التوت . .

* أنت امرأة متزوجة الآن . .

* أعلم . .
* «ثامر» رجل سافل . .
سمه ما شئت . . ضرب نافذتي بحجر صغير ، وحرضني على الخروج إليه . .
ضحكت بدماثة وهي تقبّل رأس «جبر» ، الأحداث البسيطة هي عالمنا الغريب . . ليلة البارحة قطف لي «ثامر» نجمة صغيرة ، وشبكها بدبوس في مفرق شعري ، وجاب معي الأرض على أرجوحة زرقاء . . تحملها أكف صغيرة بيضاء ، وحين مررنا معاً ببيت القمر . . سألت «ثامر» . .
* لا تخبر قمرنا من أنا . . حتى لا يفضح جسدي أمام المرايا العشر التي تحملها عينا «حمود» الحولاء ليلة العرس المرتقبة . . حيث سيمزق ثيابي حتى لا يعيّره أهله في الصباح ، وحتى لا يقف أحدهم فوق رقبة الخروف الحادة بدمها صائحاً بصوته الفضائحي . .
* «تمر وإلا جمر»
فيلوح له «السبتي» ورجال الدار من خلفه ، مؤمنين على سؤاله بهزات من رؤوسهم ، والنساء من خلفهم يرقبن الموقف وهن مستريحات على الجادة فوق البسط البراقة . . يتنهدن بفضول :
* «في النور وإلا في التنور» .
وعمتي بركة تدير رأسها بحركات سريعة متتالية ، وهي تزغرد على عتبة المذبح وتقول : «بنت يوسف أصبحت عروساً» .
حين مررت مع «ثامر» بالقمر شكوت له . .
أيها الكبير المدور . . أشكو إليك رجلاً مكرراً من عشرات الرجال القاطنين تلك المناطق الصغيرة النائية في أقصى الجنوب وعند سفوح جبال السراة الجافة ، هذا الرجل اسمه «حمود» .
«حمود» الذي لن يهتم بروحي الغضة وجسدي ، قدر اهتمامه وهو يربط يده بقطعة من الشاش الأبيض قبل أن يطلق عشر طلقات من بندقيته الضخمة احتفاءً برجولته بعد أذان الفجر ، لتنطلق الزغاريد ، وتدق «المهاريس» ، وتتقاطر

النساء على باب حجرتي المنداة بالعطر والزعفران ، وكل واحدة تحاول لمس يدي لتضع بها شيئاً ، حتى إذا ما أشرقت الشمس بدأ دور الرجال ، وعليّ أن أسلّم على الشيخ قبل الفتى . . وأن أخلع حذائي حتى يتسنى لهم مسح طولي . .

قبل أن يضع يده في جيبه ويعد نقوده ، ومع تبريكات حارة تلذع النار ، وأصوات تتفاوت في جرأتها ، وتتمايز في قدحها ومدحها ، عروسك «زينة» يا حمود فقط لو أن بها الطول قليلاً .

صوت آخر . . العروس بنت رجال . . يصمت ليأتي صوت آخر . . العروس مملوحة إلا أنها سمراء . . وآخر لو أن يديها أكبر قليلاً . . لو أن عنقها أطول . . ثوبها فاقع . . مشيتها باردة . . لم يعد يهمني ماذا سيكون غداً بعد أن سرقني «ثامر» من فراش أعلاه الحرير ودوده يمشي بين خيوطه ، وطار بي نحو البعيد واستسلمت ليده وهي تعبث بشعري . . ولحكاياته عن جدته التي تشهد أنها سمعته يصرخ في بطن أمه وهو في شهره السابع . .

أتذكر يومها أنها صفعتني حين أشعرها «جبر» بوجودي . .

* «انقلعي يا نملة» .

* هي تكذب يا عم جبر ، منتصف ليلة البارحة كانت معي في فراشي . أليس كذلك يا «فضة» .

* كيف ؟ .

دفعتني فانطلقنا بعيداً عن عيني «جبر»

كنت أكذب على رجل شهد بعينه حادثاً غير متوقع ، وسمع بأذنه كذبة غير مدروسة . .

بقي «جبر» وبقيت وماتت «فضة» ، واندثرت من ذاكرة «جبر» تلك الكذبة ، وخطت سنوات العمر . . على وجهه ترهلات العمر البعيد ، وكلما أوغل الدهر يده في جبين «جبر» وضحت الصورة . .

«جبر» لم يعلم أن «حمود» لم يمسّ «فضة» ، وأن حلمها بفض البكارة على طلقات الرصاص قد تبدد يوم خرج بعد الثالثة فجراً إلى غرفة أكثر إغراءً بالنسبة

له بجوار امرأة سمينة بيضاء ، كالزبدة الذائبة تحت شمس الضحى الذهبية تحضن أربعة أطفال . .

* «عذبة» انقلي الأطفال إلى غرفة أخرى وتعالي .

* أهلاً . . يا بو العيال . .

لم تبح «عذبة» «بحمود» الذي يمارس دوراً غريباً ، ولم يتح للسان عجوز أن تفتن به إلى «بركة» . .

جبر حين يحدثني عن «فضة» التي خطفها الموت مستوحياً الماضي بنبرة باردة .

* أسوأ ما كان في العمر الذي يتسرب دون غاية وجه «فضة» حين تبكي بلا دموع فلا أصدقها ، فأتذكر موت أمها في عصر جمعة حين اجتاح السيل القرى في ذلك العام ، وأهلك الحرث وأباد المواشي ، وأغرق قرى بكاملها في تلك الأعوام . . كنت أعمل أجيراً عند «السبتي» بخمسمائة ريال في الشهر قبل أن أتحول إلى «عمار» لجزء من المزارع التي تنتج الفواكه والخضر فترة عشر سنوات أعطاني بعدها «حمود» قطعة من المزرعة التي عمّرتها وتملكتها بصك شرعي ، ولم أتخل عن هذا المكان وبقيت الحامي على مال ومزارع «السبتي» .

آه يا ابنتي - نهاري في الحرث وبذر الأرض ورفع تعريشات العنب ، وفي الليل أسهر على صوت «عبد الله فضالة» .

«يا دا الحمام اللّيّ نعى في غصون
وشبك على قلبي تبكيني . .

تتفجر أضلعي حين يؤذن في الفلاة . . صباح فخري «ابعث لي جواب وطمني» ،

أهلل فيردد العمال معي أهازيج الليل ، ونضرب الورق لنغطي على صوت ماكينة الحياكة التي يملكها «مرهون عقلي» يحيك بها مراييل طالبات المدرسة . والتي ابتاعتها منه «بركة» التي تشكو من الأرق . إذ كلما صادفتها . . نصحتها بتعلم الحياكة من «مرهون» .

لم تكن ماهرة أو حتى راغبة في الحياة ، ولا أذكر أنها تقاضت أجراً على ثوب حاكته لعجوز أو طفلة أو حتى سيدة فقيرة من قرى الوادي العريض ، فقد كانت تفضل بشكل أقرب إلى التعبد الجلوس على ماكينة الخياطة . . ساعات طوالاً من الليل بعد أن تهجع العيون ، وإذا ما سألتها «جميلة» أو امرأة من نساء الدار عما أنجزته طوال الليل . . سارعت بإخراج ثوب بديع سيكون من نصيب من يناسبها مقاسه في المنزل أو الجيران .

لكن لا أحد يعرف معنى ذلك القلق الليلي لتلك المرأة الداكنة البشرة الملساء الجلد ، والتي تقضي ثلاثة أرباع يومها في العمل داخل البيت والمزرعة . مضافاً إليه العناية بعجوز سوداء كثيبة . . صماء تسترخي بذل بين يدي «بركة» الخشنتين والتي تصرّ على أن تلاصقها في الفراش ، وأن تضع فراش «فضة الصغيرة» على يسارها . . وتتم ليلها تقلب عينيها بين الفضتين . . لا تنعم إلا بروائح نتنة من فراش العجوز الغارق في الصديد والدم . . وفراش الطفلة ابنة أخيها الرضيعة الذي يفوح برائحة الحليب والتبول الليلي .

فقد ولدت «فضة» قبل مداهمة السيل لقرى الوادي بشهر واحد فقط ، وطفت على ظهره كالقشة . فقد كان السيل بعد مطر دام ثمانية عشر يوماً وظلمة موحشة «وضريب» أحرق الثمار وأتلف المزروعات الصغيرة ، ولم تشرق الشمس إلا بعد أن رفعت الأعلام الحمراء التي هي عصي الفلاحين التي تعلو رؤوسها «غترهم الحمراء» ، والذين داهمهم السيل ضحى وهم وسط مزارعهم يحرثون ويبذرون ويسقون ، وبعضهم يتفيأ بظلال الأشجار ويراقب مواشيه ترعى قربه بين النخيل بعيداً عن المزروعات الصغيرة ، في ذلك الضحى الأغبر اشترى «سقا» المزرعة مسجلاً وأطلق الغناء اليمني مع الهواء ، وعلى صوت الغناء غفلت النساء عن أكوام الثياب المتكدسة عند البرك وحول «جابية الماء» .

على مسافة من مقعد «السبتي» وبعض الرجال والنساء الكبيرات يرشفون القهوة مع كسر الخبز الحار «والإقط الجديد» .

في آخر المزرعة وفي جزء يسير من أراضي «السبتي» الخلفية انشغلت زوجة

«يوسف» التي علقت خلف ظهرها على كتفها الأيسر «ميزباً من الجلد» احتوى طفلتها «فضة» التي لم تتجاوز الشهر من عمرها . . بتنظيف أحواض النعناع والزهورات من الأعشاب والطفيليات التي تعيق نموه وانتشاره . . أذكر يا ابنتي أن الأئمة في المساجد حذروا المزارعين وأهل القرى . . كما أكد معظم العقلاء من أهل الوادي على أن هناك سيلاً عظيماً سيداهم القرى ، وأن البيوت التي تهدمت من جراء المطر وفر أهلها إلى أماكن آمنة ، وتوزعهم أهل الخير والمنازل الواسعة الأكثر أمناً . . وقاسموهم مؤنهم لدليل على قرب وقوع الكارثة .

وكنتُ واحداً من أولئك الذين حذروا من مغبة «الغطيط» الذي يربض على الأرض كقبة من رصاص . . حتى «السقا» اليماني . . كان يفرك أنفه حينما تهب نسمة جنوبية . .

* الهواء هواء سيل . .

«بركة» حلفت أيضاً بأن العجوز «فضة» قالت . . أشم رائحة سيل . . لكنها طمأنتها .

* أمي . . إنها رائحة مطر عاصف .

الندى الذي يهبط أثناء الليل كان دليلاً على أن لا سيل زاحف ، وأن الأرض عطشى ، حتى لو كان هناك سيل فستشربه الأودية المتقدمة والكثبان وكهوف الجبال قبل أن يصل .

ولا يتذكر أحد من أهل الوادي تلك الأيام إلا ويرفع يديه ورأسه مهمهماً بذكرى الموت الجماعي . . ولاجتماع الأهالي كل ثلاثة أيام لأداء صلاة الغائب . . كلما اكتشف فقد أشخاص أو نساء أو أطفال من القرى المجاورة أو عندما يلفظ السيل جثة مجهولة عند أطراف المزارع .

وقد مات من بلدتنا سبعة رجال من بينهم بعل «زينة بنت الرعيان» والتي تهامس أهل الوادي بأنها شيعت البخور الدوسري ليلة موته مما أورثها لعنات . . دامت سنوات طويلة . .

وماتت «أم فضة» صغيرة لا تتجاوز الخامسة عشرة ، إذ أشهد . . أنا يا محدثك

«جبـر» أن «العُـقـر» أصـابهـا لـشـدة الفـزع ، فـراحـت تصـرخ وهي تضـم «مـيـزب» صغيـرتها المتعلق بكتفهـا ، وعندما لطمـها أول السيل وقلبها . . نهـضت وألقت «بميزب» الطفلة ، بعيـداً حيث تعلق بأغصان شـجرة «عـرعـر» عـجوز ، ولا تزال «بركة» تنتحب كلما رجعت لذاكـرتها صورة زوجة أخيهـا وهي تصارع الموت . . تصعـد وتهبط وسط الهـدير الهـائج والزبد الأبيض ، وتبـتـعـد مع القش والأغنام والأخشاب . . فلا يرى من البعد سوى ثوبها الأحـمر «التركس» الذي كون على ظهر الماء والزبد فقاعة حمراء . . ابتلعها إلى الأبد . .

عقب أيام العزاء صعدت من سرّة الصغيرة المتورمة عفونة نتنة عالجتها «بركة» بالكحل والمرّ والحليب ، تلك الرائحة تشبه رائحة الجسد المكّفن الذي تقاطرنا لنودعه . . إلى مثواه الأخير . .

. .أذكر . . تلك الرائحة يا عم جبر . . وأذكر أنني تجادلت مع «حمود» كثيراً . .

* حمود فضة متعفنة . .

* اصمتي إنها رائحة الجنين المعلق بفرجها . .

* لا يعقل : . لم يمر عليها أربع ساعات منذ موتها . . فكيف بهذه الرائحة العطنة . .

* اخرسي . .

ثم التفت لو فتحت فمك بكلمة . .

* ماذا ؟ .

* فأنت طالق . .

* وهل نحن زوجان حتى تهدد . .

جذبني نحو الجدار . .

* قلت اخرسي . .

حيـرني ذلك الكفن لأيام . . لأنني لست مـجنونة ، ولا عـانيت من صـدمـة أفقدتني الذاكرة ، فقد كنت أتبع «جميلة» وأنا أحمل . . «حسكل» به حنوط الميتة من سدر وماء ورد وصابون وكافور . . وأعي تماماً أن حمود نذر بي . .

* ليس الآن يا امرأة . . ومد يده إلى أمه وقبل رأسها قائلاً :
* اذهبي وارتاحي . . سأسامر جثتها أنا وأبي ، وعند الفجر سنقبرها .
ودلف مع والده إلى حيث فراش الميتة وكنت لم أبرح بعد . . رأيت بنفسي ولم تنهرني «جميلة» ، بل تسمرت تبكي بحرقة . أزّ الباب . . وبسمل «السبتي» وحوقل وهلل . . وكبّر . وتقدم إلى حيث فراشها ، وخلع عباءته وأخرج من جيبه مصحفاً صغيراً وقال . . «لحمود» .
* اذهب أنت أيضاً وأرح جسدك سأبقى بجانبها حتى الصباح . . هيا اذهب
* . . . .
* لماذا تقف جامداً ؟ .
رفع بصره إلى «حمود» بعد أن استوى جالساً قرب فراش «فضة» ، ونادى بصوت خافت .
* «حمود» ما بك ؟ .
قلب المصحف بيد واحدة ، وبدا على وجهه أسى لم يعهده «حمود» من قبل . .
هبت نسمة باردة من النافذة . . وسُمع خرير ماء في الخارج . . كان أحد هناك يتوضأ من أجل صلاة ليل طويلة . . أطال النظر في صفحة واحدة في المصحف المفتوح ، وشدّ نظراته إلى الأعلى قائلاً . .
* اللهم أمتنا ميتة طيبة . . ثم تنهد . .
كان المرض قد بدأ ينهش أعضاءه . . وشعوره بذلك واضح . . حين تنهد . . .
* لا يعلم إلا الله بكم سبقتنا هذه الفتاة . . إلى وجه الله . وكم سنعيش بعدها ؟
بداخله كما يقول «ثامر» إثم عظيم .
لا يريد الاعتراف به . . ودلل على ذلك أنه أثناء فترة العزاء لا يستطيع وضع عينيه في عيني «بركة» التي هجرت بيته وانزوت في سقيفة بعيدة . .
صوته متقطع . .

* «حمود» . . يا بني . . اخرج إلى النساء النائحات قل لهن أن يخفضن أصواتهن . . هيا اذهب .

* . . . .

* لماذا تتصلب أمامي . . هاه . . ما بك ؟ .

رفع بصره نحو ابنه ، ثم استوى في جلسته ليرتد نظره إلى حيث تركزت نظرات ابنه الواقف . . اصطك رأسه بالحائط نهض ثم قعد . . بعثر الفراش وقذف به ليصطدم بالحائط وعض بأسنانه وقال :

* كنت أعتقد أن كل قلق يهدد نسل أبنائي قد ولى وتلاشى . . ثم بصق على الفراش صائحاً . . أي شيء هؤلاء . . أألجبهم الجن واستعادوهم . . ثم نفح بأنفه لا فائدة يا ولدي لقد لاحظت اختفاءها منذ دخلنا . .

* ارتعد وصرخ . .

* «حمود» أنت الملام . .

كيف حدث هذا . . هل طارت . . ثم لماذا خرجت وتركتها ؟ .

* أبي . . هذا شيء لا يصدق . . ركض إلى «جميلة» التي ألجمت فمي حين صرخت مبتعدة . . اصمتي . . اصمتي يا فتاة وإلا أقسم برأس أبي سأحرمك من أمك العمر كله . . وسأجعلك تنبحين ككلاب الليل الخرساء في جبال عسير . .

ابتعدت وأنا أسمع «حمود» يقول . .

* أبي . . كيف سنخرج من هذه الأزمة . . سنصبح حديث الألسن . . لقد صنعنا أمام الناس صنيعاً جميلاً ، ولكن نحن أمام الله قتلة مجرمون . .

* كفى . . لو زدت حرفاً واحداً . . سأضربك على رأسك بهذه . . وكان بيده . . يد الهاون الذي خلط به أعشاب المريضة .

اخرج الآن وابحث عنها بصمت .

انتظر . . انظر تحت السرير أولاً . .

عدتُ راكضة . . سأبحث أنا . .

صرخ في وجهي . .

* اخرجي . .

زحف «حمود» على بطنه ويديه . .

* لا أحد . .

* أغلق الباب خلفك . .

أذكر ليلتها أن «السبتي» اقترب من «جبر» الذي فاتحه «حمود» بالأمر . .

* لا ترفع صوتك ، ثم إننا كنا جميعاً عند البوابة ، ومن أخذها . . سيخرج بها من هنا . . ثم اترك هذا الهراء . . من سيأخذ جثة ؟ .

* هل فتشتم دار «بركة» . ؟

* لم يبق شبر في المنزل ، ولا في أحواش البهائم ولا ، في البيت وحتى خزانات المياه . .

* من أخبرتم من النساء . .

* لا أحد سوى من علمن بالأمر . .

* وما الحل ؟ .

* لا أدري ولكن لن نعلن ذلك ، سيبقى الأمر سرّاً وفي أضيق الحدود . . إنها فضيحة . . فضيحة .

٢٣

في الدور الثاني من المنزل الذي كان المخبأ الأكثر أمناً . . حين احترقت بغداد . . هناك فركضنا من مدننا نحو تلك القرية النائمة بهدوء الجدات في حضن الوادي . .

البيت أكبر مما توقعناه نحن الصغار الذين خرجنا من قبل أن ندرك معنى الفراق ومعنى رائحة الأرض . . هروباً من حياة زوجية قاتلة . . لم تستمر أكثر من أشهر . . إلى حيث أبي وزوجته . . فما لبثت الحرب أن نشبت . . فعدنا إلى الجذور مرة أخرى .

في الدور الثاني . . وأنت تصعد إلى الدور الثالث . . فراغ بين باب المدخل والسلم مزين بأريكتين من الخيزران ، وطاولة بيضاء تستقيم بأرجلها الثلاث على سجادة حمراء مزينة بجمال وخيام . . مهيئة نفسها للتأمل من عين ذلك الذي سيجلس ، ولم يكن الجالس الأكثر وداً وألفة مع ذلك المكان الشديد البرودة سواي . . إذ أرى منه انسحاب الشمس الغاربة وسور المقبرة الوسيطة في البلدة . . حيث أظل أراقب «حمود» حتى يغادر المنزل . . فأصعد السلم اثنتين . . اثنتين . . أقذف برأسي على ظهر المقعد ، وأقابل الزجاج العاكس في الحائط المقابل أراقب صفرة المكان وانسحاب الشمس ، هذا الوداع اليومي لعائد سيشرق من جديد مبهراً وجميلاً . . إذاً . . كل أنثى على ظهر الأرض قادرة على العودة من جديد

إلا أنا وأنتِ «يا فضة» .

«بغداد» ستنهض يوماً من كبوتها . . «القدس» ستنفض ثوب الذلة ، وستغتال ذاك الذي فتك بشرفها في الشارع العام . . والشمس غداً عائدة . .

فهل بالإمكان أن تعودي «يا فضة» ؟ وهل بالإمكان فضح سرّ القبر الغريب الذي سوي بعد أيام من موتك . . بجانب قبرك . . الذي حوى كفناً محشواً . . «بالخرق» والقش والقطن ؟ . ومع طول المدى . . ما عدت أميز قبر القش من قبر الجسد . .

اندثرت معالم القبرين . . وزاحمتهما القبور الكثيرة . . ولم يعد ندياً سوى قبر السبتي . . كنت أعي أحداث ليلة الموت . . وأعي أنني ساهمت في جمع «الخرق» والقطن مع «جميلة» .

ولا أنسى أن «السبتي» صفعني قائلاً : ابقي مع «بركة» حتى يتم غسل الميتة . .

* هل وجدتها . .

* اخرسي . .

«فضة» إلى هذه اللحظة . .ما زلت أنتظرك . . وأنتظر قرع زجاج النافذة بأصابع سمراء وصوت مبحوح . .

* تعالي .

ما عاد للأشياء طعمها ، ولا لسرقات الليل سحرها . . ولا لصوت «جورج وسوف» جاذبيته وحنانه . .

كذلك «الفيديو» ونساؤه العاريات ورجاله المتهيئون . . مساجد بلدتنا . . التوابون . . والأوابون في محرابه . . ثامر ونداؤه الخفي تحت أشجار الرمان الهاتف الأسود الذي كنت أقبله بعد أن تنهي حديثك مع ثامر . . فلا يبقى لي سوى أن أطفئ حرقة ولوعة الغيرة . . بقبلة على الحديد الأصم . . لا يزال في مكانه . .

كل ذلك ذاب على بعضه . . تداخل واندمج وفقد حساسيته ووقعه . . تساوى صوت ثامر . . مع الفيلم الذي ظهر من مخبئه ، ورص بعناية فوق حامل

خشبي أنيق بيد عاملة «فلبينية» .

رائحة زهر الليمون اختلطت بروائح «البودي شوب» في الغرف الأنيقة . .

سطح منزلنا وباحات المسجد في رؤيتي واحدة حتى الكاميرا التي اشتريتها سرّاً بعد موتك لأصّور قبرك . . بل تخيلت أنني بها أستطيع نبش القبر مع «ثامر» . . لأتأكد من أنك لست فيه . . لا تزال تحتفظ في جوفها بالصور العتيقة . . رغم أنني رأيت بأم عيني ما حواه الكفن ، لكن تكذيبي المستمر والضغط على أعصابي من حمود . . السبتي . . جميلة . . جعلاني أدخل في دوامة تكذيب نفسي . . فيحرضني «ثامر» . .

* «فضة» هربت من فراش موتها . .

* إلى أين ؟ .

* لا أدري . .

ترعبني نظراته . . وقبلته الحارة حين يحضنني فأدفعه بقوة . . ابتعد . .

أذكر ليلة موتك أن الليل انقضى ثقيلاً كئيباً خانقاً . . وفاحت رائحة الموت في كل الحجرات المغلقة . . وأذكر أن أهل المنزل تهامسوا كل يزعزع الآخر . فالذي يعلم أولاً يُقعي متماسكاً ، ويضرب على يد النائم بجواره أو في غرفة مجاورة بهدوء ، حتى إذا ما استيقظ الراقد . . أبلغه المستيقظ بالخبر ، وهو يقرأ عليه وينفث يبسمل ويربت على ظهره مذكراً إياه بالله . . فيتبرع المستيقظ الذي لم يستوعب الخبر بإخبار نائم آخر . .

ولم يتبق أمام السبتي إلا أن يتولى مسؤولية ما حدث وما سيُقال . . فجمع حوله اثنين من أبنائه و«جبر» و«ثامر» طبيب المستوصف ، واستطاع في النهاية كما أخبرني «ثامر» أن يخرج قبل شروق الشمس بجنازة مهيبة في الطرف الشرقي . . تحت الجبال حيث مقابر البلدة وخلفه ثلاثة وعشرون رجلاً . .

الخلل الوحيد الذي ارتكبه «السبتي» هو إرساله «جبر» لملاحقة سيارة الإسعاف والبحث عن الميتة فيها . . مما جعل طبيب المستشفى ومن معه يعودون سريعاً . .

وحين بدأت المساءلة . . اضطر «جبر» إلى أن يصمت صمتاً تاماً . . فأعاد «السبتي» رجال الإسعاف الذين بدا عليهم الارتباك وعدم التصديق بما حدث . .

* «جبر» مجنون يا رجال . .

قال «السبتي» ذلك وهو يتصنع حرجاً . . ويهامس الرجال . .

إنه يعاني من ضربة قديمة في رأسه . .

زكّى قوله ستة رجال وعلى رأسهم «ثامر» الذي أكّد أنه رجل مصاب بخلل ليس مخيفاً في عقله . . ولم يكن من «جبر» إلا أن يصعد فوق مقدمة السيارة . . ويرخي شقه الأيمن ويعطي ظهره للقوم . . وقت أن كبر المشيعون للصلاة .

. . .يوم بكاك الجميع . . ما كنت أبكي . .

ولا «جبر» يبكي

لا صراخ . . روائح فقط . . وصمت . .

ذابت الفروق . . وانهدمت كل العوازل بين أفراد البيت . . واشتبكت مرة أخرى مع «حمود» في حديث حادث كنت محوره . . وانهالت «جميلة» صارخة :

* الفتاة من أخذها يا «فاجر» . . دعنا نعلن الأمر ونبحث عنها . . ستثور رائحتها وتفضحنا .

* نسي النساء الحرب . . وغفلت مخيلات الأطفال عن الكيماوي الذي سيخنقهم به «صدام» وهم نيام . . كنت أُريد أن أصرخ بما لا تعلمه «بركة» ، وأريد أن أكسر ظهر «السبتي» بما يهدّ «حمود» .

كنت أرغب في أن أنشب أظافري في وجه «ثامر» وددت ذلك وأنا ألوب كعنزة ضالة في «السبل» المقفرة بين المزارع ، وفي خرائب الرعاة ، وفوق أغصان شجر التوت المستوية ، وفي قلب شجرة الكينا الضخمة ، وتحت «قعادة» جميلة الأثرية . .

أدليت برأسي في البئر وناديت . .

* «فضة» . .

تخيلت أنني سمعت صوتك . .

فاجتاحتني نوبة غضب جامد .

* كيف يمكن ذلك . . ومن حملها بجنينها . .

«وثامر» الذي صنع بيده جثة من قش وقطن «وخرق» بديلاً لجسد «فضة» الذي اشتهاه كما لا تُشتهى امرأة . .

وسكب بيده عطرها وعطري فوق القطن والقش ، فثارت مع المواد غير المتوائمة رائحة عطنة تشبه رائحة سرّها الذي مال قليلاً عن موقعه تشهد بذلك أصابع «حمود»

التي أثارتها فانتبصت أمامه ودارت قبل أن تطلق قدميها . . وتدق بيد مرتجفة . .

* افتحي . .

* ما بك . .

* هو ملكي . . فأخلي المكان من الشباب المتلصصين والفتيات والصغار . . أرجوك . . اسهروا بعيداً في الغرف الخارجية ، وهاتي علبة المناديل المعطرة . . أذكر وجهك يا «فضة» يوم خرجت بعد الرابعة فجراً وانثنيت على حافة فراشي . . متألمة . .

* مطهر . . أو ميكروكروم . .

* كان حوضك يرتجف ، وساقاك لا تقويان على التلاصق ، كنت لا تزالين ترتجفين . . وعلى وقع حكاية قديمة قلت :

* وقت الاحتدام الحقيقي وهجوم ظلمة الليل على ضوء النهار . . حينما لا يكون في السماء الدنيا سوى نجمة الصبح التي تضيء على سناها المنطفئ بكارات الصبايا العاشقات اللاتي لم يتعودن همس الرجال ولا لمساتهم . . فما إن يلتصق الجلد بالجلد حتى تنبجس الغلالة كانبجاس الضوء من عتمة الكون ، وكسقوط الشمس في ظلمة البحر وقطرات المطر في سافل الأرض . . والريق الدافئ في الجوف البهيم . . ينتهي الأمر .

* هل انتهى ؟ .

* أكيد . .

* هل انبجست الغلالة ؟ .

* هذا دمي . .

فرجت ما بين ركبتيها . . فكز جلدي . .

* استحي . .

لِمَ تعيرنني همك . . واندفعتِ في الكلام وأنت تضمين جوفك بيديك ، وتلفين حوضك المجروح . . بملاية سريري . . قلت :

* فتح كل من العاشقين عينيه - لحظتها - أفلت نجمة الشؤم . . ليس هناك تراجع ، ولم تمنع يد الرجل الذي نأى عن فراشي عاماً وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً . .

يرقد في طرف الفراش وأنا على الطرف الآخر يحلم/ يصرخ . . ويتنفس وأنا أضم جسدي بلحافه كوليد في مهده . . ورأسي يبقى خارج الغطاء . . أترك عضلاتي تسترخي حتى تلتصق بالفراش . . فإذا ما استعذبت الوضع أخرجت ذراعي ونمت . .

لم يكن يخطر ببالي أن «حمود» يقوم بنفس الدور الذي قام به أبوه «السبتي» مع عمتي «بركة» إلا بعد أن قضيت ليالي طوالاً . .

أرى الرجل ولا ألمسه . . لم يفت «بركة» التي انثنت لتشم رائحتي سابع ليلة من عرسي . .

* لا رائحة رجل في جسدك . .

* كيف ؟ .

* أين رداء ليلة الدخلة . .

دست رأسها في الخزانة وأخرجته . .

* لا يزال الساتان بلمعته وعطره . . وانسداله . .

* لم يمسني . . أول الليل ينام قربي . . وآخره في حضن «عذبة»

* وجهها استحال رمادياً . . وانسحبت الدماء من شفتيها ففاحت رائحتها التي تشبه رائحة البصل المتعفن . . وتقوس ظهرها وهي تلطم وجهها بتنهدات موجعة . . ومن قاع حنجرتها الملتهبة قالت :

* اسمعي يا بنتي . . «يا فضة» نحن عار ولون مغاير في عائلتنا ، وليس بمقدورنا أن نعيش إلا بالمكر والتحايل أو الاستسلام حتى نفنى . .

مسحت عينيها المقرحتين . . وتابعت :

* في طفولتك كنت تُقعين كهرة تحت قدمي جدتك «فضة» وتسألينها بحرارة . .

* يا جدة . . لماذا أنت سمراء وأهلي كلهم من البيض ؟ فتخلع جدتك من فوق رأسها «مرسنها الفضي» الطويل ذا الكتل الثقيلة ، وتضعه على رأسك قائلة :

* منه يا ابنة ابني تعرفين أصل جدتك . .

كنت متعلقة بجدتك . . أكثر مني ، وإذا أردت تهدئتك لتقبلي بأمر . . أو لأكبح جماح غضبك من فتاة أغضبتك أو فتى ضايقك . . أضع رأسك على حجري . . وأحدثك عن جدتك «فضة» الأميرة الصحراوية . . وعن ليلة فُضت بكارتها تحت شجرة «رقّع» حيث تناثر شعرها وألتف حول شجيرات عنكبوتية طلعها أحمر ، وجذرها يتمدد كالعروق الناتئة مساوياً سطح الأرض والحجارة والرمال المتكلسة المالحة . . وظن الواقف عند قدميها أنها ماتت ، وحينما نغزها بعصاه . . ذات الرأس المدبب من النحاس اللماع . . ارتجفت ، وبقدميها الطويلتين الكبيرتين راحت تدحرج الحجارة الدامية على الرمل . .

جرحها النازف حجّر دمعها النازف فوق الجفنين السفليين ، وبلسان جاف راحت تؤكد لنفسها أن لا مجال للعودة فسترها ، ها هي بقع سوداء على الرمل . . إنها أمة وهتك سترها في هذا العراء الشاسع ليس بالفضيحة التي كان يمكن أن تنالها لو كانت في قصر إمارتها عند أطراف الصحراء . . وعلى التراب الحار وعلى مرأى من تسعة رجال . .

فعندما أناخوا رحالهم كانت مكممة ومشدودة على ظهر حصان أعجف . .

أنزلها أحد الرجال وفك قيدها . . ودفعها . .

* اذهبي واقضي حاجتك خلف تلك الشجرة ، ركضت قبل أن يتبين أمر «مرسنها» الثمين فيأخذه . . إنه شيء سيذكرها بأهلها ، وسيعرفونها به لو قدر لها أن تعود أو تفرّ من خاطفها ، خلعته من فوق رأسها . . وربطته حول وسطها وشدته بخيط برمته بعد أن اقتطعته من اللثام البغيض . .

وقفت حيث قضت حاجتها ، ومسحت الصحراء الواسعة بنظرة دامعة . .

* آه . . يا رب . . رمال شاسعة على مد البصر ! .

جلست مكانها وراحت تحثو التراب على رأسها مرسلة نداءً يرتد إليها . .

* أين أهلي . . من أنا . .

إخوتي . . أبناء عمي . . أين أنا من خدري الواسع . . أميرة في إمارة صغيرة عند أبواب حضرموت . . مدللة يصطف أبناء عمومتها . . من أجلها ويخرج شقيقها الأكبر منادياً . .

* يا «فضة» اختاري أحد هؤلاء . .

* ليس الآن . .

تحثو التراب على رأسها . . وتواصل النواح . .

يقترب منها أحد الرجال ويناديها . . ترتد ببصرها إلى مختطفها . .

* ما اسمك يا صبية ؟ .

* فضة . .

* والنعم . .

يضرب بعصاه الأرض . . يغرزها ثم ينزعها بقوة ويلتفت نحو الرجال الثمانية المقهقهين . .

* هل ترين في هؤلاء الغوغاء من هو أكثر وسامة مني ؟ .

تحملق به . . فيزداد ضغطه على العصا حتى إذا غاصت في الرمل . . نزعها . . انتابتها رعدة .

* ماذا تقصد يا رجل ؟ .

تتعلق بقدميه وتقبّل حذاءه المبطن بالجنزير فيدفعها . .

* استحلفك بالقرآن وبالنبي وبأهلك أن تسترني في هذا الخلاء . .

* اخلعي ملابسك . .

* ياه . . ياه . . تنفلت من أمامه هاربة تركض . . ويركض . . تتعثر وتسقط ثم تنهض ، وتواصل الركض فتفاجأ بأحد الرجال يعيق هروبها وهو على ظهر حصانه ويجرها من شعرها . . والآخر خلفه يرغي ويزبد . .

* أيتها الكلبة تهربين من يد «عبود السبتي» يوقفها وسط الرجال التسعة . .

* خذوها . . جردوها . . ثم أطلقوها لي . . سأخرج للخلاء قليلاً . .

يشدها أحدهم إليه . .

* دعوا ثيابها عليها . . وليفعل بها ما يشاء .

يضحك آخر . .

* سيكون منظراً بديعاً . .

* دعنا نجردها ونأخذ منها ما نريد . .

فلنا الحق مثل ما «لعبود» . .

تتعلق بأكتاف الرجال . .

* أنا ابنة قوم كرام . .

تركض إلى أحدهم :

* يا سيدي . . لأجل خالق هذه الصحراء . . يدفعها فتتعثر عند قدم رجل ثالث . .

* إني أستجير بك . .

تبلع ريقها وتبصق دماً . . وتدعك حنجرتها الجافة . . ويغيب صوتها . . وتشير بيديها وهي تسحب من قدمها اليمنى إلى حيث «عبود» . .

* خذ هذه البقرة . .

أخذ يجردها من ملابسها وهي باردة كالثلج . .

* لقد أتعبت نفسك يا فتاة . . والله لو كنت ابنة السلطان العثماني ما عتقك

«عبود» .

كان يصله هتاف الرجال وقت انقضاضه عليها ، ويشدد من قبضته عليها عندما يشعر أنها ستقذف به إلى الأرض . .

كل ما فعلته وسط تلك الضوضاء والضحكات المثارة لانتصار مغتصبها الذي نجا من ركلاتها وأظافرها ، واستطاع أن يكمل وجبته بسهولة . . أنها حفرت حفرة ودفنت جسدها حتى المنتصف في حرارة الرمضاء . . معللة روحها بالشفاء العاجل وهي ترقب تسعة من فحول الجزيرة العربية يقلبون الجمر المتقد تحت الشواء بأصابعهم ، وتلك هي الوجبة الدسمة الأولى بعد أن قضوا أسابيع طوالاً في انتظار «المعصار» الدوامة أو العاصفة اللولبية الرملية المفاجئة . . وكما يسميها البعض «عرس الجن» .

فما إن تبدأ العاصفة بالدوران حتى يكون الرجال متهيئين متأهبين للدخول في قلب «الدوامة» اثنان داخله ، وثلاثة على أبواب القرية . . وأربعة حرس للمعابر والطرق ، والمخطوف بعد«المعصار» لا يسأل عنه باعتبار أنه في حوزة الجن . .

الرجل عريس لجنية مزينة . . والفتاة عروس لأمير أو صعلوك من عفاريت المعصار . .

والخاطفون بشر من أرض الجزيرة العربية جائعون وصعاليك . . وفضة الحضرمية جائعة إلى أن تظل في حفرتها مغمضة العينين جائعة إلى أن تكون كل الأحداث التي مرت بها حلماً من أحلام الأميرات المنعمات . .

مقاومتها الصامتة . . والقبر الواسع الذي اندست به أخّر بيعها . . وكثرة الدماء التي نزفت منها أثناء رحلتها . . عبر الصحراء . . قززت كل من عرض للرجال في الطريق . . وعرضوا عليه بيع أمة مريضة في حوزتهم . . فكانوا كلما مروا بواحة أنزلوها ، وأمروها أن تغتسل وتغسل ظهر راحلتها . . وما تكاد تجف ويلتئم جرحها حتى يغافلها «عبود» وينكأ الجرح .

٢٤

في الدار الحجرية يا ابنة أخي . . وفي قرية لا تعرفينها من قرى جبال السراة حبسها «السبتي» بعد أن دفع «العبود» بقينة كهلة ليبيعها بدلاً من جدتك «فضة» قائلاً :

* اتركها في المنزل ولا تقربها . . إنها شابة وأحذرك لا تقربها حتى تطيب . . ستنفعنا في الحرث والطحن . . وعندما لاحظ شدة حزنها وعزوفها عن العمل ، حبسها في غرفة مظلمة ، وجزّ شعرها الذي كانت تلويه على عنقها في محاولة للانتحار ، وهي حتى بعد أن بلغها «الخرف» لا تزال تئن تحت وطأة عودة الذاكرة المؤقتة . . إلى أنها سبب توبة «عبود» ابن عم عبد الرحيم السبتي الذي اختطفها وافتضها دوناً عن الرجال ، وداس بنعاله على وجهها . . سبب توبته عن التجارة بالبشر الأحرار . . إذ لم يكن مالكاً للعبيد أساساً كجده الذي ورّث عبيده برمتهم «لعبد الرحيم السبتي» نظراً لموت والد «عبود» صغيراً . . بل كان يرى أن التجارة بالنساء الجميلات ذات فائدتين : أولاً أنه يستغني بهن عن أمر الزواج وتبعاته ، وثاني الأمور أن البيع يتم في قلب الجزيرة العربية . . حيث تباع الأمة المخطوفة ذات الأصل العريق بثمن باهظ . . وكان «عبود» بالإضافة إلى ثمانية رجال من عرب الحجاز وقلب الجزيرة العربية يسافرون بالأشهر ويتحينون ظهور «المعصار» في اشتداد القيظ فما إن يبدأ خروجها من باطن الأرض حتى يحمى وطيس

المعارك وعادة ما تكون احتداماً . . وغباراً مثاراً . . وركلات . . فهم يتكممون حتى لا يصدر من أحدهم صوت يُعرف به فيما بعد . . وأيضاً سرعة إتقانهم محاصرة المخطوفة وتكميمها والزج بها في «خُرج» يلف بشكل عرضي فوق ظهر الفرس . . أو يحاط به بطن الناقة . . وعادة ما تعتقد المخطوفة أن الغزاة من الجن . . لشيوع الظاهرة فتُشل حركتها ، وتنهزم سريعاً على اعتبار أنها أصبحت في أحضان الجن ، ولن يبحث عنها أحد . . ولن ينالها إلا رق واستعباد ، فإن كانت قبيحة سيقت . . إلى سوق النخاسة وانتهى أمرها . . أما إذا كانت ذات صون وجمال ، فهي لا تخرج من حمى «الجني» الذي اختطفها ، وفض تحت شجرة أو صخرة في أثناء طريق العودة بكارتها إن كانت بكراً . .

* «فضة» تلك الأمة التي استكانت في سجنها بعد أن يئست من العودة إلى أرضها . فهي تعلم أن أهلها قد ملّوا من البحث عنها ، إذ تزامن خطفها مع هبوب «معصار الأحقاف» إذاً هي في عصمة مارد عنيد تحت الأرض . .

* بعد انقضاء سبعة أشهر على حبسها قرر «السبتي» إخراجها بعد أن ربط لها قدميها بسلسلة بمسافة متر ليتيح لها حركة التنقل .

* وكان ذلك ليلة أن حضر مع اثنين من أخواله «وعبود» بصحبتهم امرأة ضئيلة وصغيرة غاية في الجمال . . حذرة في كل أفعالها وأحاديثها ، وتسعى جاهدة لإرضاء الجميع . . وتبكي كلما ذكرت أهلها وقريتها . وقد ازداد حالها سوءاً عندما دخل على «السبتي» نفر من الجماعة ولاموه على الزواج من فتاة غريبة . . وبنات قريته وعمه يملأن الساحات . .

طال الحديث وتشعب ثم أقدم كبار الجماعة على طلب غريب . .

* طلقها . . طلق «جميلة» وبناتنا تحت قدميك خذ منهن من تشاء .

* لا . . هذا ليس من شأنكم . . إنها زوجتي وقد اخترتها ، واسألوا إن شئتم عن أهلها . .

فضة . . الأمة الحضرمية في تلك الأثناء . . كانت قد ألفت الحياة والناس والسلسلة الثقيلة التي تجرها بين قدميها . . وكُلفت من قبل «جميلة» أن تنقل ما

يحدث في الدار والساحات . . والقرية من كلام إليها ، وسرّها مثل ذلك العمل ، ولان لها وجه «السبتي» ، وخفت حدّة معاملته لها ، وأصبح بإمكانها أن تعمل العمل الذي يروق لها دون خوف وأن تجلس في المكان الذي تختاره دون تحسب ، وفي الصباح عند سرير «جميلة» . .

* هم يقولون إنك لست بكراً يا «جميلة» . .

* وماذا بعد . .

* غداً موعد الحصاد . .

* وأيضاً . .

* النساء يقلن إنك لا تملكين ثياباً كثيرة ولا تجيدين الحياكة . .

* سيزوجونه بواحدة أخرى .

تضحك «جميلة» عالياً حتى تستلقي على ظهرها . .

* فليفعلوا إن استطاعوا . . سرّه عندي المسكين .

* إنهم أهله . . وقد خيروه بينك وبينهم ، ليس بالكلام ولكن أفعالهم تدل على ذلك . .

تحدق بذهول في «فم» جميلة عندما تضحك . . وفي الليل تتسلل إلى القطع البراقة في «سحارية» أم «السبتي» التي تُكلف بمراقبتها والنوم إلى جوارها لعلة خبيثة تمكنت منها . . وتنظر في تلك القطع البرّاقة إلى وجهها وفمها وأسنانها . .

تحدث نفسها :

أنا شابة وأميرة صحراوية مهما دكنت بشرتي . . تفتح فمها وتنظر للداخل . . أسنانها ناصعة مثل أسنان «جميلة» ، لكن لحم أسنانها يحيط به سواد ، ولحم أسنان «جميلة» وردي مبيض . . هي فارعة الطول ممتلئة . . و«جميلة» قصيرة ونحيلة . . هي ذات شعر فاحم يصل حتى منتصف الفخذ ، ولو أمكن لتدرجاته أن تفرد لوصل حتى الركبة ، و«جميلة» ذات شعر أحمر عادي الطول ، لا يخرجها من تلك الحياة الليلية سوى هذيان العجوز المريضة . . التي تركع قربها . تدعك قدميها ، وتغسل رأسها كل صباح بالماء والسدر ، وتطعمها بيدها ، وتحملها على

ظهرها إذا طلبت الخروج إلى الساحة ، أو الجلوس فوق الجناح الذي يطل على «سفول» الحيوانات والعبيد . . واستطاعت «فضة» أن تستأنس العجوز . . كما استأنست «جميلة» . . وراقها أن تلازمها ليتسنى لها إحكام العقدة حول كاهل «عبود» ، وقد أخفقت في ستر نفسها ، فلامت العجوز «السبتي» على إبقاء مثل هذه القينه الغاوية في الدار ، وأمرته ببيعها لأطرف كلب يمر بالجادة . . «والسبتي» يعزو مثل ذلك التغيير من والدته على القينة الدؤوب إلى مرضها الخيف ، فهي مصابة «بنفس» شهيرة تكدر عليها صفو الحياة .

و«فضة» كذّبت بالنفس . . وصدّقت ما تشيعه النساء بسرية تامة في مجالسهن من أن السبب أنها باعت إحدى سريرات البيت ليماني قذر . . يشتري الجلود بعد دبغها ، لا قيمة له لمجرد أن تلك القينة كانت فارعة في جمالها وتغار منها ، فباعتها بخمسة جلود فرشتها تحت النوافذ لتقي الفرش من المطر ، وقد استنكر الناس فعلها وساءهم ، لأن السريرة رضعت مع السبتي من ثدي واحد من أمها حولاً كاملاً ، وقد صاح بها كل أهل دارها حتى شقيقها .

* كيف تبيعين من هي في حكم ابنتك ؟ .

لم تأبه ولم ترتدع ، فنزل بها داء مقيت لم يعرف له دواء . . كانت الأمة فضة . . رغم ذلك تقوم بعملها الليلي مضافاً له عمل النهار . . من طبخ وحلب ، وهي تجر بين قدميها تلك السلسلة ، وتخفي شعرها الذي نما بسرعة بين ثيابها خشية أن يجزه لها «السبتي» مرة أخرى ، وروعها ما أخذ يتردد في البيت سرّاً من أن «السبتي» ينوي الرحيل من أرض الحجاز . . بعد أن أكثر من أسفاره وبات يغيب لأشهر طوال ، ثم يعود حاملاً معه أخباراً وقصصاً عن أرض سهلة منبسطة خيراتها ، وأمطارها لا تجف . ولا تكف . . وكان كلما أمعن في سرد خيرات تلك البلد في أرض الجنوب . . أمر العبيد فأنزلوا حمولات ليست ضخمة من الحبوب والتمر حتى يثبت للجميع أن هذه الديار القاحلة لم تعد صالحة للعيش حتى يهرِّب «جميلة» من وجه قبيلته التي أصبحت تتحرش به . باع أكثر عبيده . . ومواشيه ، واستبقى الأصلح ومن بينهم «فضة» التي لجأت إلى «جميلة»

تستعطفها بعد أن سحبها «السبتي» حتى منتصف الساحة ليعرضها على تاجر «نجدي» ، فتدخلت «جميلة» بعد أن أكلت «فضة» ذراعها وأصابعها بالعصر والصراخ مما حدا بالنجدي إلى صفعها .

* كفي أيتها النمرة عن أكل أطرافك . .

هبطوا جميعاً بعد سبعة أيام إلى أرض كثيرة النخل . وقطنوا قرية تشرف على الوادي . . خالية إلا من أصوات الريح والهوام .

فامتلأت بعد سنوات . . بالإنس . . والنساء والصغار . . الذين تتولى «فضة» تربيتهم . .

تلك الأمة التي استطاعت أن تغوي خاطفها ، وتستدرجه بثرثرتها التي لم يألفها رجال تلك القرى . . وضحكاتها البهيجة وسط اللغط والدأب اللذين لا يهدآن إلى مخدعها كل ليلة في سقيفة المؤن . التي تشبه المسراب . . نظراً لطولها الذي يتجاوز الثلاثة عشر متراً بعرض ثلاثة أمتار . . بسقف عال يشبه سقف مغارة تتدلى من علوه الشاهق القطاف الجلدية وأكياس التمر ، وتتكئ على أركانها المؤن المكدسة ، وتنام بصحبتها القطط والفئران والعناكب والعرسات التي تنزلق من شقوق النوافذ في ذهاب وإياب لا يهدآن وهي ككائن يملك روح الآدمي وحواس الحيوان يحق لها أن تنام في كيس خاص بها حاكته بحجم هائل ، وكأنما هي على ثقة بأن هناك من سيشاركها النوم بداخله .

واستطاعت في وقت ليس بالقصير أن تشدد من قبضها على عنق «عبود» الرجل الذي توشح عارضاه ببضع شعرات بيضاء فتنت بنات عمومته عندما يعرض لإحداهن في طريق ، أو على جادة السبيل ، أو قرب «العسو» ، فيلوح لها بعصاه بيد ، وباليد الأخرى يبرم شاربه العريض المنثني للأسفل على فك عريض ، وبشرة قمحية جلا لونها ومال للصفار بعد أن هجر الصحراء وعافت نفسه أسر الصبايا والغلمان والصيد في الليالي الحارة . . وهو مؤتزر بحزام من الجلد محشو بالرصاص .

وقد قيل بعد أن أصابته الرجفة في مفاصله قبل موته إنها عين حاسد شلّت

أطرافه ، وهتكت أصابعه من أن تضغط على زناد البندقية ليصيد طيور الحجل . . أسراباً . .

وكان إذا ما عاد من صيد أو سهر - حسب قولها - كنت أنتظره وأقلب صفيحة . . للجلوس عليها ، أو أقف على كوم حطب أنتظر خطواته ، فأسكب المسك الذي أسرق منه قطرات من غرفة «جميلة» على رأسي ، وأرقد على بطني كأنما أنا نائمة فأشعر به يقترب ويركلني بقدمه :

* قومي إلى الداخل ؟ .

فأنهض ثم أسقط ، فيضطر إلى مساعدتي ، وأتظاهر بأن هناك عملاً لم أتمه عليّ إتمامه فيدفعني إلى الداخل .

* غداً أكمليه .

وقبل أن أغادر أسأله :

* هل تريد طعاماً أو ماءً . . ؟ .

يطردني كثيراً ونادراً ما يأمرني بإحضار «طوالية قطن» ومخدة أفردها له على ظهر البركة المسقوفة في الحوش الخارجي ، وقد تكرر مني ذلك الفعل وتلك الحيل ليالي طوالاً . . وضمدت له في ليلة جرحاً في قدمه وسألته عن ديار أهلي . فما أجابني . . وسألني كعادته من أهل الدار . . فقد كان لا يكاد يرى أحدهم إلا نادراً .

ليلتها أخرج من خُرج كبير على ظهر دابته صيداً مشوياً وبصوت خافت قال :

* كلي . . أنت بالتأكيد جائعة . . فأنا أدرى الناس ببُخل جميلة .

لم نلحظ خروج «السبتي» الذي وجدني أقف معه فنهرني وجرني بكمي . .

* إلى الداخل . .

* وخاطبه «عبود» على استحياء . .

* لا تكن سيئ النية . .

قاطعه «السبتي» بلهجة تهديد :

* كن رجلاً فالبكارة لا تعود مرة أخرى .

ضحك عبود وقال بصوت ثقيل . .

* مع بعض النساء تبقى . . وتتجدد . .

انطويت في فراشي مستبشرة فقد آن الأوان ولم أنتظر طويلاً .

وليلة أن أطحت به وشعرت به يحوم حولي وأنا داخل الكيس ، وقفت وحللت الرباط وتركت الكيس ينخلع من الأعلى حتى تطوّى تحت قدمي . . لاح على جسدي العاري بريق ما عهدته . . التمع تحت ضوء القمر المتسلل من النافذة العريضة ، واستدرت ثم تصلبت وانثنيت وسحبت ببطء فم الكيس المفتوح حتى منتصف ساقيّ ، فأجفلت عندما أطاح به ، ودخل والتصق بطولي الذي يضاهيه . . ضمني بيد قوية ، وبأصابع قدميه سحب فم الكيس وربطه إلى الداخل وسادة . . أرحنا عليها رأسينا طوال الليل حتى أذان الفجر في ذلك السرداب المظلم الذي تحول مع الأيام إلى «سيّار» مفتوح من الجهتين . . كشارع مسقوف يصل بين المنزلين القديم الذي رمم أثناء الحرب والجديد . .

تلك الليالي حولت مع «عبود» «السيار» إلى جسد عظيم ، يهتز ويتمايل وتنخلع جنباته وتتحلل حيواناته . . وتهمهم ديدانه على حركة أجنة في رحم أسود تقلب نبض المكان واستكانته وغربته إلى ضحكات مذعورة ، عندما تقف الأجنة المتلاصقة بنبضات متضادة عندما تتم السباحة بشكل عكسي وعندما تستيقظ المعروقة مع شمس النهار .

أخرج . . وألقي بنفسي في البركة الكبيرة تحت «ماسورة» الماء الضخمة فيلمع جلدي على ضوء النهار ، وأضرب الماء بيد ، وبيدي الأخرى أشدّ على الحزم . .

* سيعود الليلة . .

أشرق بالماء . . ثم أنفض جسدي فوق الحشائش ، وأسنّ أضراسي عندما أراه يهبط «المنحدر» ليراقبني بعد أن يغتسل على طرف الوادي وهو يشد وسطه «بكمر» من الجلد محشو بالرصاص ليخرج إلى البراري والجبال ليعود ليلاً . .

كنت أتعمد أن أغسل ثيابي وأنشرها على «الزربة» المواجهة للمسجد . . محتملة صفعات «السبتي» على وجهي ، ومستعذبة ركلات «عبود» على جنبي

ورأسي وسط الكيس الأسود في الليالي الباردة . . أبكي مستعطفة :

* ليس الآن أرجوك . .

ولا يلبث أن يغادر حتى يعود ويلكزني بعصاه ، فأصرخ بصوت حاد . .

* ليس الآن . . أنا متعبة . .

أحشر نفسي بين أكياس الدقيق والتمر بكيسي وسط قدور النحاس الضخمة ذات القاع العريض والعلو الضيق .

يعجبني ذلك العبث فإذا ما نمت معه . . أهرب لأدفن نفسي بكيسه تحت أكياس الدقيق الحارة . .

الحرارة العالية . . معادل للشفاء . . فأنا أطرده إذا شعرت ببوادر الحمل ، وأظل أكثف من أساليب تعذيبه وأحمي على صلو جهنم أظافري ، وأحد على أطراف الحديد أسناني حتى ولدت . وضج البيت بصراخ طفل ملون خطف من بين يدي إلى حيث لا أعلم .

أثناء فترة الحمل سُجنت في السرداب المظلم مع أكياس «البن» اليماني أنقيه من الشوائب وأفصل القشر عن «البن» وفي المساء أخرج إلى الأحواش والسراديب ، وأكلف بمراقبة الأغنام المريضة . . وجمع الزبد . .

وكنت مع ذلك أجيد الاختفاء من وجه «عبود» الذي نبذه «السبتي» بعد أن أجبره على الزواج من إحدى بنات عمومته فرفض . . فاضطر الآخر إلى طرده بعد أن أعطاه كامل حقوقه .

أتذكر أنه حضر ولادتي . . في ليلة شتاء باردة تحت نخلة . . قال :

* أنت تئنين وتتألمين . . آه يا شقية سيبيعك «السبتي» .

* صرخت به .

* لا أنا أم ولد وسأنال حريتي . .

* صعدت المنحدر . . صوب الأعلى . . كفراشة ضاحكة مستبشرة بفرج . . وضعت جنيني تحت قدمي «جميلة» . . التي قالت . .

* دعيه هنا واخرجي . . انقلب جوفي . .

* دعيه في حضني . . وغداً لك ما تشائين . . ولن أعصي لكم أمراً . كان ذلك ليلة خميس . . وفي صبيحة سبت أغبر عُرضت للبيع ، وخضعت لجسّ المشتري وهو يتلمس الفخذين والقدمين والعضد . . ويتمتم :

* هين . . إنها عظيمة الحوض واسعة الجبين . .

ينثني ثم يرتفع وهو يستنشق ويتنفس بصدر حرج ، فيرتاع للدماء التي خرجت . . من الأعلى حتى الكعبين . . لتأخذ «السبتي» رعدة هائلة . . جعلته يدفعني من الخلف لأقع حتى أسف التراب ، ويجرني من طرحتي . . ليعيدني إلى المنزل محمولة على أكتاف العبيد . . لأرحل بصحبة أخت «السبتي» إلى أرض الحجاز كي يبيعني . لحق بي «عبود» . .

ليرحل الخبر إلى الجنوب . . بعد أشهر . . زافاً خبر . . حملي للمرة الثانية من «عبود» .

وكانت «بركة» .

٢٥

«علامة» رجل يجيد لعب الأدوار المتعددة ، ولا يتردد في أن يجازف بعبور الطريق التي يرى أنها تناسبه .

أي طريق وإن كان مغشى بالضباب والثلج معلقاً في الزرقة . في لمعة كأس الماء . . كأس النبيذ . . ومنقوعاً في رطوبة الطقس . . ومعلوماً لديه نهاياته المحتملة في أزقة مهجورة . . ومعلوماً أيضاً أن وصوله سيكون في غبش الصبح الصامت أو وقت أفول النجم النبيل في عينيه الظامئتين لا يلتفت حين يسير . . لا شيء محدداً في دمه . . لا كلام مسبقاً قد رتبه تحسباً لطارئ قد يجعله يغير مساره .

سمعته من وراء حجاب يغوص تحت الموج الهادر في أنفاسه .

* أُريدك . .

* دعينا نلتقي .

* أنا أحمل عقدة حب قديم . . وأحمل حرمة امرأة معلقة . . الأشياء ضدي . . وأنا ضد نفسي . . لأنني لا أحبذ المهاترات الهاتفية .

* * انتظري . أنا لست مع أحاديث الهاتف ولست ضدها . . كذلك المكالمات . . . لست معها وفي نفس الوقت لست ضدها . . فهي في رأيي لا يجب أن تكون هدفاً بذاتها ، فإما أن يكون الاتصال لغرض محدد أو لا يكون فهذا فيه الكثير من الابتذال .

* هكذا يقول كل الناس .

* هذه هي المشكلة فكل الناس يقولون نفس الكلام ، ولكن في النهاية من الذي يقولها ويعنيها ومن الذي يقولها مجرد تشدق . . فالمسألة كما ذكرت سابقاً . . على المرء ألا يخطط لشيء ما أو لأمر ما . . أنا أريد ولا أريد . .

علينا أن نعي ونفهم أن الأمور إذا لم تؤد إلى الأشياء بشكل طبيعي . . إذاً لا طعم لها ولا رائحة في كثير من الأشياء . . ومنها الحب ، لأن المسألة تتعلق بأمرين : .

أولها ، العقل . . وثانيهما الغريزة .

والمدخل لكليهما . . المشاعر والأحاسيس ، وإذا نحن استطعنا أن نقول إن كل الأمور يجب ألا تمر من العقل ، وألا تمر من الغريزة ، إذ لا بد أن تمر أولاً من المشاعر والأحاسيس ، فالغريزة إذا لم تمر عبر إحساس ناضج مكتمل مجرد من كل عوامل التعرية ، وملغي تماماً تردد النظرة إلى الوراء . . وأعطتها هذا الدفء تحولت إلى مسالة إشباع بارد ، وفي نفس الوقت إذا حسبت بالعقل كما فعل «تشارلز وديانا» فقد كانا يحسبان هذا الأمر بالعقل من أجل أن يخططا ويتفقا على موعد ومعرفة وقت الخصوبة من أجل أن ينجبا ولياً للعهد ، وكل ذلك يحتاج إلى أطباء . . مهمتهم الأولى معرفة درجة حرارة كل من الاثنين ووقت الخصوبة . . وعليكم أن تفعلوا هذا الأمر في نفس هذا الوقت أو ذاك ، هذه المسألة جعلت منهما كائنين يكرهان بعضهما .

. . كنت أسمعه ولا أسمعه . . أقتنع ولا أقتنع . . وكان قلبي حين يحدثني عن الحب بالوناً منفوخاً بالصدأ الذي ألفته ، وأخشى عليه من انهمار حنجرة «علامة» بمائها المقدس من الماء الدافئ أن ينسكب . . فيغسل فأنظف . . فأعشق مرة ثانية . . فأذبح حاصرته بالسؤال تلو السؤال :

* هل متعتك الكاملة ليست إظهار مهارة رجل يجيد التعامل مع جسد الأنثى ليصل إلى كل شيء ، ولا يهمه من أمر أنثاه أكانت في حالة جنون . . أم لا . . رضا أو لا . .

* إطلاقاً . .

* انتظر ولا تخطئ ، فأنا لا أُريد لك الخطأ . دعني أفترض فرضاً أننا سنلتقي بعد قليل في مكان ما . . وسأنتظرك وأتهيأ لاستقبالك ، عندها سيكون نصف الإحساس قد هرب مع الموقف ، وربعه ذهب توجساً من رهبة الموقف ، ولم يتبق من كل هذا الإحساس إلا الربع فقط هو إحساس المغامرة والتشوق والتساؤل . . من يكون ؟ . . ومن هذا الإنسان وما شكله ؟ . .

تدخل وتجلس بقربي ، وتبدأ في تلاوة النكت السخيفة والثقيلة كالعادة . . والتي لا تناسب الموقف . . وأتمناك ألا تكون ذلك الرجل المتحرج الذي يلطف الجو . . بالنكت . . فأنت . . بحجم الدنيا . . آدم الكون . . صمتك خلق . . وحديثك نجاة .

تمسك يدي وتطلقها . . تستمتع بأشيائي البسيطة .

* فهل ستنتظر من هذه التي أمامك مبادرة . . ما .

* لا . . فأنا لست حماراً .

* هل ستنام على ظهرك وتقول تعالي ؟ .

* أبداً . . فأنا لست ميتاً .

* هل تقوم من فورك قائلاً دقيقة سأخلع ثيابي وآتي إليك .

* لا . . لا .

* قل الصدق . .

* أقسم . . لا . . فأنا لست حيواناً .

* هل ستستأذنها في جزء معين من جسدها .

* مستحيل . . لكن في نفس الوقت الاستئذان ما هو ؟ هو أن لا يقوم الإنسان بعمل يكرهه الآخر وهذا لا يقال بل من المفروض أن يحسّ .

* إذاً لو أتيت إليك . . فأنت تعرفني بنسبة ٧٠٪ . ولكن ربما ليست لديك فكرة محددة .

أبركان هي . . زلزال . . أم نار . . جبل من الثلج ظل أحتمي به . . أتحبني . .

أتعشقني . . أي إحساس تحمله ، وهل أنا على قدر كاف من الفطنة لأميز . . فأنت كائن لديه خبراته/ تجاربه ثقافته ومعرفته بكيفية التعامل مع جسد ، وبكيفية التعامل مع روح ، وتعلم أن بيننا شيئاً من الود . . وقد غنمت روحاً . . والروح امتلأت . . ألست القائل إذا كنت ممتلئاً املأ . . فكيف ستملأ هذا الجسد ؟ كيف تعطيه إذا كنت لا تملك التجربة الكافية ؟ وهذا الكلام أعني به نفسي . كيف ستغذيه بما يريد ؟ وأنت لا ثقافة لديك مسبقة عن الحب ، عن الحياة والتعامل الأمثل . . بينما الآخر والذي هو أنت - طاف العالم . . حلق في فضاء العمر المديد . يملك رؤية واضحة وثقافة بحجم الدنيا . . كيف به أن يتقبل من أمامه أشياءه الصغيرة التي يرى أنها كبيرة بينما هي في رؤية الآخر بسيطة ولا تقنع ولا تكاد تُذكر . . بمعنى أن لديك خبرة واضحة في التعامل مع أنثى بحوزتك . . بينما الأنثى لا تُجيد سوى القبلة . . فأنا لا شيء لدي إلا ما تعلمته من أهلي من أمي من الحياة البسيطة . . وقد حاولت أن أقرأ حول هذا الأمر الكثير ولم يقنعني . . فهل ستقبل ممن أمامك هذا القليل الذي يغمره إحساس بالقدسية التي تعبئ الصدر بما لا يحتمل . . هل تراه أخطأ وقدم إليك الذي لا يقنعك ولا يفجرك وربما ستقول في نفسك متأففاً . . ما هذا ؟ .

تماماً كما قالت «فضة» يوماً لي (أرجوك غلفي تلك الروح الهائمة فوق البحار السبعة بورق السولوفان إنها بضاعة مرفوضة أيتها البقرة) .

«علامة» صمته . . تنفسه الثقيل . . لزوجة صوته العسلي حين يتركني أهذي بما لا أعيه أحياناً . . «ديكتاتور» يطوقني ببطء من جميع اتجاهاتي ، يوجهني إجباراً وبإرادتي نحو قبلَته ، وأركع بتبتل حين يقول :

* أتصور أنني فهمتك وأتصور أن الثقافة والوعي بالأشياء لا تأتيان من الكتب فالثقافة ليست إحساساً ، وإنما هي تناغم كيانين ، وإذا لم يكن هناك هذا التناغم فلن يكون هناك استمتاع ، لأن مشكلة كثير من العلاقات التي تتم بين الكثيرين هي نقصان هذا التناغم . بل إنه لا يوجد ، فالتناغم ليس أوله رسم فقط . . أنا سأفعل وإنما إذا أتى التناغم بطريقة سليمة لحظتها الأمور تؤدي إلى

بعضها . . ووقتها لا توجد هناك حركة صح وحركة غلط ، فحركة صح وحركة غلط تكونان بين أناس يجاملون بعضهم ، ولا يريد أحدهم أن يُغضب الآخر ، فحيثما يوجد هذا التناغم تكون كل الحركات . . كل الأفعال . . كل الكلمات صحيحة . . كل الأشياء صحيحة . . حتى لو حدث ومورست حركة خطأ ، أو قيلت كلمة خطأ أو صدر فعل خطأ ستؤدي إلى ضحكة ومزيد من الحميمية .

لماذا التناغم هذا ؟ لأن الخطأ قد يؤدي أحياناً إلى تناغم . . فهو يثير إحساساً بالاستمتاع يشبه تلك الضحكة التي تحدث أحياناً بين اثنين يُنادي أحدهما الآخر فيفاجأ بالنداء من الآخر في نفس اللحظة . . فينفجران بالضحك .

فليس هناك حركة خطأ . . ولو حدث أن جمّدنا جزءاً من إحساسنا حتى لا يكون هناك فعل خطأ فلن تخرج المسألة عن كونها مجاملات اجتماعية ، والمجاملة الاجتماعية لن تكوّن علاقة حميمة على الإطلاق .

. . . .

علامة يحملني بيدين حانيتين . . يقعدني بين نارين .

حرصي عليه . .

ورغباتي المكبوتة التي يفجرها بهدوء أعصاب . .

. . . .

و«فضة» النهار البعيد . . البعيد . . هل بالفعل أُريدها أن تملي علي وصاياها ، وأن تفسر لي سرّ كراهيتي لكلمة «علاقة» ، وتكشف لي سرّ قدسية الحب من وراء حجاب .

. . رأيتها من فرجة الماضي مشدوهة . . تومئ لي برأسها . .

* لا . . الحجاب أسقطتهُ بين يديكِ يوم اتكأت على كتفك ، وسكبت على رأسي وجسدي مياهاً دافئة منتصف ليلٍ بعيد ، وذوّبت في بركة صغيرة من المياه الملح «والمر» حوى جسدي المريض ثلاثة أرباع الساعة .

الحجاب المقدس الذي أوصت به إلينا «بركة» حجاب اللا خيار بمعنى أن ما لا بد منه حادث وأنك مضطر إلى الخضوع والقبول ليس إجباراً ولكن من منظور

التكوين الإلهي كرجم عمود من الإسمنت بسبع من الحجارة الصغيرة، أو بحكم العادة والعرف اللذين اعتليا عرش السلطة على لسان «بركة».

* ابن عمي.. وعيب.. أن أشي به لقاضٍ أو حتى لولي..

* ولكنك «يا عمة» بلغت الخامسة والخمسين وما زلت بكراً.

* وطلقتْ بكراً..

* قالها «جبر» وهو يغسل لحيته البيضاء من آثار الحناء.. متودداً بحنان إلى «فضة» التي أبلغته بحملها ومتقصية لسرّ عمتها التي نذرت بالصوم لله ثلاثة أشهر متصلة.

* قال: «بركة» امرأة ما ملّت الصوم منذ موت «أم فضة» وموت أخيها «يوسف» الذي فُقد في حج «جهيمان».

* قبل ذلك العام كانت امرأة يافعة ليس من السهل تقدير عمرها.. سوداء وهزيلة، وغارقة في حزنها الذي امتد لأكثر من شهرين كاملين على أولئك الذين ماتوا، وعلى زوجة أخيها التي نهبها السيل، ولتترك خلفها طفلة بائسة قدر لها أن ترضع كل يوم من امرأة، وأن تنام بعد زفاف «بركة» مع المرضعة التي تكفلت بإرضاعها، وقد زفها «السبتي» إلى نفسه بعد مرور ثلاثة أشهر على الكارثة.. غير عابئ بحزنها وخسارته لربع مزرعته وثلاثة من عماله، حينما جلس إلى أهل بيته وعلى رأسهم «جميلة».

* اسمعوا: قال ذلك مهدداً بإصبعه المنزوعة الظفر: «بركة» ابنتنا ومن صلب ظهورنا، ولن تخرج من الدار، وهي عاري، ثم إن لونها لن يهيئ لها رجلاً ينسى أنها ابنة أمة سوداء حتى وإن كان والدها «عبود السبتي»، وهذا القول استعاره «يوسف» شقيق «بركة» الذي دخل عليه مجلسه بعد خروج جماعة من المزارعين إلى حيث ينفقون بضائعهم في الأسواق الصغيرة في الجهة الأخرى من الوادي قرب مسجد العيد، كان في جلسته هادئاً صلب الملامح يكتب بخط ركيك قيمة الحبوب التي ابتاعها من المزارعين، وقد عقد العزم كما لَمح لأعيان البلدة على رغبته في قلب الأرض وإعادة زراعتها.. رغم احتمال هطول المطر مرة ثانية

واجتياح السيول ، وأصرّ رغم معارضة البعض على حرث الأرض وقلبها . . حتى إنه قاد «الجرار» بنفسه لكنه قبل أن يبدأ صاح بعماله ونساء البلدة والجيران . . بأن يهبطوا إلى الحقول الغارقة في الماء والوحل لجمع رؤوس الذرة المدفونة . . والأخشاب وكل ما هو صالح ونافع . . واتفق أهل القرى بعد أن بعث أهل كل قرية مندوباً عنها تشاوروا فيما بينهم ، واستطاعوا التوصل إلى أن يحتفظ أهل كل قرية بما استحصلوا عليه ، بعدها تتم مقايضة بينهم لتساوي الحصص إضافة إلى الجلود المدبوغة والفائضة عن حاجة أهل البلدة التي أدخلها «السبتي» ضمن ما يستحصل من الوادي بعد جفاف السيل ، وقد احتاج أهل القرى إلى الجلود لحفظ الذرة ونشرها عليها لأكثر من أربعة أشهر كانت الغذاء الرئيسي مع التمر بعد نفاد المؤن . .

وتم من قبل أربعة رجال قص الأماكن الأكثر صلابة ، رصف بجانبها حفر عميقة لتتسرب المياه الراكدة إليها ، حتى يتم البحث عن الثمار الغارقة في الوحل . . لأنه في عام السيل ذاك . . اعتمد المزارعون على ما تنتجه النخيل ، وعلى المزروعات البسيطة من ذرة وطماطم وبطيخ في الأجزاء الصالحة التي تم تنظيفها من الحجارة والأخشاب والأشجار الميتة والنتوءات الصلبة من الطين التي تكوّمت بعد السيل ، حيث تم العثور على ثلاث جثث في المزارع المتاخمة للوادي أثناء الحرث .

«والسبتي» حينما عمد إلى قيادة «الجرار» كان كل همه ألا يعتدي العمال أو أحد الرجال على جثة مغمورة في الطين أثناء حرث الأرض . . وقد استمر في حراثة جزء من أرضه لأكثر من تسعة أيام . . وكان محقاً إذ عثر على جثة طفل لم يستطع أحد من البلدة والقرى المجاورة التعرف عليه ، وتم دفنه سريعاً خوفاً من انتشار العفونة وحمى السيل المهلكة ، بالمقابل . . أخرج كل منزل ما بحوزته من حبوب .

وعُقدت ليلة الجمعة التي تلت أيام الحرث للمقايضة ، وعلى كل مزارع أن

يحصل على صاع من خمسة أنواع من الحبوب المتوفرة في المنطقة ، وقد فرز بعض الرجال ومنهم «السبتي» ما يملأ الكف من كل نوع ، وسلموه لنسائهم ليزرعنها في أحواض قريبة من المنازل للاستهلاك المنزلي . . وقد عرض على «يوسف» الواقف على رأسه الأسعار وهو يشد عضلات وجهه هذا العام عام الرحمة . .

وإني والله أخشى الحمى كما أخشى الفقر . .

ضيق «يوسف» عينيه الواسعتين ، ومسح جبينه من عرق غزير ، قلب سحنته وقال :

* لا أظن . . لا أظن . . لقد جُبت البلدة والقرى المجاورة ، وتبين أن لا حمى مهلكة ، وغداً مع بعض الرجال سأخرج لطمر المستنقعات التي تحيط بالمنازل . . لكن المستنقع الذي يجاور المقابر واسع وذو رائحة قوية . . ويحتاج إلى جهد ودفعات من الرمل والحصى .

قاطعه «السبتي» ولوحّ بإصبعه . .

* هل جهزتِ أختك بما تحتاج ؟ .

* كما تحب . . ولكن . .

* ماذا ؟ .

* أم أولادك غاضبة . .

ضحك «السبتي» من أنفه وقال : أقسم برأس أمي سأنام مع «جميلة» هذه الليلة وسترى . . ثم لا تشغل نفسك بأمور النساء . .

* «بركة» عارك وشعر لحيتك . . وما يوجعها أظنه يوجعك . .

* يا رجل ما هذا الجزع .

٢٦

«فضة»

أخشى أن أُسقط الحجاب المقدس . . فأموت .

دون أن يشعر بي «علامة» فقد قتلك «يا فضة» هجوم ضوء النهار على ظلمة الليل . . الاحتدام الحقيقي . . يوم اغتصبت «حمود» وسرقتِ منه نطفة صغيرة غرزتها في رحمك الصغير وهربت إلى سريري بجسد يرتجف . .

كنتُ لا أدري ما الذي يحدث ، ولا علم لي بالقصة القديمة ، ولا علم لي بأنوثة «بركة» التي «رُهِنَتْ» لأكثر من عشرين عاماً والتي كشفت أمرها وصايا «السبتي» «لحمود» .

* ستتزوج «فضة» وأنت حذاء . .

* لكني أحب زوجتي . .

* ستتزوجها . .

وكانت «بركة» تردد في خفوت :

* أين قميص الليلة الأولى يا «فضة» ؟ وأين آثار الرجل على جسدك يا فتاة ؟ . .

* لا إجابة . .

وفي الحوض الدافئ المغمور بالماء الدافئ والملح و«المرّ» الذي برّدت به جراحك

ليلة أن نقرت بأصابعك على نافذتي . . واندفعت بدمائك صائحة . .

* لقد سرقته . . سرقت «حمود» الكلب ، أنا لست «بركة» التي هيأت نفسها لتكون حمارة في النهار ، وكلب حراسة في الليل . .

عام ونصف وأنا أراقبه يتسلل آخر الليل إلى مخدع «عذبة» ، ويعود مع مطلع النهار وهو يلف جسده «بفوطة» ، فإذا ما أُشرعت الأبواب تفتح ، وسُمعت أصوات الكوالين ، وصرّ الأبواب الخشبية . . ونقيق الدجاج ، وقوائم البهائم تضرب الأرض على مزمار «جبر» التي تصاحبها فرقعة حذائه المبطن . . أنهضُ لأجده يمسح جسده عند باب الحمام . .

أقف في مواجهته . . وأدعك عيني المتعبتين . . وأفتحهما عن آخرهما حين يمد يده ويقرص خدي قائلاً :

* صباح الخير يا حلوتي . .

حادثة كل يوم وليلة . . لكن في ذلك الصباح الذي أعقب ليلة المعرفة الأولى . . عندما صرخت تحت وطأة التعذيب المباغت ، واستعدت بصورة مشوهة وجه عمتي «بركة» ، وطرف لسانها الأسود وهي تبلع ريقها وتنفخ في صدري نار الثأر . . تركت جسدي يرتخي بعد أن تشنج وتصلب من رعب المفاجأة . . فرقعة عنيفة واهتزاز متواصل لزجاج النافذة الغربية لاح لي وأنا تحت ثقل لم أعهده .

شعرت بجسد «حمود» ، وأفزعني وميض يصدر من مكان قريب لامرأة صغيرة تشبهني حلمت بها مرات تنتزع «حمود» من فراشي . .

تشنجت وازور وجهي عن وجه «حمود» ، فلاح لي وجه «بركة» والعجوز «فضة» تصرخان بي . .

* اسرقيه قبل أن يسرقك .

اسرقيه إنه ملكك . . دعي «فضة» ثالثة تلد من جديد . . تحولت إلى ألف جسد في جسد ، ورحت أتلوى كأفعى مسمومة بسمها . . تلوّت أكثر واستطالت .

واستطعت أن أطبق عليه على الرغم من ضخامته . . ولمع في ذاكرتي وجه

«السبتـــي» ووجـه «جميلـة» فأحكمـت قبضـتي حوله . فنزت حبات عرق تكوّرت على جـبين «حـمـود» ، تمددت ، وبرزت لهـا أجنحـة ، أقـدام ، وانفلتت صاعـدة باتجاه السقـف . . حيـث تنغرز هناك . . بعضـها يختـفي وبعضـها يهوي على ظهره فتطرفـه لينهض كـثور مطعون . . لكنه يسـقط تحت قـوة جـذب أفعى سوداء التفت حوله .

خلاصة معتقة أنضجتها الليالي الطويلة ، وخبأتها سياط «السبتي» أسفل ظهر «حمود» وسـاقيه ولحمه ودمه . . ينهض حتى يقف ، ثم يهوي ليحضنني بشقاء أحسه في نبرات صوته وهو ينادي بصوت مخنوق . . أجذبه فيصمت من جديد لتبقى أنفاسه المتلاحقة في أمنية عظيمة أن تسمع «بركة» صوته الخاضع . .

. . . ما عـدت أشـعـر به بعـد أن تيـقنت من خـضوعـه التـام لي ، فـسـمحت للجسد المتعب عند انفراج النافذة أن يغرق في حرارة جلد «حمود» اللاهب الذي يهـدهده هواء النخـيل الرائق . . وتركت لأذني أن تتـحـسس أصوات الحشـرات الليلية وخطوات هفهافة كوقع قطرات الندى توحي لي بخطو «ثامر» الذي اقتحم المعـمعة بضـوضائه التي تشق الصدر تركته يدخل بيني وبين «حمـود» محتلاً مـساحة الظلمة والحلم . . تركت دمه يلتحم بدمي . . قـوياً وبهـيـجاً يحـمل في قدميه صفحات قديمة من حياة بائسة . . يوم تسللت هاربة من وجه «السبتي» الصارم الذي أخشاه كما أخشى فقد الحلم حينما قال لي :

* وقعي هنا .

ثم أردف لو أن والدك حاضر لما احتجنا إلى استشارتك .

لم يخطر ببالي أنني كـبرت ، وأن الوقت حـان لأوقع على وكالة لابن عم أبي بتزويجي بمن يشاء .

رفع الورقة نحوي . . ونهرني فزادني إصراره جزعاً .

وتأكدت . . بأنني لن أخرج عن الطريق الذي سارت عليه عمتي «بركة» .

في تلك الليلة القاتمة لاحظت أنني محاصرة بأعين النساء ، ورأيت عروق يدي عمتي «بركة» نافرة كعادتها وهي تدعك قدور الطبخ الضخمة بالسلك والتراب ،

وتدلق ماءها العكر في حوض المذبح حتى إذا أتمت كل شيء رفعت «شيلتها» عن رأسها ، وغسلتها في حوض الغسيل ، ونفضتها وأعادت لفها حول رأسها ورقبتها ، ورفعت ذيلها وأحاطت به فمها وأرنبة أنفها . .

اقتربت منها وسألتها عن معنى تلك الورقة التي أحضرها «السبتي» لي من وسط جمع من الفتيات في آخر المزرعة عند الغروب . . وهل الأمر بات قريباً ، أم أنه الاحتياط للمستقبل .

كانت عمتي «بركة» في أثناء حديثها تمضغ الكلمات ، وتدور حول المذبح ، وتمسح بيديها على ظهري . . فأبتعد . . لأصطدم للمرة الثانية بالكلب «نبهان» الرابض قرب التنور الثالث عند مدخل البيت . . عمدت إلى الجلوس على صفيحة مقلوبة في المذبح بعد أن ساعدت «بركة» في حمل جردل الرماد المكنوس لندلقه في الدغل القريب الذي يبعد عن المذبح نحو تسعة عشر متراً يسار الباب الخشبي الكبير الذي صُنع وركب من الخشب العادي الجارح على يد «جبر» الذي لمح في وجه «السبتي» عدم الرضى .

* يا رجل هذا خشب جارح سيجرح أيادي الأطفال . .

* لا . . لا . . يا بو «حمود» . . فإذا ما تزاحمت المواشي وهي خارجة من الباب سيعلق بشعرها نشار الخشب ، وستصبح مواشيك موسومة دون تعب الكي أو القص .

أُضيء المنزل ، وانسل النهار وغاب لتغيب معه طفولة غريبة وأمان أخفيتها بعناية . . في الجهة اليسرى من الصدر . .

* عمتي . .

* خير . .

* ما معنى هذا كله ؟ .

نفضت «بركة» يديها من ماء قذر كانت تقلب به لحم ثلاثة خراف . . وأدنت وجهها مني ففاحت رائحتها الحارة في وجهي ، فابتعدت إلا أني أصغيت لها . .

* ابنتي (البنت العاقلة تطيع واليوم حولك يدور الكلام . . وعرسك بعد ليالٍ

ثلاث) .

* حديثها المتسارع أعقبته بزغاريد غليظة أطلقتها من حنجرتها الثقلية . . مما زاد في جحوظ عينيها . .

* من هو يا عمة ؟ .

* «حمود» عين جميلة وقلب السبتي .

اصطدم رأسي «بالمنزاع» الحديدي المتدلي من سقف المذبح وتراجعت إلى الخلف . .

هوت نخلة عظيمة بالقرب من موقع «نبهان» ، فتطاير الحمام الراقد على جذوع شجرة الأثل التي تتوسط الحوش الكبير ، وتصايح الدجاج الهاجع على جذوع الكينا . . وفي أكنانه المفتوحة ، وفوق الصناديق التي تكدست فوق سقف المذبح . . ومـاءت القطط التي أخرجت رؤوسها من المنافذ المحفورة في الجدران القديمة لإدخال أنابيب الماء وأعواد الحطب . . ونبحت الكلاب وازورت وهي تلهث تحت الأخشاب المتكدسة قرب المذبح ، وخرّت «بركة» إلى الأرض ساجدة هاتفة :

* الشيطان يركض في وادينا . . هناك نجمة . . هوت اختلطت وتزعزعت الأشجار تحت وطأة العاصفة المطرة . . أطفئت الأضواء ، ونبح «نبهان» بصوت خفيض انطفأ إلى الأبد .

٢٧

بين قريتي الصغيرة والبحر مسافة صمت ملفعة بغطاء أسود كثيف ، هي مجال لحرية أن تبكي دون أن تتعرض للمساءلة . . الرحلات إلى «جدة» ومدن الدنيا إحدى محاسن الحرب ، حدث غير واضح الملامح ، قلب الكيانات الصغيرة المتقوقعة وسط مزارعها وإحباطاتها ومداراتها المحدودة ، خلخلة أدت إلى ما أسماه «السبتي» موضة السفر ونثر النقود .

كان مزارنا الوحيد في الماضي مكة الحرم . . ودون حدوث التراتب الزمني المعهود أصبحنا نسافر في العام أكثر من ثلاث مرات . . وفي مدة لم تتجاوز الأربع سنوات سرت تلك الموضة بين الأهالي في البلدة .

* موضة «شر» حسبنا الله على صدام .

* والرجال رهن النساء . .

ذلك ختام الحوار بين «بركة» و«جبر» .

وكأنما خُلقا لصقاً بالأرض التي يزرعونها . . يجللهما حزن الوداع مع بداية كل إجازة .

* لا تسافري يا «فضة»

* بلى . . يا عمة . . أنا مع زوجي وأهله .

لا أدري لِمَ لم نفكر يوماً بإجبار «بركة» على السفر معنا . . لعلنا لم ننتبه لها

ككائن إلا ليلة موتها عندما جذبتني بقسوة من كم يدي وكأنما تغالب نزعة ألمتها فآلمتني .

* حجي لي . .
* شهقت . .
* عديني . .
* أعدك .

تلك الأحداث البعيدة التقطتها أذن «ثامر» الذي يهاتفني . .

فأرتاع فرحاً واضطراباً وأخبىء أحداث الحزن والموت عنه .

فيما حدجني بشراسة دون أن يسأل عن صوتي المختل وربكة الحديث . .

* كفى . . وقولي لي . . ماذا ترتدين الآن ؟ .

أنقل سماعة الهاتف إلى الأذن الأخرى ، وأسمع صرير الأمس ، وأشم من البعيد رائحة القبر المزيف ، فينتابني غثيان . .

* ثامر . . أرجوك . . اغلق الخط . .

. . .رجع صوت . . سماعة الهاتف تهدئ من روع المعدة المتهيجة التي ترفع ألمها إلى منتصف عظمة الجمجمة . .

أنادي . . «فضة» لم تمت لم تمت . . ربما أنا التي مت . . أجل أنا التي مت . . ترى كم من المرات سأموت ؟ .

تساؤل لم يصل بعد لقلب «علامة» .

* دعي الأشياء تأتِ بتلقائية ، لا تكوني قاسية على نفسك . .
* لا أريد أن أحبك بقوة ، لأنني لو أحببتك بقوة ستكون هناك إشكالية كبرى . .

فأنا أُريد إحساساً يعطي للأشياء حريتها . . فهل بالإمكان أن نعيش معاً بطريقة مغايرة لنظرة العالم ، وبعيدة عن نظرتنا نحن نحو الحب/ الحياة/ الجمال فنحن جزء من العالم . .

وأن نستبعد كلمة علاقة كمسمى لما بيننا مثلما كل العالم يسميها . .

رغم أن ما بيننا حسب الرؤية العامة عادي .

ولكن أُريد للمسائل أن تتم بصورة ثانية ، ورسم آخر وجو مختلف . . تهيئة كاملة وكأنك تموت . . والموت لا رجعة منه . . أتيت إليك . . أو قدمت أنت إليّ الأمر واحد .

الخوف هو خوف ما بعد الموت . . اثنان دخلا تجربة رفع الحاجز العظيم وأسقطا الحُجب . .

ويبقى السؤال . .

* هل سيبقى ما بيني وبينك ؟ . هل ستبقى نفس حرارة الكلمات ولهفة الحديث ؟ بساطته . . الثرثرة الحلوة . . زخم المعلومات من أشياء أحبها . . آخذها من فمك ، وأسجلها ببراءة . . وأنا أستهلك ساعات نومي . . أعصر فكري وذاكرتي لاستجلاب كلماتك . .

وهل سأحتفظ بمكاني في صدرك ؟ .

لو ضمنت أنني سأحيا مع كائن لحظة أتمناها ، وحين نخرج منها . . ينساها تماماً كحدث لكنه يظل يسبح في لذتها وجنونها . . جنون الإحساس بأكمله ولا يزايد ، أو يبحث وينقب في تفاصيل معينة ، لأن ما حدث امتداد للحلم الذي تكوّن في الفراغ عبر الصوت . . وثقوب الهاتف الصغيرة . .

لو ضمنت مثل هذا . . سأدفع عمري ولا أُبالي .

* لا بد أن يكون كذلك ، وإلا صار من ضمن القطيع ضمن الناس كلهم . . لأن البداية بيننا بدأت غير الناس . . ولأن ما وجدته من الإحساس بالأشياء وبالجمال غير ما وجدته عند الآخرين . . لأجل هذا أنت تختلفين .

* «علامة» لا تتعجل بالكلام حتى نضيء شموع المواجهة ، فأنا أشعر أنني على جرف ، وأن أي حركة قد تهوي بي إلى القاع . . وأنني سأموت . .

فليس من السهل أن يقنعني أحد ، أو أن يفهمني أحد ، وكيف بالإمكان إقناع العالم بأنني أحيا بين السماء والأرض . . فقد قالوا إن هناك موتاً وحياة . . وبرزخاً . . وآخرة . . أربع مراحل . . وأنا أُريد مرحلة خامسة هي مرحلة كيف

تعيش روحاً وجسداً ، وتندمج في كائن آخر . . تندمج لدرجة العبادة ، وتنسل من بين يديه . . وأنت تحمل نفس الصورة بنفس العتمة ، وليس هناك تشكل في ذهنك . . سوى أنك تنمو وتكبر ، ولا تحديد لوجه ، ولا لجسد ، ولا لرائحة ، ولا لطعم . . لا شيء . . وحين تستلقي في فراشك . . تغمض عينيك تحلم بتلك اللحظة . . التي كأن لم تكن .

تجاهد أن تستعيد إحساسك بتلك المتعة . . بعنف الحلم . وحين تتحدث إليه تحس بنفس الرغبات . . وعنف الطحن ، وجبروت المعمعة التي تشعر بها وأنت تسمع لزوجة الحنجرة . . وتتمنى لو تضغط بشفتيك ، وتمص كل نقطة ماء في تجاويف الحنجرة ، تدخلها إلى جسدك . .

«علامة» هل تفهمني . . أخشى على ما بداخلي أن يُهدر شيء منه .

فالله حين أراد أن يكون غيباً كان يعلم عقوبة رفع الستار والسقوط . فالحجاب والستر . . سمة أعلى للألوهية . . للعشق الأبدي . . والخوف اللذيذ . . و«فضة» ما كانت تخطط لهذا كله مع «ثامر» لتدفع به إلى التخبط والعبث . . وتجعله يفقد ثلاثة أرباع إنسانيته ليبقى جزء صغير . . الإنسان الأب الذي أصبحه فيما بعد . . مشطوراً يقول لي :

* لا تهاتفيني في المنزل . . . .

* لن يحدث . .

. . .بالكاد استمعت «لفضة» وأنا أغسل جسدها بالماء والملح وزيت الزيتون . .

* «ثامر» جبان فيه الكثير من صفات «ابن آوى» . .

* لا يا «فضة» «ثامر» عظيم وقد أحببتِه يوماً .

* ومن قال هذا ؟ .

* أسوأ ما فيك «يا فضة» أنك تعلمين أنني أعلم بكل شيء ، وتحاولين غسل هذا الدماغ بما لا يقبله المنطق .

* لن أنكر أن العقل والجسد قد يذوبان تحت إلحاح فكرة معينة . . ليست محددة ولكن تبقى هناك الحدود وإشارة التوقف . .

* لا أتذكر أن «ثامر» قبلني يوماً لكنك أنت سمحت بذلك . .

* كيف ؟ .

* أخبرني . .

* حددي . .

* أنت تمارسين لعبة «الاستغماية» معه . . فهداه ذهنه الغبي إلى إثارتك عن طريقي . . إلى تحريكك عن طريقي . .

* لا يحق لك محادثته فأنت متزوجة . .

* هو يريد ذلك . .

* و . . . . . .

ارتجفت وأنا ألف جسدها بفوطة كبيرة وسط زغاريد مكتومة . . من «بركة» التي انحنت عليها . .

* متى كانت آخر دورة شهرية لك ؟ .

* انتهت منذ يومين فقط . . طرحت قناعها . . وفكت ضفيرة شعري ، ورقصنا معاً حتى بزوغ الشمس . .

قالت «بركة» وهي تنهج يا فتاة . .

* دعينا ننه هذا ، فالرقص قبل الفجر نذير شؤم

كنت منتشية بأمور عدة «ثامر» قد تقطعت بينه وبين «فضة» الأسباب ، وها هي امرأة ، وسيتكور بطنها غداً بطفل ينزعه هو من أحشائها . . هو . . أليس الطبيب ؟ .

و«فضة» التي أنكرت «ثامر» لأن رغباتها قد تركزت في هدف واحد جددته وألغت ما عداه . . اغتصاب «حمود» وتكوين عائلة . . و«ثامر» . . من الأمور الملغاة . فهل سيشعر «ثامر» يوماً بأنني امرأة أحبته فوق الاحتمال . . فوق التخيل . . وهل سيعي يوماً . . أنه رجل لا حنجرة له . . تعيد تشكيل عقلي ، ولا خبرة له بأعماق النساء تشدد الحصار على قلبي . . وليست لديه قدرة التمييز بين من يرفعه إلى مراتب أعلى ، وبين من يمارس عليه اللعبة العادية . .

أتذكر أنه قال لي . . يوماً في محادثة هاتفية قصيرة :

* تكلمي قولي شيئاً . . أو دعيني أحدثك أنا . . «يا بنت الناس» لا تصمتي فالله سيسألنا عن عشرة يوم . . فما بالك بسنوات . .

أغلقت الهاتف . .

لا يزال في صوته ذاك المستعمر ، وليست لديه فلسفة «علامة» حول مفهوم ثنائية الجسد والروح حين تغلفهما . . التلقائية المعجونة بالتجربة العميقة والحساسية الربانية التي تنضج على مهل لتنبت شجرة بثمار حمراء وبيضاء على ضفة الكوثر قرب سدرة المنتهى .

. . .«ثامر» أحرق آخر أوراقه حين لفظ كلمة «عشرة» ، هذه الكلمة الحمقاء بعاديتها وسذاجتها كلمة تقال بينه وبين زوجته ، بين أمي وأبي . . بين السبتي و«جميلة» .

. . فلسفة «علامة» تدخلني بهدوء إلى كون بعيد . . يمسّ . . مسّ الليل بالنهار حين جاوبني عن تساؤلي حول مرحلة خامسة لها خلود الموت والحياة/ والبرزخ/ والآخرة ، مرحلة الذوبان روحاً وجسداً مع كائن تندمج معه لدرجة العبادة . . فأنت ضمن ملكوت أبدي ، وليس «عشرة» تُعد بالسنين فقال «علامة» :

أنا مخلوق عادي بازدواجيتي ، بأخطائي ، وذنوبي ، وفضولي ، وركوعي ، وسجودي . . بحثت كثيراً عن إنسانة تكمل فراغاً في صدري ، ووجدتك بعد هذا التخبط والبحث الطويل . .

وبقي السؤال :

كيف بالإمكان تعويض كل سنوات البحث تلك ، وهذا يجعلني لا أفكر كثيراً ما إذا كانت هذه التي وجدتها آخر الأحلام أم . . لا . .

لأن ما أبحث عنه وجدته ، وما عاد يهمني ماذا سيحدث في الدنيا . .

لأن رحلة البحث انتهت ، جاءت مرحلة إجابة السؤال الأعظم . .

* كيف بالإمكان تعويض سنوات البحث التي تاهت . .

* ماذا يفعل هذا «الغلبان» الذي تسمعينه . . لا أدري ولكن عليه أن يستنزف كل الطرق لكي يعوض كل تلك السنوات . .

ولتذهب الدنيا حرقاً . .

من أتى . . ومن ذهب . . ما عادت هي القضية . .

فقضيتي في الخارج انتهت ، وبقيت مسألة ماذا أفعل ؟ فينصرف الجهد لتحقيق ذلك ، ولو نزل من السماء بشر ليسوا كالبشر ، ومن زبد البحر خرجت عرائس الجن . . والبحر والسحر ليسا الهم . . فأنا مشغول بمسألة أخرى ألغت كل الأمور القديمة . .

وهذا الذي أعطى ما بيننا شكلاً مغايراً . .

الفرق الدقيق الذي مفاده . .

أن قضيتي في الخارج انتهت . .

ولكن ماذا في الداخل . . لرجل يقول لك . . إنه بالإمكان نسيان أشياء كثيرة لكنه . . لن ينسى أو يهمل كائناً . . جاهد السنين وهو يبحث عنه . . يتأمل الوجوه ويتفحص الأجساد ، ويرحل مع العقول . . يبحث عن شيء معين . . في كل مكان . . في الأرض . . في السماء . . في السرير . .

فليس من المعقول بعد أن يجده أن . . . .

. . . .

* «علامة» . . . يكفي ! .

٢٨

أدركتُ بعد أن دخلت النساء إلى حجرتي بإناء الحناء والحلوى الجارحة سرّ تطير «بركة» لحظة أن رقصنا ليلة فضّ بكارة «فضة»

* حذار فالرقص فجراً نذير شؤم . . وكانت بوادر الحمل قد بدأت تظهر على «فضة»

وشاع الخبر . .

وشلّني خوف وتوجس ، فقد بدأت تسري في المنزل شائعة قذرة ما عدت أستطيع حتى أن أنتزع صرخة من صدري ، وتضاعفت الدهشة على وجه «السبتي» الذي تزوج منذ فترة ليست بالقصيرة . . «زينة بنت الرعيان» .

* ما الخطب ؟ .

* العروس مريضة . .

* لو كانت جنازة ستزف «لحمود» الأربعاء القادم . . ركعت تحت قدمي «فضة» . .

* هل أقتل نفسي . .

* لم تجبني . .

تركتني أبلع الهواء ،

وفرت إلى المزارع

لم تكن تبكي ولم تتكلم ، آذتني «بركة» وبصقت في وجه زوجة أبي . .

* أي عار ترتكبون . . تزوجون بنات العم لرجل واحد .

. . . .

في الليل تنهشني الحمى ، وفي الصباح يأكلني الجوع ، وعند الغروب يلتهمني الصمت . . .

. . . .

مُنعت بأمر من والدي من التجول في المزارع ، ففقدت رائحة الياسمين في طيات ثيابي . . رائحة الياسمين التي تهدي لقلبي رائحة «ثامر» .

هجرت «فضة» المكان ، وأحاطت بي «جميلة» وبناتها ، وطوّقت زوجة أبى حولي الحراسة . . وعندما يأتي المساء وتهجع العيون ، أفتح شطر النافذة وأنادي . .

* «فضة» يا . . .

لا أحد .

لم يستنكر أحد زواج «حمود» الثالث . . ولم يكن هناك لغط كما كان يوم دخل «بفضة» . .

«حمود» يتزوج «بفضة» . .

أمة . . ابنة . . أمة . .

غداً ستلد له فرخاً أسود ، و«جميلة» تلوب بحرقة لا تستنكرن يا نساء على «السبتي» أن يرمي «حمود» هذه الرمية المعيبة ، فقد أدخل بنت الرعيان . . بيته هذه الخبيثة التي يعاشرها «جنيها» مناوبة معه . . أليست التي شيعت البخور ليلة موت «بعلها» في السيل . . تصيح بها «بركة» .

* اتقي الله . . وصوني لسانك . . خشية على بناتك . «زينة» مغلوبة على أمرها ، ومسكونة «بابن الحلال» يدبر أمرها . . ولو لم تطعه لفقأ عينها . .

* إنها تتهيأ له . . كما تتهيأ «للسبتي» . .

* ستتعافى . . بعد الحمل . . شيخ المدينة أكد ذلك ووعد بحرقه . ابن الحرام .

* لقد تولاه الله بالمرض .

* جميلة . . «للسبتي» عليك قدر السنين الماضيات . . دعيه يعش بسلام مع «زينة»

ولي عليك الحق . . ألا تعرضي «فضة» لنساء البلدة كبضاعة مرفوضة ، إنها ابنتكم . .

* لعنة الله عليك . . وعليها وعلى السبتي . . وأقسم برأس «حمود» الكلب . . لأقطع ثدياً رضع منه لو . . حدث ما أخشاه . .

أتذكر أن والدي مسح على رأسي . . صباح اليوم التالي من العرس . .

* «بنات الرجال لا يقلن لا» والتفت إلى «حمود» الذي ضحك وقال :

* أنت ابنة هذا كله . . أنتِ الداخلة وغيرك الخارج . . ثم ضرب بيده على الحائط . .

* أنت جزء من هذا وأنا اخترتكِ من بين بنات الدار . .

مد والدي يده وجذبني . .

* قبلي يد «حمود» .

انحنيت على يده الكبيرة قبّلت ظاهرها فقبّل جبيني هاتفاً :

* العمود الثابت يا عم . .

توكل على الله .

* إنها صغيرة . .

* ستكون في العين . .

* ابنتكم وحلالكم . . .

. . . .

تزاحم حول باب الغرفة نساء البيت ورجاله . . وبرزت «فضة» وخلفها «عذبة» التي هربت إلى بيت والدها منتصف النهار ولم تعد إلا حين علمت بهروبي إلى «أبها» بعد ثلاثة أشهر ونصف من الزواج .

انحنت النساء صوبي . .

ولمحت على وجه «حمود» سراً لم يخف عليّ وهو يصافح «فضة» بصمت مغاير لطريقته وهو يشد على يد «عذبة»

* أنت أم البيت وتاج الرأس . .

* إلى الخارج . .

زعق «السبتي» فانسل الجميع ، كل الوجوه في الحضرة إلا وجه «ثامر» غريب أمر هذا الرجل . .

* ماذا نعني له ؟ .

* لم تركنا نؤخذ من بين يديه وقد غرز في أذهاننا أسطورة اسمها «ثامر» ؟ .

الرجل الذي هجر المدن ولغط الهاتف وادعى أنه بنا ومعنا يتطهر من التلوث ومن إزعاج العالم . . بأخبار الحرب والدم والانقلابات العسكرية . .

الرجل الذي يتخبط وقت السحر في الوحل ، ويصادق الضفادع الهائجة فوق البرك ويقرأ الأشعار لنا عند الغروب ، ويحدثنا عن «جبر» الهارب المستكن وكأنه يمسح بهدوء الماهر عن أعيننا الغشاوة ، ويسن الذاكرة لتستعيد أحداثاً بعيدة .

«وفضة» ما الذي فعلته ؟ .

هل كانت عاشقة أم صاحبة ثأر ؟ .

لا أدري الظهر الذي لملم يتمي . . وانهار . . انهار فوق رأسي . . تناثر شظايا من حسرة شهدتها في عينها التي ترمقني بنظرة «ضرة» ، تتزاحم فوق أسنانها مخالب «كلبة» ، وقطة عجوز سجنت في الزمن الذي يأكل جلدها . . ويشحذ مخالبها .

والهاتف السرّي الذي يصم هديره أذنيّ . . يؤكد للمرة الألف . .

* مكانك هنا حتى الموت . .

. .برقت الذاكرة لتومض على وجل بفلاش خافت . . رأيت وجه أمي ملتحفاً بعيداً هناك خلف البحار جاءني وجهها الضاج شباباً وجمالاً . . يوم ذبل وأحرقه الدمع حين اكتشفت أن صغيرتها مهددة بشلل الأطفال فحصها الأطباء وكحالة طارئة حُملت في طائرة . . ورقدت في أحد المستشفيات الكبيرة بالرياض . . . يحف بها ثلاثة من رجال يملكون نصف ثروة رجال الجنوب .

* الطفلة إن أهملت ستصبح معاقة . .

* ما العمل ؟ .

* السفر إلى خارج البلاد . . أتذكر يومها أنني كنت أسمع نحيب أمي وهي تقاتل في سبيل أن يتم علاجي في «استانبول» فيما أصرّ «السبتي»

* لندن . .

ذلك الغياب لأمي ، وذلك الفقر في رحمها الذابل الذي يُبطل بسهولة بذور اللقاح . . حدا . . بأبي أن يهديها يوم وصولنا بعد عام ونصف . . امرأة جديدة رقدت منذ أول يوم دخلت فيه منزلنا في سرير أمي

* تزوجت ؟ .

* نعم .

برقت عيناها الرماديتان بما لا يُفسر ثم قالت :

* ابنتك في أحسن حال .

* أعرف . .

* فقط العلاج الكثيف من المحتمل أن يؤثر على نبض القلب أثناء النوم فاهتم بها . .

* ما القصد ؟

* سألحق بجدتي . .

* في «استانبول» . .

* ليس لي غيرها . .

* أنت مجنونة . . وبلا مقدمات أنت طالق لو فكرت بالسفر إلى هناك . . ثم من حقي الزواج . أريد أطفالاً يحملون اسمي . .

* لكني سأخرج من هنا . .

* إلى بيتي هناك في البلدة «السبتي» وأهله بانتظارك ، ثم إنه بيتي كما أن هذا البيت بيتي ، وإذا ما ذهب شيطانك فعودي على الرحب والسعة .

* لا بارك الله لك

* اخرسي . . واخرجي . .

في تمام الرابعة والنصف من يوم سبت مطير . . عصفت رياحه بالمنطقة ، وروع «أبها» الوادعة بردٌ أهلك ربع المواشي وجمد مياه الآبار . . وبعد مرور أربع سنوات من القهر قررت أمي أن تخرج إلى القرية التي يقطنها عمي «السبتي» وأبناؤه على بعد ساعتين ونصف ، حيث دار أبي الأخرى ومزارعه ونصف ثروته . . .

أذكر أنه ضربها قبل سفرنا بيومين في منتصف الليل سمعت صراخها . .

وسمعت الركض العنيف عبر الصالة الخارجية ، وأتذكر بوعي شديد أن زوجة أبي ضغطت على وجهي بمخدة ، فلما شعرت بالاختناق انكفأت على وجهي . . وذلك الفعل منها اعتبرته بطولة عليّ أن لا أنساه لها ، وأن أضع في اعتباري أنه فعل شهم .

* والدك لحظتها كان يخنق أمك بطرحتها . . خشيت أن تموت . . وترينها فأعيش بعدها أربي مجنونة .

* تلك الأيام السود المكللة بربيع الشباب لنساء يسرن بخيلاء حمامة تتهادى فوق مآذن الحرم . .

* كان حرمنا . . الأرض الطيعة . . السماء المزهرة بسرحها والتي تهدينا رأفة الأم البعيدة تناديني «فضة» إلى الأرض البراح معظم الليالي . . تخرج إلى المساحات الواسعة من الفراغ المحتمي بالظلمة المكسورة بمصابيح ضئيلة يسقط ضوؤها من نوافذ المنازل الهاجعة . .

* هل تعتقدين يا «فضة» أن عم «جبر» هو من ساعد أمي على الهرب من البيت ؟ .

* وإن كان . . ثم ألا ترأفين بقلب أمك الذي يحترق فوالدك تقريباً قد هجرها تماماً منذ زواجه . .

ألم يؤلمك سبب الضرب والخلاف الذي جعل أمك تقرر مغادرة «أبها» إلى هنا ثم إلى حيث هي الآن . .

* أظنها في استانبول . .

* هي هناك . .
* وما أدراك ؟ .
* سمعت «عمي السبتي» يقرر أمر طلاقها ، حتى إنه أقسم لأبيك إن لم تطلقها . . سأطلقها أنا . .
* عودي إلى كلامك . . ما سبب ضرب أمي ذلك الضرب الذي أفقدها ثلاثاً من أسنانها .
* والدك يقول دائماً . . لأعمامي وحتى لزوجته . . حين يسأل هل أعجبتك العروس . .
أهي أو أم ابنتك . .
يجيب بلا مواربة . .
* ليس الفخذ كالركبة .
. . . لم يكن ذلك الحب الذي يحويه صدر أمي لرجلها يكفيها كسلاح هادئ لمجابهة القدر الذي اغتال الزغب الأصفر النابت بسكينة فوق السرة المرتعشة . .
قالت : وهي تودعني بحذر خشية أن أتنبه إلى أنها ستغادر أثناء انشغالي بالحلم في ليلة صيف رطبة . .
* ليس المهم أن نحِب ، الأهم من ذلك أن نحَب ، وليس بالضرورة أن تملك الأنثى بلاهة حمامة تحيلها مع الوقت إلى ملاكٍ يرهن مصيره بكتابة فتافيت الآخر . . لأننا في زمن عُدم الرجال فيه . . عينا الرجل الفارس ، وفراسة الذكر الشهم الذي يستطيل أنفه من فوق الأسطح المستورة ، يشتم الأنثى الأصيلة ، ويستروح خاصرة الغزالة من عرقوب العنزة المتجملة بجلد المهاة . . نحن في زمن عُدم فيه الرجل الشهم . . فهل «حمود» و«السبتي» من منظور الآخرين يحملان صفة الرجل الشهم . . لا يمكن . . .
* لكن أمي . . تصرّ على أن «السبتي» الشهم الذي ستر «بركة» و«حمود» ابن الشهم الذي ضم عاره «فضة» تحت جناحه . .
* أريد أن أفتح فمي . . لأصرخ فأختنق . .

* أهلك . . .

صوت «بركة» . .

* ابن عمي . . لا أفضحه ما حييت . .

ليلة الختان التي شهدتها مع «فضة» ذكر الرجل الكهل الذي تلطخ بدمه وسط بكائه الأجش . .

* اللعنة . . أمي تلك الحمقاء ما الذي يدور بخلدها يوم أوهمت أهلي بأنني مختون في البطن . .

فأجبرت على أن أحضر إلى بيتي «راجع» عاهدتني على كتم السرّ . .

. . .«وثامر» الذي وشى بسرّه إلى «جبر» .

* الرجل عشق بنت الرعيان ، وسفك نصف دمه في حفرة عميقة وسط الجد العظيم . . .

* هل سيبرأ ختانه . .

* شهر ونصف على الأقل . .

. . . .

تشعب الأمر في ذهني أيمكن أن تكون «بركة» أنثى ضعيفة . .

وأن ترهن أنوثتها لأكثر من عشرين سنة ، ثم تموت بكراً تحت بطن رجل لا يعرف إلا أمراً واحداً . .

سأقطع دابر هذا العرق الخسيس . . هذا العرق الأسود . .

وها أنا قد أنجزت نصف المهمة وعليك يا «حمود» نصف الباقي .

هل يمكن . . أن يكون العرق الخسيس . . سرّ الرهن أم الذكر المشوه بجلد الولادة . .

. . .«جبر» كتراب الجن . . المحشور في سوس الشجر . .

* عم جبر . .

* نعم . .

* نصف الاتريك

تشبهك كثيراً . . .

* . . . .

* . . . .

* وأنت تشبهين كلاب البحر .

* و«فضة» . . .

* . . . .

«السبتي» لا وقت لديه دولاب لا يهدأ . .

أمر لا يرد . .

قدر لا يحتاط منه . .

* «حمود»

* «عونك»

* تزوج «بفضة» واهجر فراشها والجم فمها كن رجلاً . . أقسم برأس أبي . . سأعوضك ببنت رجال . . شيخة من بناتنا إن أطعتني . . فقط انتظر . . لتكبر ويستوي عودها .

* جبر الوحيد الذي يعلم بتلك التفاصيل الصغيرة والسرّية جداً . .

كما يعلم برسائلي الصغيرة «لثامر» . .

ولا يخفى عليه جبروت «فضة» التي اعتلت ظهر رجل النساء بالنسبة له كالحلوى الفائضة . . أينما حل ركعت تحت قدميه ونقوده جميلات الدنيا . .

واستطاعت أن تبذر في رحمها نطفة صغيرة من دمه . . من دم «حمود» وأن تموت بعدها . .

٢٩

آخر العهد بتلك الليالي الأجمل معك يا «فضة» ليلة اقتادتني «جميلة» من يدي إلى قسم جديد في المنزل . .

* هذا يخصك كسيدة فوق الجميع في منزل «السبتي» ثم أغلقت الباب وقالت :

* لا تخرجي . .

أمام المرآة سرير واسع ، وفي منتصف المسافة وقفت بين الباب والسرير ، فكشفت لي المرآة الأمامية . . هيئتي «الكرتة الواسعة» والضفائر المجدولة على الطرفين بفرق من المنتصف . . أي شيء هذا . . أيكون العرس الآن أم غداً . .

من النافذة وعلى البعد يظهر «جبر» الذي يهرول صوب جمع من الرجال عند البوابة الكبيرة ليشارك في إطلاق الرصاص ويستمتع بزغاريد النساء . .

وحشة . . حين استحضر وجه «حمود» طوله . . فمه الواسع . . زوجته وأولاده ، «فضة» وعمتها «بركة» بهذيانها الذي لا يهدأ .

* «ياما تحت السواهي دواهي»

* هل أقتل نفسي . .

أنادي على أمي . . أصبحت أهذي مثل «بركة» حين تنادي على «يوسف» حالة هاجمتني لا تختلف عن حالة «بركة» إلا في عدم اليقين التام . . إذ خطر

ببالي أن أمي ماتت ، وأنها تعيش حياة أخرى في ظلام الوادي السحيق . . جنباً إلى جنب مع والد «فضة» . . والتي لا تزال «بركة» تصنع على «نيته» الأرز والقهوة والبيض المسلوق بشكل شبه يومي . . وتضعه على جدار «الخارجة» التي تفصل الباحات الخارجية عن البيت ليأخذه الراعي أو «جبر» أو أحد الأطفال الأشقياء الذين يشكّون في عقل «بركة» لكنها تُقسم أيماناً غلاظاً أنها تضعه صدقة للكلاب والطير ، تلك الأيمان لا تلبث أن تتحول إلى بكاء وهمهمات وهي على سجادة الصلاة . . تناجي الغائب بحرارة . .

«يوسف» طالما أنك تأكل وتشرب وتراني وترى ابنتك . . لماذا لا تأتي ؟ .

وعندما تسألها «فضة» عنه تقول بعصبية . . مات مات منذ زمن بعيد بجوار الكعبة . .

* أمي . .

«فضة» لها «بركة» لكن أنا أخشى من أن يأكل «حمود» لحمي . . كما فعل «بفضة» التي سرقته بتحريض مستمر من «بركة» التي يقعد بين حاجبيها شيطان مريد . . وهي تومئ «لفضة» حين تخرج مبلولة من غرفتها . .

* هاه . . ما أخبارك اليوم . . تقترب منها بلهفة ، وتصرخ بهيجان شعرك مبلول تثني لسانها . .

* لا تزغردي يا عمة فمثل كل ليلة لا يلمسني لكنه يقرص خدي بصباح الخير يا حلوتي ثم يدفعني للاستحمام .

* كلب . .

تهزها بيدين من حديد وتعض على شفتيها قبل أن تقول :

* أنت بلا قلب ما تحت أضلعك رئة ، رئة فقط . .

* ألا تستحمين قبل النوم مثل كل النساء «يا فضة» ؟

«يا فضة» يا ابنتي ألا تتبخرين وتمسحين جسدك بالمسك والعود . .

تجرها من يدها . . برجفة . .

* هل تضعين وجهك قرب وجهه قبل أن تنامي ؟ .

تصرخ «فضة»:

لا يا عمة . . لا والله . .

* احذري . . احذري يا صغيرتي وإياك أن تتجرئي ، فالفم سرّ الليل ، وإياك أن تنسي وضع «المعلّك» تحت لسانك ، ولا تكثري الحديث معه ، وأرخي مخدتك حتى لا يعلو تنفسك ، فالنائم كالميت ، وحلّي ضفائرك وبخريها بالعود ، وامسحي عنقك وإبطيك بالريح والطيب ، فالمرأة بشعرها ورائحتها . . اعتني يا ابنة أخي بداخلك كما تعتنين بخارجك . . ترفع عنقها لتتأكد من خلو المكان . . وتدس في ثنايا صدرها . . قارورة صغيرة . .

* خذي خلطة من الملح والنعناع والفحم والقرنفل من أجل أسنانك وفمك .

تتراجع «فضة» ويتغضن جبينها . .

* عمتي . . في الحمام ثلاثة . . أنواع من منظفات الأسنان

* جربي هذا .

* هل أسألك ولا تغضبي .

* قولي . .

* لِمَ لم يجدِ هذا مع «السبتي» ؟ .

تهدلت وجنتاها . . وغارت عيناها . .

* لا تجزعي «عمتي» الحبيبة ، فوالله لو أمرتني أن أصعد «العزلاء» عشر مرات في اليوم ما ترددت . . تأكدي أنني لن أخذلك ولو بعد أعوام ، فقط ساعديني بالدعاء . .

. . . .هل يمكن أن يكون الإنسان محترماً جداً ومنبوذاً جداً في آن . .

عانيتُ من هذا الوضع سنوات وقتلني نبذ «فضة» وهي التي قيدت كشاة إلى فراش «حمود» .

. . . انقلب ما «لثامر» «لحمود» . .

حيرتني «فضة» وجرحني نبذها . . ونسيت ليلة فض بكارتها وأنا أدفئ قطعة من الحرير على الفحم الحار ، وأكمد جراحها التي أخفتها حتى عن «بركة» .

«فضة» تعلم ما لا يعلمه أحد .

* تظنين سيقع حمل .

* بإذن الله . .

* أريده أن يشبه «ثامر» .

طعنتني وقلبت جوفي ، وكأن مشاعري لا تعنيها تراها تعلم ما لا أعلم .

«فضة» امرأة عظيمة . . لا أصدق أنها تتعمد كسر قلبي . .

* الوحم شديد .

* عمتي جميلة تقول ذلك . . و«بركة» تؤكد أن الوحم نصف الخلق . .

وأن «جميلة» أصابها وحم شديد على المزارع «جبر» فكرهته وطردته من المزرعة ، فأعاده «السبتي» واسترضاه ، وكان كلما ضمهما مجلس لعنه .

* ألم تجد زوجتي من هو أفضل منك لتتوحم عليه . . ؟

* ضمت «فضة» شفتيها المتورمتين وقالت :

* تصدقين بذلك . .

* . . . .

* ما هذا جرح كبير على ثديك . .

* . . . .

* . . . .

* رغبة ملحّة حين التصقت «بحمود» وسرقته وأنا مغمضة العينين في استلهام جارف لوجه «ثامر» .

التصقت «بحمود» وهذان الفخذان الليّنان يصطكان ببعضهما وأنا أمسح الدماء بفوطة ملونة وضعتها فوق مخدتي . .

كان قوياً . . غير عابئ بارتجاف جسدي ، وكنت مدركة أنها لذة لن تعود مرة أخرى ، فالمسألة بالنسبة لي مسألة هل سيخلق كائن آخر يلوث كيان الأسرة البيضاء بلون آخر أقرب إلى السواد ، وبملامح تفتك بأعصاب «السبتي» كلما بحث عن شبه له . . ليجد ملامح «ثامر» . .

في تلك اللحظات يتراءى لي وجه (نص الاتريك) يصاحب ذلك مرارة الشعور بأنني أضعف من أن يكون لي قوة نفس «جميلة» التي استطاعت وقت انطلاق سهام شهوة «السبتي» إلى دمها وروحها وجه «جبر» المتناسق لكن «لا» جدل عنيف داخلي . . لا يمكن أن يكون الوحم قادراً على خلق صورة أخي من وجه مخلوق آخر بكامل صورته . . إذاً كيف يمكن أن ينبثق الرحم النقي في تلك اللحظات الخاطفة بمخلوق صغير يشبه «ثامر» . أي شيطان لعين يحركني لأستحضر صورة رجل غريب في لحظات السكر والخوف . . صاح بي «حمود» . .

* كفى . . وهو يقذف بمائه في الخارج . . ويكرر

كنت أرتجف وسط هذيانه ، ويعطي كدفق الدم الحار في العروق وهو مطوق برائحة اغتصابي له . . أشتبك معه في حمى جهنمية ترفع نبض دمي وحرارته ، لكنني لم أصل إلى تلك الرجفة اللذيذة لأنني في لحظة ابتهال مثالية مجردة . فقد طردت «ثامر» من سقف غرفتي ، وبقيت وجهاً لوجه مع «حمود» لتترعرع كائنات الليل على تحرك الجدران واقتراب السقف . كل تلك الزلزلة جاءت مع قدوم وجه كالح ضخم هو وجه جدتي «فضة» التي تداعت لذهني وهي تصيح بي وتدفع بي في غمرة شقاء كأفعى مدربة لأقتنص من دم «حمود» حيواناً صغيراً ينزلق على غفلة منه في الظلمات البكر المتعبة . .

كنت عنيفة كإعصار يهرب مني ، فأستعيده على دق الطبل والمزمار وخوار «فضة» العجوز وغناء «بركة» الطويل :

يا حد زيني . .   يا بعد عيني

لاقام لك حيل   لوما انقضى ديني

اسم الدلال الذي نسيته «حد الزين» . .

تكور فوق قطرات العرق التي تجلد ظهر «حمود» فتحيي في داخلي خلايا من العنف الأنثوي . . أصرخ وأزداد غواية . . كلما دغدغتني لزوجة الدم النازف . .

يرفع جسده لتزدان الأرض حول ساقيّ وأطراف الفراش بعطر رائحة دم أبيض فينز الدم . . تحت جلدي وأستقيم على رأس السرير لألتصق به فنتحول إلى

كائنين صعقهما تيار كهربائي . . فيتضرع :

* «فضة» . . سيقتلني «السبتي» سيغضب عليّ .

* . . . .

* . . . .

* . . . .

بدا محموماً بهمس ولذة وجنون لم يألفه ، وأنا مصعوقة بزلزال يهز مصاريع النافذة . . وصراخ خفي «لبركة» .

* اسرقيه . . اسرقيه إنه ملكك . .

في السقوف وتحت السرير وقرب وجهي ووجهه تقعي «فضة» كبقرة لها خوار . . تضرب بيديها فترتج الغرفة ويصهل من خلفها أقوام مشوهو الأعضاء وعراة . . رجال مقطعو الأعضاء ، ونساء مخيطات تتدلى خيوط الرتق حتى منتصف الفخذ ، تشحنني تلك الأصوات بقوة خارقة فأعتليه . . ينثني حتى أستوي تحته فتفوح رائحة عرق غريب . . أميل برأسي صوب النافذة أتحسس :

* اسرقيه . .

كنت امرأة من عصور ما قبل التاريخ . . عارية طويلة ، بجلد براق بنيّ مزرق ، وشعر فاحم غزير يمتد حتى منتصف الخاصرة وساقين طويلتين تنتهيان بقدم مفلطحة جافة ، وذراعين لدنين مثل ثعبانين سوداوين ، وفم كنقطة الضوء في الجدار المظلم . . وعينين مطبقتين تزدادان ارتعاشاً كلما أطبقت عليه ، وأحكمت بيدي حوله . . أحثه على الانطلاق . .

أهمزه . . وأكمم فمه حتى لا تفلت أنة ألم . . يستعطفني صارخاً :

* انتظري . . توقفي ولا تظلميني وتظلمي نفسك . .

فارسة أنا أطارد الريح ، ولا أسمع من الصوت إلا رجعه . . يحاول القذف بي إلى الأرض فأهمزه . . فيتحول إلى فرس يطير ويرتفع حتى مشارف الغيبوبة ، ثم يهوي إلى القاع وهو يشد شعري ، ويغرز أظافره في ظهري ، وينشب أسنانه في لحمي . .

ولا ردة فعل . .

إلا تصلب لجسدي يستغرق ثانية ليفقد السيطرة على حواسه . . عندما أهمزه بتواتر خاطف سريع . . خاطف يصرخ :

* انتظري . .

تخرج من صدره حشرجة حيوانية .

فتنطلق الزغاريد من الجحور والظلمات ومن خلف النوافذ ويتحول المكان إلى اختلاط عاصف بين الجنة والنار ، والماء والصحراء والستر والعار ، والدم والمهانة ينسكب من صدري وأعلى الرقبة عرق بارد ، وأسمع ضربات قلبي التي طغت على دق الطبول والمزامير وبصوت ضعيف أناديه :

* «حمود» ماء . .

أنزلق من الأعلى بعد أن همد جسده ، وتأوهت حين سحب شعري وضرب بوجهي الأرض . . ثم قلبني ، وبرك على ركبتيه وهوى على ظهري «بنعاله» الضخم وهو يشدد من قبضته ليدمي صدري أكثر . . ليركلني على مؤخرتي قبل أن يغادر الغرفة ، ويتركني أحبو حتى دورق الماء الذي أتجرعه لأطرد ذبذبات متباعدة تنبعث من سرّتي حتى أعلى الجسد ثم ترتد إلى الحوض المتورم والمضاء بفوانيس صغيرة . . تدخل وتخرج . . ترتفع وتنخفض لتبقى معلقة في الشعيرات النابتة عند الأركان والزوايا في ذهول واحتراس مكين . . ترصد كل القادمين ، وتشرب من الروائح الزنخة التي خلفها «حمود» ، فتفقد انبثاقها وتستقيم كقرون الاستشعار مع بدايات فصول الخصب . .

قبل أن أنوي به . .

لم أكن أتوقع دخوله المفاجئ أول الليل . . كان في عينيه شيء شجعني . . ارتعشت وأنا أتلمس جسدي البدائي . . ابتعدت عنه وأنا أغطي أجزاء منه بيدي . .

* ليس الآن . .

لاطفني على غير عادته . . تذكرت وصايا عمتي «بركة» ، وكيف أنني ظللت

أنفذها لأكثر من عام وأشهر . . وفي كل ليلة كنت أنتظره ولا يأتي . .

أُحيل من أجله الوسائد والملاءات والشعر والجسد إلى حديقة ورد أحمر ولا يأتي . .

وفي الصباح أخرج إلى النساء بشعر مبلول . .

تلتقي عيناي بعيني «عذبة» التي تزداد اصفراراً عندما تخرج ضفائرها من تحت «طرحتها» وهي تعصر ذوائبه من الماء . . وتطقطق بلسانها بصوت ناعس :

* لو كنت أعلم أن «حمود» سيصبح هكذا لتمنيت لو تزوج منذ سنوات . .

تشد طرف فمها . . وتبقيه منفرجاً ، ثم تلف ضفائرها للخلف فيتطاير رذاذ الماء في وجوه أربع نساء يشاركنها المكان . .

تصيح بها «بركة» . .

* انفضي شعرك بعيداً . . تشيح بوجهها عن عمتي «بركة»وتقذف إليّ بعنقود عنب صغير . .

* كلي يا صغيرة واحذري من ضربات الهواء . .

ثم تلتفت إلى «بركة» . .

* ارحمي الصبية من كثرة وصاياك فأنا أدرى بحالها ، وأعلم في حضن من يقضي «حمود» بقية ليله . .

* كلبة أنت «يا عذبة» ،

وطويلة لسان

* وأنت عجوز خرفة نسيت من هي . . !

* لا لم أنس . .

* إذاً تذكري «فضة» . .

* أنا ابنة «عبود» قبل أن أكون ابنة «فضة» . .

* لا تكثري من الكلام فأنت على خير مع «السبتي» وأبنائه ، ولو كان رجل غيره . . لقذف بك وأمك في سفل من سفول الديرة حتى الموت . .

. . «عذبة» امرأة على وعي تام بأمر الرجل الذي عض ثديي حتى أدماه

قائلاً :

* أقسم «سأكويك كية العمر يا فضة»

٣٠

.. «فضة» .. احتجاجك على العالم من حولك أعلنته يوم رحيلك بقبرك القش الذي أعده رجال البلدة لك .. تضحكين جذلاً وأنت تراقبين جموع المصلين على جثمان القطن والقش ..

كنت تعلمين أني أعلم أنك في جلدي تتنفسين ضجراً من ملمس يد «حمود» وشفتيه ..

ألمك رجوعي إليه بعد موتك .. ليس غيرة امرأة على رجل تحبه .. لا .. ولكن حزناً عليّ .. قهراً على نوافير الأحلام التي أنثرها قرب سريرك وأنا أتحسس حجم بطنك ..

* ماذا ستسمين وليدك ؟ .

* ....

* ثامر ...

* ....

* وإن كانت فتاة ..

* سريعاً «فضة» كانت إجابتك متوترة ..

* إذاً تتمنين لو كانت فتاة

* أتمنى على الله ذلك ..

* والطفل الشبيه «بثامر» . .

* لا يضر أن تشبهه الفتاة . .

. . . .كنت حاملاً في شهرك الخامس وكنت ، تجيبين على أسئلتي بتحفظ رغم تأدبك الواضح . .

أتعبتني «يا فضة» ، ترفضين وجودي . . ترفضين تقدير الأمور وبأنها كما أخذتك الحياة على حين غرة كنت مثلك ضحية رجال لا طاقة لي بمجابهتهم . .

حزنك الخفي . . هذا الحزن الذي ورثته لي أحمله طعنة أبدية . . يثور دمها وصديدها . . كلما صفعتني الحياة . وكم كان للجرح من وجع فجرته ليلة «مكة» التي زادت ذاك القلب الذي عهدته «يا فضة» غرابيل فوق غرابيله . . والحياة . . يا صديقتي لا تفاجئني . . مثلك أنا آكل حزني فيمتزج بدمي خفاءً ، لأن «لعلامة» قدراً يضاهي قدر العُبّاد . .

ولأنك تأكلين حزنك . . وأعلم أنه يفتك بصحة جنينك وصحتك ، قررت أن أترك المنزل . . أذكر أنك ضحكت وأنا أنتزع مفتاح العربة من يد «حمود» لأهرب خلف زوجة أبي التي أتت لزيارتي . . وتبعتها إلى «أبها» غير عابئة بما سيجره ذلك الفعل من سوء ، وما سيفجره من خلاف بين كبار العائلة . . لحقتِ بي يا «فضة» قائلة :

* عودي

* لا .

* عودي . . سواء خرجتِ من المنزل أم بقيت لن يغير من القدر شيئاً «حمود» رجل عزف عن فراشي ونسي أمري . .

* وأنت ؟ .

* أنا أيضاً نسيت أمر نفسي . .

* أي جبروت فيك يا «فضة» .

* عين العقل . . فعودي . . لأن «عذبة» هي المستفيدة الوحيدة من الموقف كله . . فلا تغضبي أهلك . . واعقلي . .

* «فضة» ظلمتني حين اعتقدت أني راضية بما حدث ، لقد سلبوني حريتي . . وراحتي ، وزوجوني ولا خيار لي ، وأقسمت في قرارة نفسي أن أثبت لك ولنفسي صدقي . .

* كلام الناس . . يا مجنونة . . ثلاثة أشهر ونصف . . ستكون . .

* فضيحة . . . أتمنى لو أنني ألف قطعة تنثر على الطرقات وعسبان النخيل . «الله يلعن أبو الحياة . . ويلعن أبو حمود وثامر على الدنيا كلها» .

دعيني «يا فضة» فأنا أكره نفسي ، والحياة أيضاً عافتني ، فابتعدي عن طريقي يا «فضة» وانتبهي لحملك . . وإذا دخل «حمود» غرفتك فلا تمنعيه . . كوني عاقلة . . . .

وكما برّ «حمود» بقسمه انتقاماً من حمل «فضة» التي أضاعت هيبته عند السبتي . . كنتُ أيضاً بارة بقسمي حين تركت للنساء حرية الكلام وحوك الأقاويل ضدي . .

عدت من جديد إلى المدرسة . . وفي المقعد الأخير من الفصل قرب الحائط . . تحت النافذة . . وتجددت سنوات اليتم والغربة ، وكنتُ أعلم أن «فضة» هناك وحيدة في الليل تتقرفص في الظلام وسط سريرها ، تهزها رعشة الخوف من الولادة . . ورعشة الشوق إلى «حمود» ورعشة الحب إلى «ثامر» ، ورعشة الخوف على جنينها من غد . .

. . . لم أسمع شيئاً عن أخبار المزرعة لكني أراها بقلبي . كلنا على قارعة الطريق . .

. . . . كنت مثل طائر صغير أخرج رأسه لأول مرة ليرى نور الله . . ووسط الضوء الخاطف أغمض عينيه . . فالنور . . نار . . ما الذي فعلته «أمي» ؟ .

كيف ذهبت الأعوام السابقة بدونها ؟ .

هؤلاء أهلي لكني لا أعرفهم . . أسمع بهم من أفواه الغرباء ولا أعرفهم . . «فضة» مفاجآت . . ومفاجآت . . أحداث كثيرة تتراكم كلها دفعة واحدة فألوذ بالصمت والنوم ، فكل الأشياء أتت في غير أوانها . .

الحب . . أتى في وقت لم أحتمل فيه أن أُحب رجلاً بمفردي . . شاركت «فضة» في حب «ثامر» كنتُ شريكة نبذت نفسها له بإرادتها . .

ويوم تخلت «فضة» ، ومالت روحها إلى «حمود» ، خشيتُ غضبتها فأبعدت نفسي قدر المستطاع ، واكتفيت بكتابة رسائل لا تصله . . وإنما أخبئها في جذوع النخيل ، وتعريشات العنب ، وصنابير المياه المهملة على ثقة بأنه لو كان يحبني سيعرف أي مخلوق أنا وكيف أفكر . . وستصل يده إليها . .

. . . .بعد الزواج أصبح «ثامر» في الركن الأبعد . . الركن القصي السرّي من الذاكرة . . والمشاعر . . والقلب . وتيقنت أنني رقم في طابور طويل في حياة «ثامر» ، وأن هاتفه دليل على فرحه فقط بحب امرأة غريب . . عشق من سلالة الطين القديم الذي لم تلوث عروقه دماء باردة لرجل مدلل وقع أسيراً لسيطرة أوضاع معينة ، فقد كان يردد دائماً «لجبر» :

* هذه السوداء طاغية . .

كان مهووساً بحب «فضة» ، لأنه نوعية من الرجال يستمتع إذا كان الآخر يحبه إلى درجة أنه يلغيه . . وهذا الذي جعله ينحني تحت قدمي «فضة» ، ولا يعني ذلك أنه شخصية ضعيفة . . لكنه ينتشي بإلغاء الآخر له . . ويعشق الدور . .

فإذا أتت امرأة تحاول أن ترفعه نحو الأعلى . . امرأة تنحني له كما ينحني لها في تبادلية سامية . . تُشعره بعظمته كمعشوق فوق كل الناس . . يصحو الجانب المفقود فيه ، ويعود مرة ثانية الرجل القوي ، فيبدأ بالشعور بمتعة أخرى . . ويثرثر بصورة جعلتك «يا فضة» تفضلين النزوح إلى مرابع قبيلتك . . الرجال الذين لا يعرفون سوى الصراخ . . الصراخ الستار الذي لا يكشف نوعية المعدن ، و«حمود» كما تقولين لا يثرثر «كثامر» ، ليبرهن لنفسه قبل الآخرين أنه الرجل الذي يُحَب ، ولست أنا الرجل الذي أركض وراء الآخرين . . والآخرون هم الذين يفرضون علي الأشياء . مشكلة «ثامر» أنه لا يستطيع أن يحسم الموضوع ويكون له استقلالية ، إنني أحبها لأنها تحبني ، وهي تحبني لأني أحبها ، ونحن - الاثنين -

نحب بعضنا ، وسنظل نحب بعضنا . . وحين كان يثرثر عن «فضة» ، وعشق «فضة» له . . أعلم أنني أيضاً مجال للحديث والثرثرة . .

وهذه مشكلة اختلف معه فيها عم «جبر» ووصلت إلى حد القطيعة لأن جبر قال له :

* هذه مشكلة سيئة . . وعلى الرجل أن يواجه عقده برجولة . . فإذا أحببت امرأة قل إنك أحببتها ، وإن كنت تتسلى مع امرأة وسألك أحد عنها فلا تحقر فيها . . وإنما قل بصدق أنا أتسلى معها ، وطالما قبلت أن تتسلى معها فإن هذا اعتراف منك بأنك قبلت بها ، وطالما قبلت بها وحقرتها فأنت إنما تحقر في اختيارك . .

وثرثرتك بها . . تجعلك محتقراً من الآخرين . . والرجل الأصيل لا بد أن يكون واضحاً ، ويواجه الأمور برجولة سواء كانت خطأ أو صحيحة . .

. . . .فضة . . . .

كل ما تبقى من سمو . . ليس أكثر من أن أرفع سماعة الهاتف أسمع صوته وأغلق . .

أناديه :

حين أرفع الغطاء . . لشمس الصباح . . وحين أهبط درجات السلم . . يرتسم اسمه على المرآة التي أصلح عليها هندام العمل . . وأرسم روح الصباح على الشفاه الجافة . . أناديه أثناء قبلة الوداع على رأس السبتي . . وأنا أغادر المدرسة أنادي . . ثامر . . وكلما وضح النداء تصهل خيول الحب البربري حين تداعب نسمات الجنوب ذوائب الشيح ومزارع البرتقال . . فيصعد اسم «ثامر» حتى أعلى القلب ، وترتسم فوق الوجنات . . زهرات حمراء فوق طاولة الدراسة ، أكتب اسمه حرفاً . . حرفاً ، وفوق المرايا المثقلة بالبخار . . قبل أن أغادر حمام الماء ، أكتب اسمه ويأكلني البرد في زاويته انتظاراً للبخار أن يذوب . .

«فضة» . . قالت أيضاً :

هذا الهروب . . في غير أوانه . . لزواج لم يستمر لأكثر من ثلاثة أشهر

ونصف . . قلت بصراخ واضح . . هذا الهروب ليس اعتراضاً وإنما رغبة في العودة إلى حياة أولى ، واستكمال مشوار لم ينته بعد . . كنتُ أُصر على موقفي . . ولم أكن أعلم أن «فضة» على حق يوم قالت :

* هذا الهروب أيضاً في غير أوانه . .

ليلتها كتبت «لثامر» . . آخر رسالة وقبل أن أخبئها في الكينا العريقة . . ناديت «فضة» . .

كنا غريبتين كالعشب المهمل فوق تعرجات الوادي ، «فضة» اقرئيها ثم ادفنيها في صدر الجد العظيم . .

بسم الله : «ثامر»

«أعترف بأنني لم أستطع أن أجعلك تحبني ، ليس لأنني أنثى ناقصة . .

وليس لأنني أشبه ورق التين . . على مدى الفصول تضربه سياط البرد وسم الهجير . . مغبر وصامد وأصيل . .

ولكنني أنثى لا أجيد سوى الوضوح . .

ولم أتعمد يوماً أن أسرقك . . من أنثاك التي كنتَ لها . .

ولم أتذكر يوماً أنني صددت نظراتك «وهذه غلطتي» ، أو مارست طريقة «فضة» في الحب . . ذلك الحب الذي لا تجده إلا في ظلال الغيوم . .

كنتُ عصفورة الصباح والمساء . .

وليس مطر الغفلات . .

وما كنت أدري أن للمسافات سحرها . . مستعدة أنا للموت . . إذا ما هدأ هذا القلب عن الحلم . . الحلم الذي هو عمار القلب . . والعين . . ورغم المرارة . .

أسمعك في كل نغم جميل ، وأراك في كل واجهة ، وأشم رائحتك في الثياب الأنيقة . .

قلب مملوء بلذة الإحساس . .

وهذا إنما هو هبة الوضوح . .

الذي تعاملت معه باحتقار ، وطبيعة الرجل الشرقي التي تتراقص في دمك . .

فأنا . . مثل المساحات التي رسم الله بيده عليها ملكوتاً تفنى في مساراته أنانية الإنسان ، ما كان عليك يا «ثامر» سوى أن تلوّن المساحات بريشتك الأنيقة التي أعلم بقوتها وجاذبيتها . .

لكنك فضلت الصعود إلى السحاب والغيم وأنفت من حب لم تتعوده . . حب يرفعك إلى الأعلى . . وفضلت الاستمرار في دور الاستمتاع بحب يلغيك . . وتنحني له . . وصممت على أن يكون مقعدك فوق الغيم الكاذب . .

وغداً . . سيدق عنقك . .

ولقد فرشت «لحمود» مساحة من العزة . .

فأنا «وحمود» كنا السلع التي تبادلها الكبار في سبيل بقاء المصالح المشتركة . . ومع الوقت تولد بيننا نوع من الحياة التي تعاملنا معها بحذر السلاطين . .

. .لم أحبه ولكنني قادرة أن أعطي من يحتاج إليّ ، ويعلن ذلك في وضوح» . .

. . .«فضة» لم أكتب الرسالة عبثاً ، ولم أعطك بيدي دليلاً بإمكانك أن تصادريني به ، وتشنقيني بيد «السبتي» إلى غير رجعة . . إلا لهدف . . هو :

أن تعلمي أنني عالمة بما في نفسك ، وأنك أعلنته بتجنبك لي . . رغم قدرتك الرهيبة على إخفاء ما بنفسك . .

أنا في نظرك . . خائنة . .

وفي نظرك . . ضحية . . ومسلوبة الإرادة ، ومجبرة على أمر ليس فيه مراء . . أمر نفذ بإرادة رجال يقتلون بعضهم من أجل كلمة . . ومع ذلك . . تصرين على أن تنسي كل الأمور إلا كوني خائنة . . لذلك أنت واضحة وطلبك واضح . . وسأخرج من المنزل إلى غير رجعة .

٣١

هناك سنوات . . هناك موت . . وأحداث حرب . . «وعلامة» علامة الزمن الفارقة . .

لامرأة اختارت الظل . . وفضلت رائحة التراب والمزارع المهجورة الملتحفة بعباءة الظلمة على ضفاف الجد العظيم . . فضلتها على جبال عسير الخضراء وشمسها الباردة ، وانحازت إلى ظل النخيل الخلخل ، وتربعت قرب رماد السنوات البعيدة . . تناجي «جبر» الذي تهدلت وجنتاه وهو يلاعب أطفالها قائلاً . . .

* بيتك يا بنيتي صلاحك . .

* أنا في بيتي

* حياة بلا معنى . .

* وهل الحياة يا عم «جبر» هي أن تستحوذ المرأة على الرجل ، وعلى بيته وماله ، وتظل تحوم في نفس الدائرة . .

الإرث الذي لم تخرج عنه حواء مذ خلقت . .

أنا سعيدة يا عم «جبر» ، وأشعر أنني أنتمي إلى كائنات الدنيا الأكثر فطرية ونقاءً ، وأشبه حيوانات الصحاري الأليفة . .

«أرنبة» تخاف الخطا وتراقص المدى هلعاً حين تلامسها يد بشرية . .

«أنثى ثعلب» . . تناضل في الظلام ، وتحوم حول المنازل العامرة بما لا تطيق . .

هدفها قطعة لحم صغيرة . . لحمامة أو عصفورة ، ثم تؤويها الأدغال المظلمة .

قطة تتسلق النوافذ . . تنزلق من الفتحات ، وتتمسح بذل في الجدران الباردة . . وتستمتع بالتنقيب وحيدة في المطبخ الكبير . .

تهامس أطفالها . .

* ماذا تريدون ؟

* تغني لهم . .

محمد يا محمد

ومحمد رسولي . . هدانا يمامة

كلوها بالسلامة . .

وبكيت اليمامة . .

وحن محمد عليها . .

وصاحت الحمامة . . . تعالي يا يمامة

ويغنون لها :

ماما . . يا ياما يا هدية الميمون . .

يا ريحة الليمون

«فضة» عم جبر . . ما عاد صاحب تلك الصورة التي أخذتها قصداً من تحت وسادته . . وقلتِ لي :

* ما أجمله . . .

. .لكنك أخرجت صورة «ثامر» . . وبعين فاحصة . . وركزت نظراتك طويلاً . . ثم نمت على بطنك وأنا بقربك ، ورحت ترسمين بمهارة . . دمجت وجه «ثامر» بوجه «جبر» قلت بضحكة مجلجلة . .

* هذا حبيبك . .

مزاحك الثقيل خلق وجهاً خرافياً لا ملامح محددة له . . لكنني تمنيت لو كان حقيقة . . سريعاً خبأنا الرسمة الغريبة في جذع الكينا . . خوفاً من «جميلة» التي حذرتنا من الحلم برجل غريب . . أو تأمل وجه غريب . . لأن الفتاة إذا

تخيلت رجلاً غريباً لا شكل واضح له . . عليها أن تختبئ الأيام البيض من ذلك الشهر ، وإلا فستصبح عاقراً . .

لم نمزق تلك الصورة . .

لقد غرزناها كالإرث مع كل كنوزنا في الكينا . .

ونسيناها . .

الكينا «يا فضة» شاخت . .

وأشجار التوت كبرت وتفرعت . .

«والخارجة» التي تضع عليها «بركة» طعام «يوسف» لتأكله أفواه أخرى . . هدمها «السبتي» أيام الحرب الأخيرة . .

. ليلة الدخلة «يا فضة» تذكرت تلك الرسمة . .

لا بد أن أكون عاقراً . .

بحثت عنك «يا فضة» . .

ناديتك لتحضريها لي . .

لم تجيبيني . .

فعذرتك . .

كنت مذعورة مما حدث . .

أقرب النساء إليك تسلبك زوجك . .

كنتِ تفكرين مثلهم . .

ولم يحزنك «السخان» الذي فجرته في الحمام كي أحترق وأموت . .

آثار الحروق لا تزال . .

وقبرك لا يزال . .

و«جبر» لا يزال هو . . ذلك الذي كان فيما مضى وقت الغروب وعند شروق الشمس . . حين تتفتح وتنبعث روائح الأرض التي يمتصها جسده ، والتي نكتشفها عندما نتعلق به ، ونختبئ في صدره الذي تتجمع به كل بساتين القرى ، وتختلط بثيابه روائح البرسيم وزهر الليمون والبرتقال ، وحتى الطين المحشو

تحت أظافره والذي يخرج ليلتصق بقطع البرتقال التي يحشرها في فمك آمراً .

* كلي . . .

تقولين لي بعد أن كبرنا للطين طعم عجيب ، وليد عم «جبر» ملمس أعجب . . فرق بين يد «جبر» ويد «جميلة» ، تلك المرأة التي لها قدرة خارقة على العناية بنفسها ، إلا أن يدها وقت أن اقتادتني ليلة الخطبة لها ملمس جاف وموجع تماماً مثل وجع الخلخال ليلة الخلاص ، حيث جُردت منه مثلما جُردت من شعر جسدي الطفولي ، ومثل ما طويت «فرشتي» الصغيرة بين العجوزين . .

كل ما هو قديم جُردت منه ، وعُزلت عن اللعب مع الصبايا ، وحرج عليّ الهبوط إلى المزرعة ومخالطة العمال . .

وشددت «جميلة» أمرها في ألا تختلط عروس ابنها مع أحد . . وخاصة ذلك العامل العجوز الفاسد على حد قولها «جبر» . .

* جبر . . رجل خرف دلل الفتيات وأفسد طباعهن . . لم تكن «جميلة» تعلن ما تريد بشكل صريح ، بل تقوله سراً ، وتوعز لابنتها «نص الإتريك» بمراقبة «جبر» الذي يمازحها . .

* تعالي يا شبيهتي . . وقولي لي يا صغيرة من أوعز لك بمحاربتي . . ثم ينحني نحوها أكثر هامساً :

* قولي لأمك . . «جبر» يقول لماذا اخترتني أنا لمراقبة «جبر» . . ينحني أكثر . .

هيا يا صغيرة اصعدي على ظهر عم «جبر» الذي يحبك . . كما يحب هذا المكان . . وصغار هذا المكان . .

«فضة» . .

أذكر أنك بكيت عندما وصلك ذلك التحذير . . ونبهتني إلى مسألة . . كيف ننام دون أن نشم رائحة الأرض في تراب أظافر «جبر» الذي يلتصق بقطع البرتقال والليمون . . كيف ننام دون أن نتبع خطاه التي تقودنا إلى مواقع الدكتور «ثامر» . .

كيف تمر عصاري بلدتنا . . دون أن نسمع حكايات جبر عن «أمك» . . وأبيك . . عن السبتي والجد العظيم وجنية ابن الأزرق . . وسلمى المجنونة والسحلية التي أنجبت وليدها وهي على هيئة امرأة بدوية في خباء . .

وكيف نسلو ميلات ساعات المغيب إلى سحر الحديث مع الدكتور «ثامر» عن الحب والرغبة وفتيات البحر . . وجدة الساحرة . .

تمنيت لو أكون تلك السحلية الجنية التي أغوت الأمير فجاءته في هيئة امرأة جميلة . . وحين ظهرت عليها بوادر الحمل . . فاجأته وهي تنام بين فخذيه . . سحلية بجلد حرش . . دفعها بعيداً . . فصرخت به . . أمام حراسه لا تذبحني أنا امرأتك ، وحين فاجأها المخاض عادت إلى هيئة امرأة أخرى . . تعوي ككلاب الليل . . إن حملي من هذا الأمير الحقير ، ثم تقذف بسحلية في حجره وتمضي . . .

وحننتُ «لسلمى» التي أهداها حبيبها «راديو» اكتفت به عن دنيا البشر ، وانسحبت بعد موت الحبيب إلى الأدغال ، وأحاطت نفسها بالشوك والحفر . . ولم يعلم الناس بموتها إلا بعد أن صمت غناء الليل . .

. .حين سمعتِ . . يا «فضة» بسيرة «الراديو» بكيتِ وتعلقتِ بعم «جبر» قائلة :

* كل البنات يا عم «جبر» لديهن آلة تسجيل براديو إلا أنا وهذه «الهبلا» ، كذلك لديهن كاميرات . . ويتحدثن في الهاتف ، ويذهبن إلى المستوصف . .

* هل منعك أحد ؟ . .

* لا ولكني أخاف . .

* من خاف سلم . . ابقي على ما أنت عليه . .

يشرد ببصره بعيداً . . ويعاود الحديث . .

* لقد شاعت في الوادي العظيم أمور سيئة . . ثم هل عمك «السبتي» يعلم بكل ذلك من بناته وأخواته أو حتى من بنات الجيران . .

* لا أظن فقد ضرب «ابنة الجيران» عندما وجدها تسير في الطريق وعلى

كتفها آلة تسجيل . . «أقسم لولا قدر والدك لكسرته على رأسك» . .

. .حين حدثني عم «جبر» أول مرة عن «ثامر» الذي وجدته ضمن العائلة الكبيرة في البلدة . . ورضخت ليده التي تحسست الحرارة العالية بعد صدمة رحيل أمي . .

* «فضة» كمادات فقط . . إنها لا تحتمل أي نوع من المضادات ولا تنسي مع الكمادات غذاء جيد . .

«فضة» كنت أيضاً كعم «جبر» تتحدثين عن «ثامر» ولكن بنفس طويل . . تقولين :

* ما عدت أستطيع تحديد مشاعري نحوه . .

أصبح بيننا جدار من زجاج ، وهذا الجدار أنتِ . .

* لكنني لا أعنيه «يا فضة» . .

* * لأنك حوله ، وواثق منك إلى حد أن نظرته تتخطاك ، وسيأتيه يوم يحلف بقلبك الطاهر . . وبحبك الثمين . .

* * حدثيني عنه . .

* * كنتُ في الرابعة عشرة عندما حضر «ثامر» كأول طبيب للمستوصف الذي نفذته الدولة للرعاية الصحية في البلدة ، وكان افتتاحه بداية صراع على ضفاف الجد العظيم . . صراع يحاكي صراع حيوانات الليل في الأدغال المتشابكة قرب الجد العظيم . .

لم نكن نعي معنى ذلك الصراع الذي نشب بين السبتي وجيرانه ، لكننا صفقنا جذلاً حين قالوا لنا :

* لقد استؤجر البيت الجديد الذي أنهاه «السبتي» قرب الشارع العام لسكن أولاده مستوصفاً .

«السبتي» يعرف كيف يُدخل العالم تحت إبطه ثم يشنقه بالمعروف . .

ليلة افتتاحه . . نُحرت خمس «نوق» وتسعة خراف ، وأقيم حفل كبير استمر حتى الحادية عشرة ليلاً . . بعد أن رُشت الأرض القريبة من المستوصف وفرشت

بالسجاد الصوف . . وفي كل ناحية من مكان الحفل عُلق فانوس كهربائي على عمود طويل ، ونثر الشيح حول أطراف المكان من أجل أن تطرد رائحته الهوام والأفاعي .

وتنادى أهل القرى لحضور الافتتاح والترحيب . . بطبيب المستوصف الغريب . . وبدأ كل رجل يسرد متاعبه مع المرض وعدد الأطفال الذين ماتوا بالحصبة .

والجروح التي أكلت أجزاءً من أجساد العمال . . والنساء المزارعات . . والهوام التي تحتاج إلى مكافحة بعد جفاف الأرض ونزوح الجد العظيم وميوله تجاه الشرق . . وتراكم الرمال والحفر والأدغال باتجاه طرفه الغربي .

«السبتي» حين يرقى سطح الدار الكبير ويفترش «الشماسي» يشير بيده . .

كأن الأرض ترتفع بنا كلما مال مع الوقت . .

انظروا . . .

لقد حاول الجد العظيم قهري . . يعانق مزارعي بزبده وغواربه ، ويأكل نصفها . . ألقاه برحابة صدر ، وأعانقه بها لألجو من غضبه . . أرفع يدي . . الله أكبر . . وأصرخ به . .

* كلها أيها الجد العظيم . . لكنني لن أردد دعاء الرجاء ، فالعجوز «أمي» بلا هوية تشعرني بالاستسلام ، وبأنها في ملكوت الله . .

. . .تلك الحادثة التي شتتت نصف عبيده وحيواناته ، وأضاعت أمه . . بيد الجد العظيم . . الذي فاجأهم بعد انعطافات عديدة بين جبال السروات . . . عزز في ذهن «بركة» إيماناً بأن الجد العظيم هو البرزخ ، وأن كل الموتى يخرجون في الليل يعربدون ويرقصون ويأكلون ويبكون فيه . . حين أقسم «جبر» بأحداث شهدها عبر حياته على ضفاف الجد العظيم لم يكن كاذباً . .

ولم نكن نشك مطلقاً في صدق حكاياته . . وهو يذكر تماماً ذلك الحدث . . .

يوم دخل المزرعة لأول مرة شاباً رقيق الحال ، له وجه آسر مشرق ، وعينان ملونتان . . أرعب القوم . . وأولهم «بركة» .

* يا رحمة الله . . رجل مفقوع العينين . .

كلفه «السبتي» بحراسة المزارع من البدو الذين بدؤوا يهاجمونه . . ويرفعون حدود أراضيه في الليل . . ليعيدها «جبر» مع شروق الشمس في صمت . . علمه له «السبتي» . .

* احذر هؤلاء الخفافيش . . لو كانوا أصحاب حق لبرزوا لي في النهار . .

ولكن الخفاش الكاذب . . ابن الظلمة جبان . . أحد الخفافيش التي قبض عليها «عم جبر» كانت عمة «زينة بنت الرعيان» امرأة أصبحت فيما بعد جزءاً من أفراد البلدة وأهلها . .

«السبتي» يقول لها بولاء . . أنتِ المرأة التي ربت أجمل نساء البلدة . .

«وزينة» صاحبة اللثام الذي أغوى «السبتي» حين خلعته «جميلة» في صفرة العصر لتقرأ عليها آية الكرسي والمعوذات . .

* ما بها هذه الفتاة المسكينة . . ؟

* مسكونة بأولاد حلال . .

* لنستدع لها طبيب المستوصف . .

«زينة» أول مريضة تدخل المستوصف بعد ليلة الاحتفال التي استبشر بها أهل البلدة والقرى المجاورة ، تلك الوجوه المتعبة المكروبة لقلة ذات اليد عندما ابتدأ «السبتي» وقدم أول دعوة للطبيب الجديد .

* العشاء يا جماعة . .

تبعه في دعوته بقية الرجال الميسورين . .

الدعوة عيد . . عيد جماعي لأهل البلدة . .

تحرك الكتبة من أهل القرى لكتابة «المعاريض» التي تُملى عليهم من أفواه الرجال المعوزين التي سيقدمونها لرئيس البلدية المدعو إلى وليمة «السبتي» . .

أحد الرجال . . لم يعرف رغم تحري «السبتي» عنه أشاع بين المدعوين :

* يا جماعة . . مع كل واحدٍ منكم ثلاثة آلاف وإلا فلا يعرض وجهه على الرجال . .

* آخر صرخ بسخرية . .

أنا لا أملك إلا أن أرفع علماً على ظهر بيتي ليعلم رئيس البلدية أنني من أهل هذه البلدة . . وسأحمم «حمارتي» البيضاء لتختال في السبل . . فالحمير أولى بالتناسل . .

. . .روائح البخور . . وضحكات الرجال ودقات الطبول أغرتنا بالصعود إلى السطوح ، والوقوف في المنافذ القريبة . . لمراقبة الساحة والرجال القادمين من القرى والمدينة الواقعة على الضفة الأخرى من الوادي . . .

لم أشارك حتى بنظرة في تلك المراسم . . لذلك نسيت ولا أستطيع سرد أحداث تلك الليلة بالتفصيل . . لقد شغلني في ذلك المساء شيء آخر . . التسلل إلى سقيفة عم «جبر» وسرقة صورته .

٣٢

«فضة» منتصف عام ٩٩ . .

قررت أن أنهي «ثامر» من حياتي للأبد . .

هو اختار ذلك . . وويله من نفسه الطماعة . .

وها أنا أفتح نافذتي . . كأنما أنزع برقعاً سميكاً عن وجه «جدة» الصباحي الذي غسله المطر المتناثر كهرمانات فضية في منعرجاتها وطرقاتها الجذابة . . ماذا لو هبطت سريعاً ورفعت عن ساقيّ أردية الهم ، وركضت أستنشق هواءها بدون وساطة من خمار أسود يحجب الرؤية السليمة ، ويعرقل دخول الهواء نقياً إلى رئتي . . وبدون إذن تحرك الدم وتغير مجرى انسيابه الهادئ ، وشفاه تكيل لي المحاذير ، وتبطن في لهجة عادية آلاف الأنواع من التهديد والوعيد .

«جدة» عارية ، وأنا أود أن أعانقها عارية من فائض الثياب ، ذلك الفائض الأسود الذي يعرقل حركتي . . أود أن أحادث الناس ، وأن أجالس أولئك الذين يستنشقون مع «ثامر» هواءها منذ الطفولة . .

أتحرق لممارسة جنون التعري تحت سماء «جدة» ، لأن عيني «ثامر» لن ترياني ، فهو ما تعود أن يضع يده في يدي لنتسكع قرب البحر ، أو لنتناول كوباً من القهوة في غفلة من العيون في إحدى الزوايا المزدحمة . .

لا يأتيني سوى هاتفه الذي يرتب للقاء يُجيِّره لحسابه وظروفه . . كل شيء

في «جدة» يأخذ خطوطاً مستقيمة ، وكم أكره الخطوط المستقيمة ، هذه المدينة المدللة بحاجة إلى شيء من الفوضى الظاهرة المطلقة المشاعة للجميع . . لأنها بحالها الراهن إنما تشبه تلك المرأة التي تبسط يدها بالنهار ، فتعطي دون حساب لكل الأفواه الجائعة ، والعيون المتلهفة لرؤية الجمال الفاحش والغنى الجاهز . . حتى إذا تدانت الأستار . . كشفت عريها غروراً وشبقاً ، وأشارت من طرف خفي بلسانها . .

أين مفتاح السرّ ؟ .

الذي يعطي الإذن هو أيضاً يقذف بمفاتيح السرّ .

«جدة» وطن الفوضى في الليل . .

لكن الدخول في الفوضى المستورة يحتاج إلى مفاتيح ، وكنت الوحيدة التي لم تستطع استعارة مفتاح من النجم . . إذ كلما رمى إليّ بأحدها تلقفته سنارة الخوف وألقت به في البحر . .

* هل أغوص في البحر ؟ .

يبدو أن «ثامر» يريدني أن أكون سمكة أجيد العوم في البر والبحر كأهل «جدة» . . الذين شربوا هواءها منذ الصغر . .

الدرس صعب . .

وها أنا أرسب المرة تلو المرة . .

والرسوب يعني فقد الهوية . . والذوبان في مجاري الإهمال . .

كان البكاء مراً . . وأنا أمد يدي لمصافحة «ثامر» .

قلت له وأنا أصلح من وضع عباءتي المهملة . . ليس عجزاً مني في أن أستمر في حبك . . ولكن يقيني أنك عاجز عن فهم حب امرأة لا تدوسك بطغيانها أو بتفاهتها . . أنت آدم الوحيد الذي لا يعرف أنه ذكر إلا من بابين اثنين . . المرأة الطاغية . . والمرأة التافهة . .

أما حواء . . التي تهديك وسادة الحب في شيخوختك . .

والشيخوخة هي الطعنة الكبرى التي ستعلمك أن الأنثى تلك التي تسمو بك

نحو الأعلى وتقبلك على علاتك . . لن يكون من السهل عودتها . .

«فضة» رحلت . . والشيخوخة المرّة لن تسعفك بتافهات . . لأنك ما عدت في البلدة الطيبة ونسائها الطيبات . .

الفراق . . مرّ . . كما حدثتني «فضة» قائلة . .

«ثامر» قتلني تخيل فراقه . . وليلة الخطبة دلقت على ثيابي «ماء الكلور» ، وأنكرت عليّ «جميلة» ذلك البكاء الغريب . . وصرخات «السبتي» الذي شدد الحراسة عليّ حين أكدت له نساء المنزل آثار البقع البيضاء المنثورة على ثيابي الجديدة . . وحلف اليمين قائلاً :

* سترتدين هذه الثياب التي أتلفتها . .

حين خرج أخرجت رأسي من النافذة . . ليصدمني المكان بالضحكات والأحاديث الخافتة . .

وبرز لي وجه «ثامر» يتقاسم مياه المطر مع «زينة بنت الرعيان» .

بصقت على يدي اليمنى . .

* لعنة الله على الرجال وأولهم «ثامر» . .

هدأت نفسي مع هدوء العاصفة التي أطاحت بأشجار الحوش الخارجي ، وزعزعت طيور البيت وحيواناته ، وأسكتت «نبهان» إلى الأبد . .

«نبهان» حارس الليل الأمين . . على جثته يزغردون ويتقاسمون الزاد المصاحب لمياه المطر . . التمر المغمس بالسمسم والعسل وعين الجمل واللبن والقهوة . .

واللذة العظمى المصاحبة لجو الاحتفال . . الغمز الذي وصلني والصوت الحاد الذي لم يخف . .

* لقد رأينا يوماً أسود في «جميلة» ، غداً ستلد العروس ولداً . . لحمود . . بلون التمر . .

وجميلة تحوم «بمبخرتها» وثوبها الأسود المطرز بحبات اللؤلؤ ، وتحث الصبايا على توزيع التمر والقهوة على المدعوات ، وعندما تجذبها من يدها إحدى القريبات أو

الجارات قائلة :

* ماذا جرى لكم «يا جميلة» هل أقفر بيتكم من سكانه . .

تقعي موجوعة وتقسم سراً . . بأنها تحترق حسرة . . فكيف لابنها هي أن يتزوج سليلة القيان التي كانت طفلة معلولة ذات بطن منتفخ ، وسيعود لها مرضها مهما طالت الأيام ، فالكل يحمل علة طفولته المنطفئة مع أيام الشباب التي تعود لتنبت في خلاياه مع الكبر ، زاد على ذلك أنها ابنة «يوسف» الأبرص الحليق الذي كان يتسلل عند انقضاء ثلث الليل إلى حيث من ترضى أن تدخله سراً أو علانية ، حتى إذا شعشع نور الصبح عاد إلى مضجعه مبللاً بمياه البرك الراكدة ، وعلى عتبة الباب يكون أول من يصحب «السبتي» إلى المسجد . .

وعمتي «بركة» . .

هائمة وسط البقعة المقدسة . .

مزارع العنب . . وأحواض النعناع . . وحين ترتفع إلى أعلى . . أعلى . . أعلى عبر المنحدر الذي يناجي الجد العظيم ، تفترش حصيرة بالية قرب «نبهان» وابنه في المذبح . . تعلم أن حياتها موقوفة على تلك الأشياء التي يعشقها «السبتي» ، وأولها أبواب المنزل التركية المحفورة بيد «أبو كبر هرنس» . .

قبل أن يغادر «السبتي» لأداء صلاة الجمعة ينادي . .

* يا «بركة» الأبواب محشوة بالتراب . . !

قطع الروز والماء المغشوش بالزيت . . عملها الأكثر إتقاناً لتفوز بابتسامة منه . . هي كنوزها وثرواتها التي فتتت مع الأيام قلبها الواجف الذي أكله حريق الإهمال ، ووهم الدعاء في الليل الغامض دون بصيص من أمل . . دعاء . . دعاء . . وابتهالات . . والدعاء غير المستجاب في عمق الليل وبين الأذان والإقامة أضاف إلى معتقداتها التي غرسها «السبتي» في عقلها دون شعور منه حين يقول :

* هذا الجد العظيم . . كله قبر أمي . .

* قبر أمك . .

* أجل يا «بركة» . .

انظري ها هو يميل كلما امتد بنا الزمان نحو الشرق ذليلاً حقيراً . . تاركاً لنا مساحة أرض أكثر . . ازرعيها بالريحان يا بنت العم إرضاءً لتلك العجوز التي أنجبتني ، وتوهمت أن الملائكة زارتها يوم ولادتي ، فحجبتني عن العيون عاماً كاملاً . .

يضحك بازدراء . . ويتنحنح بصوت عال ثم يبصق أمامه . .

لا أذكر أنني رددت دعاء الرجاء عندما يقبل الجد العظيم مع "غواربه" مع السحر ناهباً نصف أملاكي . . ليس هناك فائدة . .

حديث «السبتي» الذي يخص به «بركة» تحزم عليه طرف «شيلتها» معتقداً وعقيدة . .

ورسخ في ذهن بركة . . قوله :

* لا تكثري من الدعاء لأنه لا فائدة . .

عقيدة تعمقّت في داخلها . . ولم تنتبه لمداها الذي أضاع عليها فرصة إتمام ركن من أركان دينها إلا ليلة موتها . . عندما . . نادت . .

* حجي لي . .

* . . . تلك التبعية يا «فضة» جعلتك تضحكين وأنت تقولين لي . .

* عمتي «فضة» ما عادت تزعجني برش الماء البارد على وجهي فجراً . . لأداء الصلاة . . ثم إنها حين تراني أرفع يدي في ليالي الشتاء الطويلة تقول بهدوء غريب وصوت منخفض مبحوح :

* لا تكثري من الدعاء «يا فضة» عليك بالصمت . . وارفعي عينيك . . عينيك فقط نحو السماء . . عاتبي هذا الكون كله . . آخرها . . كان يوم دخلت عليّ . . وصرّ خلفها الباب . . . رائحتها القوية . . تأملتني . . ثم رفعت عينيها نحو السقف المطعم بالجبس الملون والثريات الصغيرة . . تركتني . . وخرجت . . أطبق صمت أسود ، وتصلبت وسط غرفة مفروشة بالسجاد الأحمر ومزينة الأركان بالخشب الأسود المنحوت في الحائط . .

السرير واسع . . والمرايا ثلاث ، والثياب ملونة وكثيرة وملطخة بماء الكلور . . وقوارير العطر غريبة . .

* من فعل هذا كله . . ؟

أدور حول نفسي . . أتلمس أشيائي الجديدة . . أفتح الأدراج والخزانات . . عالم لا يمت لي بصلة . . كل شيء جديد ومخيف ، ولم أستطع لفترة أن أستوعب فكرة أن كل ما حولي ملكي ، وأن تحت أضلعي غلة العمر . .

ورقة بيضاء . . وثلاثة أقراط رخيصة . . وصورة بالية لعم «جبر» . .

تمددت على ظهري ، ورفعت قدمي اليسرى إلى الأعلى فجلجل الخلخال . خفضتها سريعاً لتعثر القدم في أطراف «الكرتة» الواسعة . . انطفأ النور لثانيتين فقط . . تصاعدت في الأجواء طلقات الرصاص في الخارج ، والمناداة الجهورية على الحضور من جانب «السبتي» لتناول طعام العشاء . . صدح من البعد رجع شاحب . . غناء العمال فوق البرك المسقوفة . . شجع الأطفال لإطلاق أصوات المزامير . . مما أغضب العجائز . . فهي تدعو الهوام من جحورها . .

. .أشياء براقة ، ومرايا وعقود مخبأة في صندوق عاج صغير . . وأمنيات صفراء بعيدة المنال كالحلم بزفة حضرية يصاحبها صوت «محمد عبده» في صالة بحجم البحر قرب البحر . . و«ثامر» يتأبط يدي بوردة بيضاء . . أغنيات خضراء ، وزخارف ملونة لحياة مجهولة ، لمعالم تصطف جنباً إلى جنب مع صورة ذابلة باهتة . . ترتعش النافذة بطلقات الرصاص . . فتتقافز الأشياء المنسية من صدري نحو الأركان وخلف الستائر ، وتتعلق الأحلام بزخارف السقف . . الصورة فقط تظل متعلقة بحبل السوتيان الصغير الأبيض المتسخ الحواف .

. . لا أنسى . . يوم حملتها بين يدي من تحت طرف الفراش . . فراش عم «جبر» ليلة الاحتفال بافتتاح المستوصف ، وحاولت الهرب عندما فاجأني «جبر» . .

* ماذا تفعلين هنا أيتها اللصة الصغيرة ؟ .

* أريد هذه يا «جبر» . .

* بأي شيء يفيد الماضي . .
* إنها صورة مذهلة . . إنها أنت . .
* هي رسمة رسمها لي شاب في فلسطين . .
* سآخذها . .

كل ذلك الإرث بقي بعدك «يا فضة» ، ومن عمق جذع الكينا العجوز انتزعت تلك الصورة المدموجة من وجه «ثامر» و«جبر» . .

وجه غريب . .

وقد حذرتنا «جميلة» من النظر أو الحلم بوجوه غريبة . . حلمت ليلة سرقتها من جذع الكينا . .

بأنني عروس . .

كنت قد «مت يا فضة» ولا أُذن بعدك تسمعني . .

ثم إنه لا يؤمن بالأحلام والرؤى . .

لأنني كثيراً ما أحلم به يضاجع صوت امرأة أخرى في مكان . . ما . .

قلت له ذات مرة :

* أنا من كماليات حياتك الخاصة . . ورحت أسرد عليه تفاصيل الحلم . .

قاطعني ضاحكاً :

* بعد عشر سنوات ستصبحين نبية هذه الأمة . . «ثامر» واع لكون كماليات الحياة . . هي طعم الحياة الأكثر لذة . . وأنها حياة الحياة . . وأن الضرورة قيد إن كسرته مت . . يعلم كل ذلك ، ولكنه يؤجلني ، يؤجل حب طفلة بلهاء . . لوقت ليس معلوماً لديه . . حبها الذي يعتبره إضافة مساندة لحب فتاة سمراء وقوية . . واعية تماماً لمقولة «لا تفرطي له حبات المسبحة» خفاء وحيرة حبها «لثامر» الذي يتساقط التفاح بين يديه ، فيؤجل المتعة به بحثاً عن الطبق والسكين . . حتى إذا جف ماء التفاح . . وضمر . . تذكر يده وأسنانه . . «وفضة» التي ماتت . . دون أن تؤكد له موتها . . ودون أن تؤكد لي سرّ العرافة الدمشقية حين فتحت كفي وكفها . . خلف أسوار المسجد الأموي . .

كنا نركض في الطرقات نبحث عن وجه «ثامر» بصمت ، وحين نفتح شفاهنا بالحديث . . صوتان لصيقان . .

* انظري ذلك . . ألا يشبه «ثامر» . .

* نضحك ونمضي . .

* وكل واحدة تضغط على فوهة المعدة متلهفة للتنفس والرؤية . .

* تتقدمني خطوات «فضة» أسرع خلفها . . أشد بقبضتي على عنقي . . أبلع غصة . .

* إنها تمشي بثقة المرأة المعشوقة . .

فما دخلي أنا . . أي قلب . . كلب بين أضلعي . . أفتح يدي للعرافة . . وتفتح يدها «فضة» . .

كلانا نغرف لها النقود . .

«فضة» تريد أن تجد بين خطوط كفها . . قلب «حمود» ، وأنا أريد أن أقبض على «ثامر» بين شفتي ضاربة الودع . .

لم تقل «لفضة» سوى بضع كلمات بعد صمت طويل . .

* (موفقة . . موفقة يا بنيتي)

لم تكن فضة لحوحة . . سحبت يدها . . وببساطة راحت تقضم قطع السمسم الجافة . .

فتحت بدوري يدي للعرافة . . ثم فتحت الأخرى بجزع قالت سريعاً . . وهي تمضي . .

«في البخت ولد غريب . . بس زمانه بعيد شوي . . وأحذرك . . لا تفرطي له حبات المسبحة . . تنهدت وهي تبتعد . . لا تفرطي له حبات المسبحة» . .

«فضة» . .

تعالي . . وأخبريني . .

هل يمكن أن يكون «علامة» الولد الغريب . .؟

اللوحة المدموجة من وجه «جبر» و«ثامر» . . التكوين المغاير لهيكل «حمود» . .

الولد الغريب الذي جرح ذيل عروس البحر بحنجرة ساحر وقوس أعرابي . . ومنقار هدهد . . يقيس المسافة ذات الشمال وذات اليمين ، ويعرف وجهة البوصلة ومقدار المسافة بين الخريف والربيع . .

وبدايات الصيف الزهي وبرد الشتاء . .

«علامة»

فرحه بي يرعبني . .

قال في أول سفر له إلى الرياض . .

* حين أسمعك أقبض أنفاسي حتى تسترسلي في الكلام . .

أكون قطعة منديل من الورق . .

قطرات من الماء تجعله يذوب . .

مزيد من الجنون يلغيه . . فيتوحد بك .

«علامة» ينمو بحبي ، فتنبت بيننا مساحة أكبر من مستحيل

وأنا أغذيه . . برسائلي القليلة . .

أجعله يعود لخوض غمار معارك الحب والجمال ، حلمت به ذات ليلة . . رأيته وسط مزارعنا الكبيرة . . مر قرب المكان الذي أجلس به لم يرني . . تجاوزني صرخت . . لأن جزءاً من شعري التف حول إصبع قدمه الكبيرة . . كيف حدث لا أدري . . صرخت به .

* حله . .

صحوت وهو لا يزال يعالجه . . فما انحل . .

حدثته عن الحلم . .

قال ببساطة :

* أنا سعيد . . ومبسوط . . وفرح . .

ثم غنى بصوت بحار ، وحنجرة قائد حرب قديم . .

أحبــك لا أدري حــدود محبتــي

طبـاعي أعـاصير وعـاطفتي سيل

وأعـرف أنني متعب يا صديقـتي

وأعـرف أنـنـي أهـوج أنني طفل

في الرياض قلت له «فرمل» هذه المشاعر . .

لا تدلق إناءك كله دفعة واحدة . .

فأنا أراك كالبحر . . الذي يغويني بأمواجه الساكنة بزرقته العجيبة فأشمر عن ساقيّ . . وأظل أذرع الشاطئ متلذذة بدفء الماء ودغدغة التراب والمدى الشاسع . .

لكنني لا أزال أتلفت بحثاً عن الماضي . .

بحثاً عن وجه «ثامر» بحثاً عن أمس . .

يقول بهدوء . .

* القضية منتهية بالنسبة لي . .

* «علامة» علامة الزمن الفارقة «يا فضة» . .

وجه أبيض . . ولسان أنيق . .

جسد مضاء . .

من مفرق الشعر على الجبين العريض حتى بثر الكرز ملجأ إصبعي حين يعابث سلك كهرباء عارٍ وسط المطر . . فتندى الغابات ذات الأغصان الكثيفة السوداء . .

بقطرات حليب دافئ . .

على شرفات الصدر . .

ومغارات الأصداف المهجورة قرب الشواطئ . . تحت الصخور . .

تَشرّق بالماء . . الذي يثقلها فتنغرز أكثر في الرمل . . أسأل نفسي . .

«فضة» ما عادت هنا لأسألها عن خبر الولد الغريب . .

ومن تلك المرأة التي كانت أولى اشتهاءات «علامة» وزنبقة الحلم السوداء . . والوردة المعتقة باحمرارها . . والعطر البري الذي يزفر به صدره . .

كيف أفلتته . .
ولماذا لم تدرك . . أن الله حين خلق الجمال سأله
ما ينقصك ؟ .
قال : حرارة الذكورة . . النار والنور . .
السرمد
الذي يحيي العظام وهي رميم . .
سألت «علامة» . .
فهرب إليّ بضحكات . . تذوب كضوء القناديل
عنفوان «علامة» . .
يجعل الحاضر ملتبساً بالماضي . .
فأوقع على دفتر الزمن . .
«علامة» رجل لم ترهقه النساء . .
أفرح . . أطير . . وأعانق الدنيا . .
صرت ملكة الوقت . .
يوم تسلقت الجزر البيضاء الواقفة على بوابات الأرض المترفعة بإباء عن مساحات الماء والبحار . .
تسلقتها من باطن الركبة حتى الذراعين . .
هاتان الذراعان . . عمودا «فضة» . .
اكتشفتهما امرأة جنوبية مزدانة بعقود الريحان والشيح . .
فعاد السؤال . . والشك المريب . .
أيعقل أن تكون البنت الحضرية . .
غافلة عن انسيابية أعمدة الفضة . .
وروائح العشب في فمه .
لمَ . لم تخبره . . ولمَ . . لم تجبره . . ولمَ . . لم تسجنه . . ولمَ هو يلبس الماضي بالحاضر . .

ويرقصني على خاصرته المشدودة بقوة الإحساس الذي يغويني .

هل أسره الشيح الجنوبي . .

الذي زرعه بمهارة فوق عادات الشقاوة القديمة .

«علامة» حين يعلن حبه . .

يعلنه بحكاية قديمة . .

بقصيدة شعر تهوي إلى داخلي كالبركان .

حين أفكر بالغياب . . وأهجر الهاتف . .

لا يصرخ كالجائع . . لا يصرخ . .

وإنما يُعيد هيكلة نفسه . . يصبح كالأرض المحروثة . .

يبدأ من جديد . .

مع حبات القمح والماء والهواء . . كأنما يقول :

* لا تتزعزعي أيتها السنبلة . .

«فعلامة» له عادات أنت خارج نطاقها .

هو مزارع عتيد يحب شتلات الورد . . كما يهذب جذوع العرعر . . فإذا استهوته عادة الفلاح انتبه . . وركن إلى ظل كتاب بين طياته يجفف عشرات الزهور . .

هو مدخن قديم . . وإذا شعر أن عادة الإدمان بدأت تتسلل إلى دمه . .

لا يناضل ويتظاهر . .

وإنما يشير بيده اليسرى . . إلى تلك المنطقية . . منطقية رفض القبول بالأشياء التي نتحكم بها . . يقول لي :

ليس علينا أن نخسر هذه الحياة الحلم . . بالخضوع لعادة أو تصرف . . أضعف منا . .

أن العادة من وجهة نظري قالب شمع باستطاعتنا أن نحوله إلى شكل جميل نمارسه في لحظات تجلٍ وصفاء فمثلاً :

إذا رأيت أمامي على طاولة سيجارة . . وكنت في حالة مزاجية مغايرة . . فأنا

لا أمنع يدي من أن تشعلها . .

لذلك فمن عاداتي القديمة أنني لم أشتعل بحب أنثى بهيج وحميمي على نحو مدهش لأكثر من أسبوعين . .

ولد مشاكس لا يملأ عينه شيء . .

يضحك جذلاً . .

لأنه شعر من خلال تنفسي الحذر أنني أغزل خيوط الحرير . .

وأنه أرض اكتمل نماؤها وأزهرت بفرحي . .

يقول بلهجة محببة :

اسمعي : ليس عليك أن تؤلمي نفسك . .

بالتخفي . .

لتسعديني .

منذ الآن على زهرة الشيح أن تشغل نفسها

بسؤال واحد فقط . .

لماذا غير هذا الولد المشاكس إحدى عاداته الأصيلة ؟ ولماذا يصرّ حتى على رفض مجرد التفكير بتلك العادة ؟ . .

«جاوبيني» «قولي شيئاً» . .

صمت على الخط الآخر . .

* هل الإجابة صعبة ؟ . .

ألا تستطيعين أن تقولي بتحدٍ إن انتزاع لذة الحياة الأكثر عظمة

عندما يفاجأ أحدنا . . بكائن ما . يُعيد اكتشافه . .

يميّله ساعة الشروق نحو الشرق الذهبي ، وعند الغروب يميّله نحو الحمرة المفعمة . .

فيلتمع بالدهشة . . ويقرقر بماء الحياة . .

ثم يغني بتبتل نبي . . وصولة ملك . .

أغاني «بورخيس العجوز»

[القمر لا يعرف أنه هادئ وضّاء . . ولا يعرف حتى إن كان هو القمر . . الرمل لا يعرف أنه الرمل . . ما من شيء يحس بشكله بغرابته . .]

سألت «علامة» قبل أن يغلق سماعة الهاتف . .

* هل ستسافر قريباً إلى مكان ما ؟ .

* إلى مكة . .

أغلقت سماعة الهاتف على حلم كبير حلم عظيم . . كقمر بورخيس . .

٣٣

بانسياب حذر . .

نجلس أنا و«فضة» على براميل الزيت الفارغة . . نراقب ليل البلدة . . تحدثني عن دومة الجندل . . وأحدثها عن عسير . . الشمال والجنوب . .

الجنوب والغرب . .

لماذا عدت «فضة» من هناك . . وقد قاتلت جدتك الشمالية «السبتي» . في المحكمة قتالاً مريراً .

* جدتي الشمالية «ماتت» . . وما عاد لي من أحد إلا «السبتي» أتذكر حين أخذتني جدتي الشمالية من حضن «بركة» . .

استقبلتني الأرض الغريبة بثياب ملونة ، وسرير دافئ ، وامرأة تجيد صنع الطعام الشامي . .

لم يكن المنزل هناك كبيراً . .

ولم تكن هناك أصوات نساء ورجال كثيرة . .

الأرض براح وسكون . .

غلاء الأسعار والأنواع المحددة القليلة لأصناف الغذاء في المحلات التجارية يثير غضب جدتي . .

تريد أن تطعمني لذائذ الدنيا . .
وحاولت أن تخلع خلخال البنات . .
* دعيه يا جدة . . إنه حرز ابتاعت عمتي «بركة» من أجل أن تشتريه لي جزءاً من نصيب أبي في المزرعة ، ووضعته في قدمي ليلة صحوت على نقاط حمراء على ثيابي الداخلية . . ألبستني إياه بيد مرتجفة . . وقالت :
* اسمعي يا ابنة أخي ورددي خلفي . .
* يا «حرز يا حريز
للخاتم البهريز . .
يا حرز يا حريز . .
تحفظ لنا الدرة . . لو جمحت المهرة»
جدتي الشمالية : تجعلني أغني لها أغنية حرز الدورة الشهرية . . البشارة التي لا بد لها من حارس ومن دليل . .
الخلخال العتيق . .
يا «فضة» . .
نُزع من كاحلك ليلة عرسك . .
ليلة حلمت . . أن أملاكك الصغيرة نبت لها أجنحة . . حتى صورة عم «جبر» . . قلت . . لقد رأيتها في المنام بجناحين تتشبث بي ، ثم ترتفع وتنخفض على ذبذبات هواء الغرفة القليل . . لأن امرأة صغيرة تشبهني . . اقتادت حمود وهربت به من النافذة . . فطار خلفهما الثوب الأبيض الشفاف المطرز باللآلئ الملونة . . فُرد له جناحان وطار ، وخلفه القفازان والحذاء الصغير ذو الوردة البيضاء وطوق الشعر المورد بزهر الياسمين الحية وقميص أزرق كماء البحر وجموعاً غفيرة من الكائنات الصغيرة . . كانوا قد بنوا بأصابعهم عشاً لها لتلك التي تشبهني . . على حرف الوادي الخفي تحت العرين الكثيف . .
تراءت لك تلك الأحلام «يا فضة»
لحظة أن أقسم حمود «أن يكويك كية العمر»

فأردت أن تحرقيني بها قبل أن ترحلي . .

كنت تحرقينني . .

وكان «ثامر» يقرر ذلك . . . . .

وحمود . . الذي يعلن حبه لك في هلوسة ليلية فيخالط اسمك «يا فضة» شخيره العالي . .

يهذي بك . . في حين يشدد قبضته على عنقي

* أنت ملكي . .

* أُريد الطلاق أرجوك . .

* الباب مفتوح . . اذهبي إلى أقصى الأرض . . مصيرك هنا . . لأنك ملكي . . ملك حمود . .

* أكرهك . .

* لا يهمني . .

وقفت ليلة هروبي «يا فضة» بيني وبين الباب . . ولفحني عطرك البارد الذي تحرصين على ركضه خلفك حين تسيرين في الطرقات قلت لي :

* يا مجنونة «اعقلي» ثلاثة أشهر ونصف ماذا سيقول الناس ؟ . .

* لقد قال الناس «يا فضة» . .

* وضحكت «جميلة» ضحكة عارية . . وأنا أدخل المنزل في الخامسة والنصف فجراً . . بعد يمين قاتلة من والدي حين دخل عليّ غرفة نومي الواحدة صباحاً قومي . . يا كلبة . . وانتزع من يدي نتيجة النصف الدراسي الثاني الحلم الذي حققته . .

* طردني باحترام . . وأقسم لو كررتها . . سأسجنك عاماً بأكمله عن نور الدنيا . .

* . . .سجنت نفسي براً بقسمي أنا عاماً ونصف العام في الحضرة أراقب حملك «يا فضة» . .

* نسافر معاً ونعود معاً . .

* وفي القلبين وجع اسمه «ثامر» . .
وكان الهروب الثاني «يا فضة» . .
بعد صدمة الموت . .
فراغ . . بعدك الدنيا . . وبدأت الوجوه . . تتراءى لي كوجوه الخنازير النتنة . .
صفعني والدي . . عندما وجدني أقف أمامه في شتاء قارس . . ازرق معه وجهي وتورم أنفي .
* فضحتني يا حقيرة من أخي . .
ما عدت اهتم لصراخ أبي وتهديداته . .
فقبر القش شل تفكيري . . والقبر الذي جاوره بعد ثلاثة أيام من موتك . .
أشاع في البلدة همهمات . .
امرأة . . حملت حراماً . .
ودفنت فضيحتها في ليلة ظلماء . .
وأغلقت محاضر الادعاء الوهمية واللغط . .
«فضة» كان هروبنا متزامناً . .
. . .أتعتقدين . . أنني مت . . وأن القبر الرطب قبري . .
في صيف ٩٩ حملني الشوق «يا فضة» لأن أزور الجد العظيم . . في الطريق خُيل لي أن المزارع النقية تئن بأشواقها المضطربة إلى هدير الجد العظيم . . .
الذي حُجز بين جبلين عظيمين . . وكبل كالأسد الجريح بحاجز من الصلب والحديد والإسمنت المسلح ، ومن أجل أن يسكتوه زرعوا حوله شتلات الورد والطرقات النظيفة ليصعد عليها أهالي البلدة ينظرون إلى التحفة التي أحاطت بالجد العظيم وسلبته جبروته . .
ومن منتصف المسافة عُدت . .
لم يكن «السبتي» يحب الجد العظيم . .
معارك طاحنة . . جاوزت الخمسين سنة . . وفي النهاية قُيد أحدهم في سجن عبقري ، والآخر مات ، وكانت أولى دلائل الموت . . عند «السبتي» حين شعر

ذات ليلة أن هنالك شيئاً في الجهة اليسرى من قلبه . .

مـال نحـو نسـاء الحي اللاتي يقـرأن المعـوذات وآية الكرسي على المسكونة الحسناء . . «زينة بنت الرعيـان» حـرك لسـانه الثـقيل والذي لم يتـعود الكلام اللطيف . .

* ما أجملها . .

* قلب شفتيه . .

لكن كيف لها أن تستر رجولتي المشوهة ؟ . .

«ثامر» رجل ثرثار . . .

تحدث لكِ يا «فضة» دون تحفظ عن رجولة «السبتي» المشوهة . .

اختاره «السبتي» . .

ليجري له عملية الختان المتأخرة جداً . .

ليعالج بالجرح جرح هوى امرأة جسدها ملك «الجني» يضاجعها إجباراً . . قال :

* اسمعي يا «فضة» «زينة» زوجة مسكونة بوهم ، وعمك مسكون بها . .

* لكنهـا أقسـمت بأن ابن الحـرام يمنعهـا من التطيب والتزين لعـمي . . وحين تعصيه تصحو بعد إغماءة طويلة على حز شديد في إصبعها الرابعة . . في اليد اليمنى . . هذه إشارة يؤكد بها «الجني» أن خاتم امتلاكه قد نسيته .

تشعر بدوار . . فتموء كقطة . . وهي تتحسس يد «السبتي» . .

* سيدي أنا لست لك هذه الليلة . .

تذهب بعدها في إغماءة طويلة .

يُجن . . «السبتي» ويرحل بها من بلدة إلى أخرى ، ويطوف بها أنحاء الدنيا بحثاً عن دواء . .

تقرصينني «يا فضة» بضحكة شقية . . قائلة . .

* مصائب قوم عند قوم فوائد . . أجمل ما في المسألة الحرب التي عودتنا على السفر ، وكملت بمرض «زينة» الذي فتح المشروع عن آخره ، وها نحن نطوف الدنيا الجـميلة خلف الركب تضـحكين عـاليـاً ينقص مـاذا ؟ . . قـولي . . تخـفـضين

صوتك . .

صحبة «ثامر» . .

. . .حين عقد «السبتي» على الزواج من زينة . . عقد نية الجراحة . . غير المأمونة . . ورفض المستوصف ، ورفض أي مكان قد يفشي سره . .

وأسرّ «لثامر» بوجعه . .

* إنها جراحة في وقت متأخر وأنت قد كبرت

* افعل يا رجل . .

* حدد المكان . .

* قلب الجد العظيم . .

* متى ؟ . .

* بعد التاسعة مساء . .

وكالعادة . .

نطوف معاً . . «فضة» وأنا بالقمر الذي يستدير فوق بيتنا الكبير . . نطوف بالقمر بصحبة صوت . . «جورج وسوف» ، صوته . . بشارة وجسر . . ودليل يدلنا على مواقع «ثامر» وعم «جبر» . .

بلدتنا . . الجميلة . . بترابها البارد في الصيف . . وهوائها الخليط من روث الحيوانات . . وزهر الليمون وملكة الليل . . بلدتنا بذلك أم العالم بأكمله . .

ومزمار عم جبر . . مختبىء في الصمت الجارح . . هائج كالضفادع التي تمارس احتفالات الخصب والتناسل حول البرك ومناقع المياه والطرقات المقفرة إلا من اقدام «مرهون عقلي» . . الذي عين بعد أن كبر حارساً على المستوصف بعد أن انتقلت مدرسة البنات إلى الجهة الغربية من البلدة . .

عذرنا للخروج . . بعض من الأرز والمرق . . نأخذه من مطبخ «بركة» التي تغطيه بقطعة من الشاش . .

* خذيه يا «فضة» إلى «مرهون» الضعيف . . يدق قلبي فأطير خلفك «فضة» . .

نتنفس بعمق حين نعبر الخارجة إلى الحوش الكبير بحيواناته الهاجعة وصراصير الليل التي تدغدغ الخوف الساكن . . مروراً بالمذبح المفعم برائحة الدم الجاف . .

نتخطى صغار الماعز . . والقطط الجائعة . .

ونتعثر في أكوام التبن وحزم البرسيم . . حتى نتجاوز الباب الكبير . .

طلاقة الدنيا وبرد الأرض وهسيس الحشرات ورائحة سجائر . . ثامر . .

دوار . . دوار . .

دوار . . يهبط بالملائكة من علو . . نراها ترفرف على تعريشات العنب الممتدة على مساحة لا تقل عن تسعمائة متر بشكل عرضي تأخذ شكلاً مائلاً من أعلى المنحدر حتى تستقر جذوعها في مجرى الماء المرتفع المطل على مزارع النخيل بأحواضها الواسعة . .

الباب الخشبي في الليل

كأنه باب السماء . .

باب لقصر مسحور

غوله العظيم «السبتي» . .

الذي تخبط في جبال السروات أكثر من عشرين يوماً وصارع نزوات الجد العظيم ، وأقام في الخلاء والبرد . . مراسم عزاء شارك فيه كل العابرين . . كل سارٍ وسامرٍ ومارٍ بتلك الطرق الصعبة . .

أناخ راحلته وترجل ليصافح الرجل المتجلد . .

* لقد أخذها السيل عنوة . .

* انفجرت الشعاب فجأة ، وكانت أمي العجوز هي الأضعف ، ولم تقاومه . . ولم تكن أصابعها قادرة على التشبث بحجارة الجبال . . فهوت إلى غير رجعة . .

. . .تابع مسيره حتى استقر على حافة الوادي من جهة الغرب متخذاً زاوية حادة . . وتمكن من إحاطة نفسه بسور من الشوك والحجارة وبزرع أشجار الأثل في اتجاهات غير منتظمة مخاتلاً البدو وسكان القرى البعيدة . .

مكان مهجور مكتظ بنباتات الحلفاء الحادة . . مراتع الورل والثعابين وملجأ كل قذارات الكون حين حطت ركابه . .

رمق بنظرة ثاقبة اتجاه الريح . . غربية شرقية تحمل كل القذارات التي تختبئ بذل حول جذوع الحلفاء الثقيلة . .

أكوام من القش والقمائم والتراب المخاتل . .

دفع بنفسه وسط تلك الغابة . . توغل صاماً أذنيه عن نداء «جميلة» . .

* عد المكان مخيف . .

أمر قيانه حين خرج ممزق الثياب تسيل الدماء من قدميه . . بالزغاريد . .

* المكان جنة . .

خلف هذا الذي ترون منحدر عجيب . . ثم مساحة من الأرض الخصبة . . بعدها غابات من العرعر التي تطل على الجد العظيم . .

***

. .في خضم الحياة . . نسي السبتي أنه عبدالرحيم الإنسان . . .

حتى ظهرت «زينة» بلثامها تتقافز على أسطح الدور توزع علب الحلوى الطحينية الفارغة وقت هطول المطر . .

. . .وإذا كفت السماء . . وزعتها بابتسامة عبثت بقلبه وجفن مكسور بصولة الجمال الجامح ورمش يشتبك في ذهول حين يبلله المطر ومرض عصي . . يميل العنق الزجاجي لينطرح على وسادة «رين» مجللة بشعر أسود فاحم . . انتزعت آخر رجاء فعقد العزم على أن يستقبل ملك الموت في قلب الجد العظيم ، وخضع لجراحة دفع ثمنها أربعة أشهر من المرض . . وسنوات قليلة من السعادة التي مات بها . .

عائلة تموت من رشفة صغيرة من السعادة . . تموت من متعة إسقاط الحجاب ورفع الستائر الكثيفة والانطلاق إلى العراء البهي .

«علامة»

قال : بإصرار دون أن يعلم بدراما الموت . .

* لا تخافي . . أنا معك . .

* «فضة» يا صديقتي . .

سعيدة أنا بتلك الوحدة . . بذلك العالم الفريد الذي أعيشه بعيداً عن ضوضاء الحياة العادية . . .

تركت «لحمود» حرية الحياة كما يريد . . وهيأت «لعذبة» أن تكون ملكة كل شيء ، وليلة الصلح جثوت عند قدم «السبتي» وأبي . .

* لكم ما تريدون . . سأعود «لحمود» . .

فقط عليه أن يدع لي جزءاً صغيراً من الدار بمدخل مستقل ، وأن لا يضايقني في حياتي ، وأن لا يطالبني بما لا أقدر عليه . .

ليعطني ما يشاء . . وليمسك ما يشاء . . . لن أطالبه بشيء فقط دعوني أعش بسلام ، ولم تكن تلك هي المحاولة الأولى للعيش بسلام . . كابدت سنوات لأنعم بهدوء . . خاص . . خاص جداً . . . لا تعرفه نساء الدنيا بأكملها افتراضات عدة .

من نساء الدار . . ومن «لسبتي» . .

بأنني امرأة لست سليمة العقل تماماً ، وأنني متوحشة . . قليلة التهذيب . . وأن الله سيعاقبني لأنني أخالف حواء في رسالتها الأبدية تحت عين الله .

٣٤

كل التواريخ جميلة . .

عبارة ختم بها «علامة» ورقة صغيرة جمع فيها مشاعره وزجها «بالفاكس» .

تلقيتها بهدوء . . وبإحساس غريب . .

قرأت السطر الأول ثم أجّلت الباقي . . لحين خروجي من المكتب . .

بعد خروجي قرأت جزءاً ثم أجّلت حتى أصلي ، ولا أدري كم عدد الركعات . . ثم هممت بقراءتها فتنبهت لموعد العشاء . .

أمسكت بقطعة «بيتزا» وعبوة عصير وخرجت نحو المزارع أمشي على هدى نور البوابات الكبيرة . . والورقة بيدي تحت فانوس الباب الضخم . . مقعد مهجور . . جلست على حافته وفردت الورقة التي اتسخت حوافها بزيت «البيتزا» شعرت أنني متعبة . . وأنني أحتاج إليك . .

«فضة» لتقرئيها معي . .

أهملت كل الأسطر بعد قراءتها . .

وتوقفت عند توقيع «علامة» وعبارته التي تساوي كل رسائل العشاق في الدنيا . .

«كل التواريخ جميلة». .

بلعت آخر قطعة من البيتزا . . ومسحت يدي في تنجيد المقعد المغبر وأصدرت

فرقعة شديدة في علبة العصير التي حقنتها بالهواء . .

سكينة تملأ الدنيا . .

لم يعد «السبتي» مصيدة الليل متواجداً . . اندثر تاريخه وبات للحياة مجرى آخر . .

وللتاريخ وجه واحد . .

تواجد «علامة» في يومي . .

ولو كنت «فضة» حولي ومعي لافترضنا معاً «أجندة» نحصي فيها عمرنا من خلال تواجد من نحب .

الأرض عارية . .

والدنيا فضاء . . وسؤال يجثم فوق صدري . .

سؤال يقول لك «فضة» . .

* هل ليلة «مكة» الوهم تدخل في أجندتنا . .

«علامة» رجل قليل التنقل ، وإذا ما جازف برحلة أسجلها كتاريخ جميل في أجندة العمر القصير . . أتهيأ لها بكل طاقاتي . .

ولا أدري لِمَ . . يزداد قرباً كلما ابتعد لقاؤنا دائماً يأتي مع اتساع المسافة . . بينما كائنات الدنيا أجمعين . . ترى أن الحب يكبر وينمو مع تقليص المسافة وتحجيمها . .

«علامة» يسكن مكاناً بعيداً . .

وصوته أقرب إليّ من تنفسي ودم الوريد ، وكلما ابتعد ملأ حياتي فرحاً ونشوة .

الاقتراب شبه معدوم . .

لذلك نجد التواصل في الأحاديث اليومية عبر الهاتف نتقاسم لذة العمر الباسم من خلال فرحة بريئة تجدد دماءنا . . ووعود بنفسجية . .

بغد باسم . . ولقاء مفعم بالجمال . .

هكذا يبدو البعد أحياناً أكثر حميمية وإلفة ونقاءً ، وما بين رحلة الرياض

وسفر مكة . .
أشهر طوال . .
سؤال مكتوم في ظلمة النفس . .
كيف سيكون لقاء «مكة» ؟ .
وكيف ستكون رعشة الحب ؟ .
ما طعمها . . ما شكلها . . ولونها . . وقوتها ؟ .
كيف سيكون طعم الأشياء وهي في الذروة وبعد سقوط الحجاب ؟ .
أسئلة بقيت عالقة في فراغ الانتظار . .
طعم التوجس والحذر . .
طعم الرغبة لامتلاك رجل غريب يبدو جذاباً ومختلفاً . .
كبرياء . . كنتُ أحسه يتملكني . .
وأنا أحدث نفسي . .
أنا أعجبه . .
أتفقد نفسي وإمكانياتي بشك وأتساءل :
أحقاً أعجبه . .
أين مكمن المغناطيس ؟ .
أم إنها ضربة حظ . .
أو دعوة مستجابة . .
أم لفتة ربانية
لصوت «علامة»
سحره الذي لا يُنسى وهو يهتف :
أنا سعيد . . سأموت من السعادة . . عبارة . . فتتت أسلحة المواجهة .
كان حبه صدمة . . ولا يزال صدمة . .
استوطنني صوت «علامة» دون مقاومة تذكر بعبارة صغيرة . . «أنا سعيد بك ، وسأموت من السعادة»

وعلى مدى أشهر بدأ جذع الأنثى ينمو ويزهر في داخلي . .
ولا جواب شافٍ . . لسرّ ليلة الرياض البعيدة والتي كنت فيها مالكة الزمام وسيدة الموقف . .
وحانت فرصة لأعرف أكثر . .
هل أحب «علامة . . ؟
سؤال كبير كانت ليلة «مكة» ستجيب عليه ليس الحب المألوف الذي تيقن منه «علامة» ووثق به . .
لكن هل بلغت مرحلة الإيمان برجل . . وهل بالإمكان طمر الماضي برمته تحت قدميه . .
والسؤال الأكثر تعقيداً . .
هل سأرتاح من الشك ؟ . .
من الخوف . .
وهل سأكون كشجرة سنديان عظيمة لا تهزها الريح . . أواجه بحبه الدنيا . . دون أن أكترث بنوازع الأنثى الهشة ، وساديتها المسمومة ، وأنانية المطالبة بعطاء أكبر
وحب أكبر .
وامتلاك أكبر .
شعرت في الفترة ما بين ليلة الرياض وليلة مكة بأنني بالفعل شجرة ولست امرأة .
وحلمت «بفضة» التي تلمّست أوراقي الصغيرة الندية المعروقة بندى ليل جنوبي بارد . .
* أنت شجرة
الحلم قصير ولذيذ . . وحسبته أنه حلم فقط لكنني بدأت ألاحظ نظرات الناس من حولي ، وصرخات أطفالي وهم يتسلقونني إبان وقت التفتح والإزهار .
حتى الله والملائكة . .

تنبهوا لكوني شجرة في حقل الكون الفسيح إلا «علامة» ذلك المزارع العتيد الذي يدلق الماء من حنجرته التي تطوق جسد الشجرة بماء إلهي . . الماء الذي اشتهته حواء القديمة من ماء التفاحة المحرمة .

قضمتها . . فافترقت أربعين سنة عن آدم .

حتى كان العناق في عرفات .

أمنا حواء . . بفعلها المدهش تريد أن تقول لنسلها . . إن الشوق والغربة إكسير الحياة ، وإن المرأة في الأصل شجرة وفي الحقيقة حمامة .

شجرة تنمو من سائل عاطفي حتى وإن كان وهمياً موحى به عن طريق صوت أو ظل . . أو خيال بعيد .

إذ قد يكون الخيال البعيد والصوت الذي يُوحى للجسد الشجرة قد يكون حد السكين الذي يشق ذيل عروس البحر المغلق على سائله المحرم . . ليبتهل الله أكبر . . وقد يكون حد السيف الذي يفتك بعقد الأنثى التي تكرهها حواء في بنات نسلها . . وأعتقد أنني أنصفتها وكنت الأنثى التي أرادت .

في منتصف ليلة ١٦ فبراير من عام ألفين اكتشفت بعد إغفاءة قصيرة مشوبة بكابوس مؤذٍ . . أن «فضة» ظل من عمر نزح في الزمن البعيد . . وبدأت تلوح في ذهني فكرة أنها امرأة يعلم الذي خطفها ليلة موتها أنها المرأة النجمة المتوحدة في فضاء الطهارة والنقاء تماماً كالزهراء . . تلك النجمة التي تؤكد «جميلة» لنا قائلة : الزهراء . . نجمة وهي في أصل التكوين امرأة لها رؤية عميقة في الحياة الدنيا . . وهذه الرؤية مفادها أن المرأة في الأصل نجمة معلقة في السماء الدنيا . هكذا خلقها الله فإذا أظلم لونها بنوازع الرغبات الحسية الملموسة عرف الرب بنواياها ، فرجمها بشهاب من نار تهوي به لتستقر أنثى في رحم امرأة لتلد بشهواتها ونزواتها ورغباتها . . والزهراء في الأساس امرأة ترى أن الحب علة عضوية منزلة من السماء وإن لكل علة دواءً .

وكادت أن تصبح رسولة الحب في الكون الإنساني ، فشعر الله بضعفها ، ورفعها نجمة تبزغ مع الغروب ، وتذوب مع السحر . .

«جميلة» حواء أخرى لها فرضياتها . . التي تنافس حقائق أمنا حواء من أن المرأة شجرة . . وفي الأصل حمامة . . و«جميلة» حين تتقمص شخصية حواء العزيزة . . لا تجيد الدور إلا في سهرة نقش الحنا . . تحثنا . .

* «يا بنات» الحناء طهارة . . وزينة الزهراء . . أتذكر جيداً أنك «يا فضة» بعد ليلة المعرفة الأولى . . نغزتني في كتفي وبحنق قلت لي :

* اسنديني . . ألا تعلمين الآلام التي في جسدي ثم تأففت بصوت واضح . .

أكره هذا التطهر المزعج بالحناء . . وأصبحت لا أطيق تبتل «جميلة» ودعوتها للتطهر والتزين حتى نُرفع إلى السماء بقدسية الزهراء ومجاورها . .

وبخبث شرير سألتني :

* بالله عليك . . لماذا تصرّ «جميلة» على إعلان هذا التبتل . .

* عيب يا «فضة» . .

* «انظمي» واتركيني . . أقسم لن أتحنى ولو انطبقت السماء على الأرض .

. . .أصبح القبران . . أثراً لحب ليس من السهل كشف صيرورته . . زرتهما خفاءً قبل غروب شمس ١٦ فبراير . .

أنيسي قلب «جبر» . . قلب محمل بسكون الغابات الخضراء ويدفعني توق وحالة من النقاء والدفء والحنين «لعلامة» . . . كائن عادي وبسيط تخضعه الظروف . . . مخلوق مسالم بحيث لا يعسفها لصالحه ويكيفها لراحته .

سألني أثناء عودته من مكة إلى جدة . .

* التواصل بيننا ضعيف منذ يومين . . هل لأننا حلمنا بليلة «مكة» كثيراً ، ثم جاءت عكس ما أردنا . . لم يكن يا «فضة» يعلم أنني لم أنم على مدى اليومين أكثر من ساعتين ، وأنني على قدر السهر تعلمت أن أقف موقف المتأمل من شيء اسمه الظروف التي فجعتني في حلم من أحلامي القليلة . .

. .غصة حزت الحنجرة حين سأل كانت جيوشي في حالة تراجع أمام نصيحة العرافة السورية .

«لا تفرطي للولد الغريب حبات المسبحة» يومها قلت لك «فضة» . .

عرافة دجالة . .

اكتشفت أنني على مشارف هزيمة كبرى . .

وظفرت بصفة كلمة غير واضحة في «علامة» الذي حاول إزاحة الكآبة التي لمسها في صوتي . .

فسأل بما هو عالم به بصدق أشعرني كم أنا صغيرة ولئيمة . . وكم هو كبير وشريف . .

وبحياء قلت له . .

الظروف قد تحكمنا أحياناً . .

ولكن ما يؤلمني أنك إن رحلت بعيداً لم أجدك ، وإن قدمت إلى بلدتنا فلن أتمكن من استقبالك . . فهلا عذرتني . .

٣٥

السلام عليكم دار قوم مؤمنين .

اقتربت من قبر القش وناديتك «فضة» . .

* قومي . . أما آن لك أن تعودي . .

* لا مجيب لي غير صوتي

للمكان سره ووحشته وسكونه ، تؤنسه حشائش متناثرة فوق القبور وتحت السور . . الذي يحنو كشيخ كفيف على حجارة المقابر الوشم الأبدي لأولئك الذين رحلوا

«فضة»

زهرة هذه الوحشة وزينة الماضي البعيد أشرق المكان المتوحد بتواجدنا معاً . . جئت إليك بقلب ملتبس بذاكرته . .

مفعم بما كان . .

ومجروح بالآن . .

وثمل بما جد . .

وما جد حلم . . بل صلاة حاولت بها الدخول إلى الحياة ، وتذوق طعم السكر في فم عابد متبتل في كهف معزول ، وعند الخطوة الثانية انفجرت الجمجمة العارية من الشعر والبريق . . ووجدت «علامة» . .

شيء ثمين جداً . .
بل أثمن شيء في الحياة وأخشى أن يذوب وفرصتي لاستبقائه . .
الحديث المتواصل
اللغة التي تمنحني الأمان
بين يديك أنا «يا فضة» . .
فهل تسمعين ، وهل بإمكانك أن تمدي يدك لتلمسي دمعة وحيدة أحرقتني . .
لو تعرفين . . كم أنا متعبة . .
فليلة «مكة» ذابت في البعيد . .
لذلك جئت إليك . . جئت إلى حميمية هذا المكان بعيداً عن الصخب . .
وعن ترقب الذي لن يجيء ، فخذيني إلى عالم لا تأكل مساراته عبارة . .
«ظروف»

ظروف . . مسار وحيد في غابة كثيفة وأينما وجهنا تبعناه . . وهذا ما تعارف عليه العالم . .

الذي بإمكانه أن يحرق الغابة بعود ثقاب واحد ، وأن يقتل حيواناتها بحزام من البارود والنار ، وأن يصعد العربات الضخمة ، ويتأمل حيواناتها التي صنعت بمخالبها ذلك المسار الذي قد يكون طوق النجاة لنا نحن البشر الأكثر بلادة واتكالية وقد يكون مصيدة الهلاك . .

أذكر يا «فضة» أننا حين قارنا . . بين الظروف ومسار الغابة ، وأن الظروف تهدم الحلم . .

قلت مقاطعة :

الحقيقة أننا نحن الذين نهدم الحلم وليست الظروف . . ليلتها هاجمك «ثامر» مؤكداً أن الظرف قدر ، وأنه الكماشة الأكثر قسوة ، وجعلك مثالاً وراح يسرد عليك تفاصيل بعينها من حياتك . .

وكالعادة . .
دون تفكير مسبق قلت مقاطعة . .

المرء يتحكم في ظرفه إذا كان حاكم نفسه
كالرجال مثلاً . .
وكالحيوانات المتوحشة
والحرب . . !
أكثر الرجال ينظرون نحو الأسفل ، ولا ينظرون إلى الأعلى ، ولو توقف الرجل قليلاً ونظر نظرة فاحصة نحو الكون نظرة قوية كذكورته . . نظرة تبدأ من الأعلى حتى الأسفل ، لنبت له جناحان تدعمهما قوامة الرب
جناحان كبيران . .
وغير المسار
والكواسر . . وحوش تملك وسيلة الدفاع عن نفسها ، وسيلة دفاع فطرية لذلك حفرت لنا المسار في الغابة السامة ، وهي قادرة على شق غيره في الأوحال . .
لأن الغابة مكانه وحياته ومعيشته . . فإذا ما اقتحمناها نحن البشر . . فجريرتنا أننا ذهبنا إليها بأرجلنا . . فإما أن نطوعها لصالحنا وإلا فلنفتح صدورنا للغة المسار . . الظروف ومفاجآتها . .
وها نحن ما زلنا نعثر في مطب اسمه الظروف .
هل تذكرين يا «فضة»
أيام الحرب
يوم حريق بغداد تلك التي غيرت المسار وقلبت الموازين وكشف الزيف والوعي المفكك المهزوز ، وفضحت هشاشة ثقافة المكان وسطحيته ، وظهرت على السطح عُقد البطالة الفكرية المتأصلة في زمرة المثقفين في بلدتنا . . ثامر . . حمود . . رئيس البلدية . . أولئك الذين نخرت الخمرة ألسنتهم وأسنانهم . . وحين يمشون في طرقات البلدة . . يتحدثون بصوت واضح النبرات عن خطط الحرب والمحاربين وشهداء الخفجي ونوايا صدام . . ومعتقلات وهمية كانوا يشعرون بخطر خفي يتهدد ممالكهم الهزيلة . . وأسماءهم الطنانة كذباب الخريف الذي يعيش على لحوم الذباب الأصغر . .

الحرب مسرحية عابثة . . فما يمكن أن يكون مستحيلاً أدركته ، فإذا هو أقرب من حلمة الأذن . .

في الليل . .

نلعب معاً بالورق مع شباب المنزل فرحين بأننا ممثلون في مسرحية كبيرة اسمها حرب الخليج . .

رغم أننا قرويون لا نعرف من المسرح إلا اسمه في تلك الفترة . .

ظهر على السطح . . شجار بارد في أسرتنا فجره هروبي الثاني الذي كانت تبدو إعادة إصلاحه وترميمه من المستحيلات ، وبت في حرز آمن من يد «السبتي» ، ومن نظراتك «فضة» نظرتك العاتبة ، وسيطرتها النافذة على تحركاتي . .

هل أضحك ألماً أم سخرية . .

نُسفَ المستحيل . .

منتصف المساء الذي كانت نيران المدافع والقاذفات تلتهم نساء بغداد وأطفال الفرات . . وشيوخ دجلة وأصص الورد المزروعة في النوافذ المشرعة .

ليلتها كنا نحزم أمتعتنا باتجاه بقعة صغيرة في أقصى الجنوب ، وصوت والدي يرد على هاتف «السبتي» الذي يستعجله

* يا رجل الدنيا تحترق اترك مكانك حالاً . .

انتهت المكالمة على نقاش حاد بين والدي وزوجته . .

* كل العائلة هناك . .

* كلهم . .

* كيف سنعيش ؟

* الدار واسعة والمكان قادر على أن يحتوينا جميعاً .

* لكن جميلة هجرت البيوت القديمة إلى الدار الجديدة

* إنها لصيقة بها وكلتاهما واحدة . .

* لكننا سنعيش في القديم . .
* لنا جزء خاص في «الجديد» فعبد الرحيم قسم المنزل أجزاء متساوية تتسع للجميع .
* وابنتك . . ؟ .
* ما بها . . ؟
* هل ستدخل بها بيتاً طُرِدت منه ؟ .
* ابنتي هي التي طردت نفسها ولم يطردها أحد . .
* لكنها على وشك الطلاق . .
* ما عندنا بنات تطلق . .

الحكم صدر . . وكما أن الكوارث المريرة كما تحب مدينة عربية لا تنسى امرأة صغيرة منزوعة الحيلة ، بل تصب حامي غضبها عليها . .

أبي صادر آخر حلم لي بالخلاص والهرب . .

الخلاص من أحضان رجل لا أكرهه . . لكنني لا أُريده زوجاً . . لا أُريد أن أتقاسم معه مخدة واحدة ولحافاً واحداً . .

والهرب كذلك من نظرات «فضة» ومن ذاك التوعد الخفي . . الخفي جداً . .

بغداد محاصرة بالنار . . وشرق البلاد محاصر بالخوف والدخان وجنوبه بالتوجس والإشاعات . .

قصف متواصل وحرائق وموت . .

ويدي في الظلمة تدير أرقاماً ألفتها أصابعي قبلي . .

سمعت صوته . .

«ثامر» . . لم يمت إنه في سرير دافئ على شاطئ البحر في «جدة» المدللة بربيعها . . قطع عمله في إجازة طويلة ورحل على وعد أن يعود .

«ثامر» يستغل ظرف الحرب لممارسة حرية من نوع خاص .

بينما أنت «يا فضة» امرأة بغدادية تمازحها الأعاصير ، امرأة روحها جاهزة للاستسلام لعين خفية تناورها كل ليلة . . عين الموت الوشيك . . وأنا مخلوقة

هلامية تهزأ بها سعادة وهمية حين أعض على شفتي قلقاً وأنا أغلق سماعة الهاتف التي تصلني بصوت «ثامر» .

* ألو . . ألو . . . ألو . .

ضعت بين أفراد العائلة الكبيرة . . واخترت عتبة الدار القديمة لأعقد معاهدة بيني وبين نفسي ، وقراراً وثيقاً . . أن ألبس رداء الصمت ، ولا أنطق بحرف قد يؤخذ على محمل آخر . . وعزلت مع الوقت من قبل أهلي ، وفرحت بقرارهم ضدي ، وبصمودي في وجه فضول النساء . .

آه . . «يا فضة» لعنة الله على بغداد ، والكويت ، وعلى مياه الخليج كلها . . ألا يعلمون أنهم بفعلهم الغبي سيعيدون امرأة مسكينة إلى نفس المنزل الذي هربت منه .

دخلت دار «السبتي» و«حمود» مرة أخرى ذليلة حرب . .

مسقط رأسك هو مكانك الآمن . . تلك هي وجهة نظر «السبتي» .

دخلت الدار الواسعة منزوعة السلاح ، أسيرة لرجل علقني بعقد نكاح قذر . .

ومأسورة بحب رجل ودعت حتى الحلم به ليلة وقعت على ورقة العقد .

وجوده كان قوة أمن مدرعة . . وبوصلة تحركني باتجاه المناطق الآمنة . . والصمت والقبول . . بما لا بد منه .

الذل والعزلة والضعف أعادتني لدائرة الخوف ، وهاجمني كابوس ليلة الدخلة ، تلك الوحشة الهمجية التي أكلت نصف كبدي في ليلة قمر فاضحة ، قمر غامض وغير شريف . . سمح لجريمة اغتصاب كسرت عنق الزهرة الجبلية أن تحدث تحت بهائه . .

صحوت بعد إغماءة قصيرة . . النافذة مفتوحة على مصراعيها ، وعلى الضوء الأزرق رأيت ولأول مرة أعضاء رجل عار ، تقيأت ماءً أصفر . . هو آخر ما تقتات عليه معدتي . بعد عناء شعرت بأنني أستطيع أن أنظر إلى القمر . . معاتبة .

* أيها السيد الكبير لم . . لم تنجدني . .

* لم يجب . .

قمر بلدتنا يعلم أن حرب الخليج تهويش سهل وبسيط . . برجال ثلاثة أرباعهم على شاكلة «حمود» و«ثامر» .

وكم تمنيت أن أسمع طلقة مدفع . . واحدة . . طلقة تهز أركان منزلنا الكبير . . حتى أتمكن من رؤية جحوظ عيني «حمود» اللتين أعلم أنهما تتلصصان خطواتي من موقع ما . . منتظرة قدوم قدم الحمامة . . جائع لفخذ الأرنبة الهاربة . . ولبياض لحم سمكة دفعها الموج إلى شاطئ لا ترغبه .

إنها مفاجآت الحرب «لحمود» الذي يبرّد عينيه بتأمل فتاته السافلة التي لا تملك على حد قول «السبتي» مبررات مقنعة لهربها المفاجئ . . لكنها . .

* ابنة «جنية» وسأعسف رقبتها وأنا أبو حمود ، وكم ضحكت سراً . . ليلة الصلح .

وأنا أعسف رقبته هو . . ورقاب رجال البيت بشروطي التي لم تملها عليّ أمّ أو خالة لكن أملاها عليّ حزني على «فضة» ، وقبر القش ، ورجاء في القلب أن تعود «فضة» .

* سأعود «لحمود» . .

لكن شرطي أن يدع لي جزءاً من الدار ، ولا أطلب العزلة ، ولكن مكان صغير في أول المنزل الكبير ، أو آخره في أعلاه أو أسفله . . بمدخل خاص ، وأن لا يضايقني أحدكم في حياتي ، وأن لا تطالبوني بما عهدتموه في نسائكم . .

أرجوك أبي . .

أرجوك عمي . .

أذكر جيداً أنني انحنيت وقبلت قدم «حمود» فانتفض السبتي :

* أبو حمود «كرمك الله يا بنت أخي ما تستاهلين وابشري بعزك وما كانت روسنا لو أهنا بنتنا في بيتنا» .

. . «فضة» . .

لست معي صباح خرج «السبتي» في تمام السادسة لأسأله بصوت يخالطه

النعاس . .

* إلى أين عمي ؟ . .

* قريب . .

عجل في رده . . ثم مضى . . كان ذاهباً ليموت في قلب الجد العظيم . .

ربما كان هناك

تُراني «يا فضة» أحدثك عن موته ببرود .

هو اختار أن يموت بتلك البساطة قرب الموقع الذي شهد ليلة تجميل ذكورته الآفلة . .

تفسير واحد لكل ما حدث .

أنه عشق . .

وكما «قال علامة» . .

«القضية بالنسبة لي منتهية» . .

تلك الفكرة كانت في أعماق «السبتي» لكنه لم ينطقها بل نفذها . .

وأنهى مشاحناته مع قلبه بجزة موس حارة أوجعته فبكى .

أتذكر يا «فضة» أنني شعرت بسعادة نادرة وخفية عندما سمعت أنته الباكية .

رجل من الصخر . . رجل بعظمة الفاتحين . . يعقد صفقة مع الموت وحين واجهه بكى وهو يقول :

* حكم القلب نفذ يا «ثامر» .

وأذكر أيضاً أنه قال كلاماً . . يشبه كلام «علامة» أو قريباً منه وهو يمسح الدم من بين فخذيه . .

* إذا مت يا «ثامر» فأعلم القوم أن عمري قدر الشهور والأعوام التي ابتدأت منذ هذه اللحظة وما مضى كان هراء . . «وعلامة» . .

بعد «السبتي» بأعوام طويلة . . يناديني من البعد صوتاً فقط . . ويسألني بوشوشة من حنجرته المغسولة بالعسل . .

* «نفسك في إيه» . .

لا أجيب فيتنفس بسخرية ممزوجة برجاء . .

* كل ما بيننا حلم وأشياء بسيطة تريح الروح والقلب ، فدعينا نقطف من سنوات العمر على الأقل أربعاً من السنين نضحك بها على الزمن .

***

صباح الموت

كنت فرحة بعملي الجديد في إحدى المدارس الكبيرة في البلد وفي صالة تدريب ذهني صعب على كيفية تدريب نفسي على أن أكون نفسي متجردة من جلد «فضة» ومن الخوف الذي زرعه هروب «ثامر» .

أواجه كل شيء وحيدة . .

أتذكر أنك قلت لي «يا فضة» ونحن نتقدم لامتحان الثانوية العامة ، ونرتعش خوفاً خشية الرسوب في مادتي النحو والمكتبة .

* تعالي نذاكر ونلعب . .

* كيف ؟ .

* اجلسي أمامي على أنك «ثامر» ، واشرحي لي ولك مادة النحو . . وأنا بدوري سأجلس أمامك على أنني ثامر ، وأشرح لي ولك مادة المكتبة . . دعينا ندخل في الجو ونعيشه . .

ثقي بأننا سننجح .

نقلت نظري منك «يا فضة» إلى السماء ، والتوى ضارباً في معدتي وتساءلت :

* هذا سر من أسرار الحب الذي أدركه «ثامر» عندك يا «فضة» ، ونجحنا «يا فضة» بشكل مرض . . أيام الحرب . . اعتكف «ثامر» في «جدة» .

وكنا في حالة صمت غريب . .

كنت «يا فضة» منزعجة من الحرب ومتوترة . . وكنت عكسك أمارس لعبة

صغيرة بعدك . . إذ كنت تقضين فترات طويلة في محادثة «ثامر» بالهاتف ، ثم تضعين الهاتف وعلامات التوتر لا تزال هي . . هي .

أسحب الهاتف نحوي دون أن تشعري ، وأعيد الرقم وأسمع «ثامر» على الخط الآخر . .

* ألو . . ألو . . ألو . .

* أضعه بهدوء .

حب ملتهب في أحشائي . . يفجر الدماء الراكدة فيتوهج القلب بدم الحياة . . وأركض نحو المزارع ألعب وأطارد الفراش . .

تقولين :

* ما عاد هناك أذن تسمعني ، أو شخص أنمو من خلاله ، نحن محتاجون للاختلاط بالعالم لننمو . . ولتنمو أفكارنا . . وإلا سنبقى العالم الثالث إلى يوم يبعثون ، وأشعر أن البلدة بدون «ثامر» في حالة تجمد . .

وصباح الموت

كنت أهيئ نفسي على مواجهة كراهية أراها في عيون نساء يعملن تحت إدارتي بقلق غريب ، ولم يكن حولي أحد سوى نفسي والباص الأبيض والطريق الذي يخترق الجد العظيم . .

وصمت يعبر عن وضعي المشوش ، صمت أخبئ خلفه شيئاً ما كان «السبتي» يمسك بزمامه لحقت به . .

* عمي إلى أين ؟ .

* قريب . .

كان يسرع في خطواته ، ولو أنك كنت في الوجود «يا فضة» لرسمت كل ذلك خطواته . . وعصاه . . وكفه التي تتحرك بشكل دائري على المقبض الفضي .

ابتسامته وهو يهددني :

* أمنعك من الركوب مع السائق وحدك .

يضربني صداع في الصدغين . .

وأنا أتلقى تعليمات حول عملي الجديد .

* الشـدة والحـزم والثـقـة والحل السـريع للمـواقف التي قـد تواجـهك في المدرسة . .

* كـيف يريدونني أن أكـون صـغيرة وكـبيرة في آن واحـد ، هل هذا هو العـالم الثالث الذي دوخك به «ثامر» «يا فضة» ؟ .

في السابعة جاء الخبر . .

لم أستغرب خبر الوفاة . . كأني كنت عالمة به وقفت مشدوهة أمام «جميلة» النائحة

الموقف يتكرر مرة أخرى .

أنا وعم «جبر» الوحيدان الصامتان . . وضع شبيه ونفس الحالة التي كنا عليها ليلة موتك «يا فضة» الحدث الذي وقع ولا يزال حاراً لم يبرد في نفوس كل من حولنا . . حدث قديم متوقع بكيناه معاً أنا وعم «جبر» منذ فترة طويلة ، وأصبح يوم حقيقته ماضياً نقف على أحداثه موقف المتفرج ، وقفت قرب «زينه» التي أفاقت من إغماءة الصدمة . لتنسحب من المكان كله . . وتدفن نفسها في غرفتها حيث ينام وليدها ، اقتربت منها . . فروعتني نظرتها وذهولها ، وراودني شعور بأن قرينها «الجني» قريب منها . .

* ما بك ؟ . .

* مات عبد الرحيم .

* سنة الحياة .

* لم أشبع منه .

* كيف ؟ . .

اندفعت في بكاء عنيف وشدت شعرها منادية .

* عبـد الرحيم . . أنذر بنفسـي ووليـدي وبالـله بأن الرجال حرام عليّ إلى يوم يبعثون .

لماذا . . لماذا يا الله يموت الآن . . لماذا تأخذه من «زينة» الآن . .

تقف بطولها وتصرخ بي . .

* انظري ما أجمل جسدي بعد الولادة . . تأملي تأملي جيداً يا شقية . . أي حقير يستحق «زينة» بعد «السبتي» .

* لكنه شيخ كبير وأنت في ريعان شبابك فاهدئي . .

* أنا جربت رجال الإنس والجن . .

* حين مات في السيل «بعلي الأول» شيعت البخور ليلة موته ، وعذرني كل أهل البلدة الطيبين معتقدين أنني مجبرة وتحت ضغط القرين . .

* لكن . . لا . . كان ذاك المرحوم رجلاً سقط من قائمة الذكور منذ دخل بي . . رجل استهلكته أحلامه السرّية ، ويمينه الباردة التي لا تملأ معدته . . إنه شيء يشبه الرجال .

وعاشرت «الجن» وما اعتقدت أن هناك من يفوق القرين الذي يجعلك مليكة فوق عرش اللذة . الجني لا يأتي بغتة كالثور الذي يتجشأ شبعاً وترفاً ، ولا يمر بليلك على أنه عادة أو واجب ، ولا يتذكرك على أنك أنثى جميلة ونظيفة إلا حين يرفع اللحاف ويشم رائحة العطر والزهور واللبان . .

* و«السبتي» كل ذلك . . خليط من الجن والإنس

* . .أين أنت «يا فضة» ؟ .

بحاجة أنا إليك لتساعدي «زينة» في وضع صورة الكمال الرجولي عند «السبتي»

الذي فهمته وأستطيع أن أقول إنني فهمت ، لكن سطوتك «يا فضة» أفقدتني ترتيب الكلمات والحكم . .

وملجمة لا أقدر على ترجمة أفكاري ولا الفهم الواضح لنفسي ولا حتى قول كلمات مريحة «للزينة» .

حاولت أن أفتح فمي بكلام . . فتذكرت «ثامر» الذي يتعمد التلهي بالعمل حين يسمعني أتحدث بشكل جيد ، ويتهرب إذا دخلت معه في حوار حول موضوع معين ، ويراوغني بكلمات عشق لا تصلني ووشوشة مفضوحة :

* دعينا من هذا كله وقولي لي يا غاليتي ماذا تلبسين الآن ؟ .
موجعاً كان حزن «زينة» . .
وصارخاً جمالها وفتنتها . .
وأنثى ضنينة بذاك كله على الرجال . .
دافنة نفسها في السواد والعزلة .
تقول حين يجمعنا مجلس أو مكان . .
* لا تنظري إليّ نظرتك الطويلة المعهودة . .
أبتسم لها فترد ابتسامتي بحنان . .
تعرفين «يا فضة»
نحن عائلة نتوارث الصمت كما نتوارث المال . . وعاماً عن عام يكثر عدد الصامتين بها . . كل فرد عالم مغلق . . ملكوت بأكمله يشدد بإرادته الحراسة على نفسه . . حتى «جبر» انخرط في عداد الصامتين يبتسم من البعد لهم وهو قائدهم . .
. .لا أنسى «جميلة» ليلة موتك حين قالت «للسبتي» بصراخ مبهور :
* أين الفتاة أيها الفاجر ؟ ستثور رائحتها وتفضحنا . .
* سأخرج إلى هواء المزارع . .
* كان رده قاسياً . . تبعناه معاً حتى غاب في الظلمة فقالت «جميلة» :
* مزارعه وأملاكه واستراحاته هناك . . حيث «زينة» بجسدها الغض وشعرها الفاحم وبطنها الناتئ بطفل جديد سيأتي مع بدايات الشتاء .
قلبت يديها ودعكت بعضها ببعض ، فأصدرت خشخشة وتطوى جلد ظاهر الكف . . وتأملت بعين الزمن . . كشرة البثور السوداء التي رقشت يديها التي ضمرت ، وخفت بياضها وبهت .
تقوس ظهرها ومن بين فكين متصلبين قالت :
* أهكذا يا عبد الرحيم . . بعد هذا العمر تضرب شيخوختي وتجز قلبي بصبية حسناء . .

تحاول أن ترفع صوتها بكلمات أخرى . . بشتائم أكبر . .
ينهج صدرها . . فتصمت . .
صباح موت «السبتي» . .
كان «لجميلة» حزن آخر وصمت آخر . .
استحمت وارتدت ثوباً أسود له رائحة نفاذة تدل على أنه معد ومخبأ منذ فترةطويلة .
فرشت سجادها وسط اللغط والصراخ . .
واحتشد البيت القديم والجديد بالمؤبنين من الرجال والنساء ، وقصد الرعاة والمارة أحواض النخيل القريبة من المنزل ، وجلسوا تحت أطراف الجدران الظليلة بانتظار الفائض من الأطعمة والذبائح التي نحرت بعد عودة الرجال من المقبرة ، وتصاعدت رائحة القهوة والزعفران والهيل حتى اختنقت الأجواء .
وأرسلت «جميلة» في طلب ثلاث نساء قويات لصنع القهوة . .
وبدأت الولائم تتوالى . . بيت يتلوه آخر . .
وهجرت المنازل وأقفرت من نسائها ورجالها وأطفالها ، وأغلقت مواتير المزارع والمتاجر الصغيرة . . واكتفى أهل البلدة بالأكل والكلام على البسط ، وفي الأحواش لا يفرقهم إلا النوم . .
وشاع في سرعة خاطفة . . مقدم الدكتور «ثامر» . . الشيء المضحك أنني في تلك الليلة لاحظت أثر مجيئه إلى الصبايا الأصغر سناً مني ، والوضع المرتبك بين الفتيات .
«ثامر» في تلك الليلة كان بالفعل لا يوجد على خريطة حياتي «يا فضة» . .
ولكن يبدو أنني وأنت قد حفرنا اسمه على أشجار بلدتنا وجذوع نخيلنا المباركة . . وأكف أخواتنا الأصغر . . «ثامر» تاريخ عبر دون بصمة تذكر . . إلا ضحكات الفتيات التي اتضح بعد رحيله أنها كالقبض على الوهم . .
وأذكر أنني سألت إحداهن عنه . .
* هل تذكرينه جيداً ؟ .

كان بيدها بالون ضخم . . انفجر قبل أن تجيب فصرخت ضاحكة . .

* من تقصدين «ثامر» أم البالون . . واندفعت مهللة تحكي حكاية البالون . . البالون فقط . .

كان بالنسبة لنا يا فضة الكرة الأرضية بأكملها . .

أُديرت صواني القهوة والشاي والنعناع ، وبدأ النعاس يداعب الجفون ، وتناسلت الفتيات إلى الأمكنة المظلمة ، وسقطت بسبب المأتم بعض الحواجز وتصاعدت في الخلاء الرطب ضحكات مكتومة . . لتخرج «عذبة» من برجها العاجي متسائلة . .

* «زينة» لا تزال على حالها . . ألا ترين أنها بحاجة إلى شيخ يقرأ عليها ، أو عزيمة قوية تفك ضيقة صدرها . . تداول الرجال بأمر من «جميلة» كوب ماء مغطى بورقة سميكة قرؤوا ونفثوا حتى ترسخت جوانب الكأس من الأنفاس ، وأُعيد الغطاء على الكوب ، وحمله «حمود» بحذر إلى حيث موقف «عذبة» .

* * «المحو» يا عيال . .

* شربت زينة . . منه . . وغسلت مفرق شعرها وعنقها ، وسكبت جزءاً يسيراً بين ثدييها ، وانحنت لضربات خفيفة من «عذبة» على ظهرها من الخلف . .

إحدى النساء . . همست . .

* «عذبة» داهية من دواهي القرنين . .

انظري كيف تلوب بالحزانى ، لا بل اسمعي دعاء العجائز لها . . زمت أخرى شفتيها وقالت :

* ناس تعرف كيف تعيش ، ولو أنني مكان «عذبة» ما احتملت العيش مع «حمود» وجميلة ليلة سوداء . . ثم تابعت المسكينة هي «زينة» التي تموت حزناً ، ثم انثنت أكثر نحو محدثها . . ما الذي يعجبها في «السبتي» ؟ . .

* ربما أنفه أو «براطمه» . .

* قاتل الله الحب . .

* والمال . .

لم تفلت المتحدثة الأخيرة من نظرات مؤذية من نساء المنزل . . جعلتها تنسحب إلى خارج المكان . . بعد اشتباك ظهر على أثره صوت النساء اللاتي اشتبكن بكلمات جارحة مع «عذبة» و«نص الإتريك» التي أيدت كلام من اتهمت «زينة» بالطمع في مال «السبتي» .

وبخطوات «ثقيلة» عادت النساء إلى أماكنهن على دفع «جميلة» لهن وانسحبت الموجودات على صوت «حمود» الذي ترك الصيوان المحتشد ، وتخطى بعض الأطفال النائمين عند أقدام آبائهم ، وداس بحذائه على حبات الأرز المتناثرة ، ونادى على رفع بعض الصواني الفائضة الباردة ، ووقف خلف الحاجز الذي يحجب النساء عن الرجال رافعاً صوته الذي تجاوبت أصداؤه في جميع الأنحاء .

* يا «همج» لعنة الله على والديكم ، وعلى من رباكم يا بقر . . يا حيوانات المرأة صوتها مثل صوت الكلبة . . سعل ثم تقدم خطوة وأزاح الحاجز فاصطدمت النساء ببعضهن في هروب سريع نحو الأركان وداخل الغرف ، وصفع «نص الإتريك» مؤمناً على فعله بألفاظ جارحة ومهدداً . . عذبة .

* أقسم برأس أبي . . لو سمعت صوت امرأة ارتفع فلن أتورع عن سحبها من أول الوادي حتى سابع قرية . .

* . . . . مساحة واسعة من الأرض البراح المحاطة بالنخيل وبأشجار الكينا الطويلة . .

تناثر الرجال على البسط المفروشة وقطع السجاد التي زين بها الصيوان . . وأثيرت أحاديث جانبية بصوت خافت من كبار السن عن مآثر «السبتي» . اختبأتُ بعيداً عن موقع العاصفة أرقب «زينة» التي لم تجد المياه البيضاء المقروء عليها ، ولا «العزائم» المزعفرة في فك يد إبليس التي طوقت «حنجرتها» . .

كل ما يصدر منها حركات طفيفة لا أطرقها ، وضغطات متتابعة من يديها الاثنتين على أعلى صدرها ، وشرب متواصل للقهوة . . والشاي .

اقتربت من «جميلة» التي أوشكت على النوم رفعت عينيها نحوي . .

. . كم تبدو هذه المرأة ضعيفة وهزيلة وملامح العمر واضحة بشكل فاضح . . وتجشؤ متواصل بنبرة عالية ، ورائحة قوية جعلتني أتزحزح عنها قليلاً . .

* عمة . .

* خير . .

* هل تريدين شيئاً . .

هزت رأسها وكأنها كانت تواصل حديثاً سابقاً . .

* لا مفر من القضاء والقدر . . لكن ما شرح قلبي هو صوت «حمود» هذه الليلة كان «السبتي» و«السبتي» لم يمت . .

مدت يدها نحو «زينة» وأخرجت ثديها الصغير الضامر . . من فتحة ثوبها المثلثة وعاتبتها . .

* أرضعي الصغير . .

. . في الخارج جلس «جبر» على عتبة سقيفته ، ولعق ظاهر كفه من جراء لدغة بعوضة أزت قرب أذنه ، وطفق يضرب بيديه في الهواء ، وينصت لحشرات الليل ، ويفتح أنفه بطريقة غريبة لروائح الياسمين ، ونداءات النساء الخافية من المنازل المجاورة ، وهمهمة العمال المستيقظين ، وحمحمة الكلاب الجائعة على العظام . .

* للموت هيبته وخشوعه ، لكن ما يزعجني ويعكر هذا الليل . . هو لماذا لم تنم القرية حتى هذا الوقت من الليل . . هز رأسه وأشعل سيجارة . .

* مساء الخير . .

* «أهلاً» يا عم جبر . .

* خروجك خطأ فعودي إلى المنزل . .

* أراهن أن أحداً لم ينم في البلدة . .

* كيف هي «جميلة» ؟ .

* لا يزال الحزن حاراً . .

* إيه يا «جميلة» . . يا جميلة الأمس البعيد والعمر الرضي . .

ولم يمنع نفسه من الابتسام مولياً وجهه نحو الشرق .

* قليلاً وتصعد الشمس .

كم كنت أنتظر صباحها . . لحظة تشتبك بنورها مع «نار» . . «تنور» جميلة في أقصى الحوش الكبير قرب المذبح ، ومع غروب الشمس واندلاع الشفق فوق الجبال ، وفوق خدي «جميلة» المتوهجين وهي تصفق بيديها العاجيتين العجين المحمر الذي يفور من جوانب القدر الضخم ، وتقطعه قطعاً متساوية وسريعة ، وتوزعه أقراصاً متساوية الحجم . . وتدهن . . وجهه بالبيض ، وتضرب بأعلى جوانب التنور الحار الذي تتوهج بداخله جمرات هائلة ، وتغلق عليها بغطاء معدني عادة ما ترفعه كل أربع دقائق لتطل برأسها خشية أن يحرق توهج الجمر وجه الخبز . . تقوم بذلك وهي تواري الجهة الشرقية التي تهب منها عادة نسائم من هواء بارد ، وهي تهمهم بدعاء «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» .

في تلك السنوات حاولت طردي من العمل مرات عديدة . . تطردني في الليل ، ويعيدني «السبتي» في الصباح . .

كانت صبية جميلة وبهية ونشطة ذات قامة متناسقة رغم ضآلتها ، والرائي لها يحلف أيماناً غلاظاً بأنها فتاة في السادسة عشرة ، وليست امرأة تجاوزت الثلاثين بأعوام . . يميزها عن غيرها من النساء . . بياض شفاف رائق تعكر شفافيته حبيبات حمراء على الخدين . .

في تلك السنوات البعيدة . . وقبل أن يعمر الدار ، ويكثر الأولاد ، وتكتمل حدود مزارع «السبتي» ، وقت أن شرع في بناء منزله الكبير في القسم الأعلى من المزرعة أيام الشقاء والجوع والحفا حيث تقف جنباً إلى جنب مع عبيد الدار والعمال . . تشق الأرض ، وتجمع الحطب ، وتصنع الخوص ، وتوجه العمال ، وتحاسب العمار ، وتتعرض للكلام والضرب الموجع من «السبتي» إذا ظهر عنقها . . أو بان فمها ، أو جزء من جسدها لعمار أو عامل أو حتى عبد من العبيد . . وازداد حرصها على كل شيء بعد أن بدأت بوادر طلع النخل وطرحت أول خيرها ، وصار على كل فرد في ذلك المكان المقفر على حافة الجد العظيم أن

يعمل حتى تتهتك أعصابه ، وإلا فالطرد والحبس في «منامة التبن» المظلمة التي يتصدر أولها الأعلاف والرحى القديمة فيما تقوم جدرانها المتآكلة على حفر الثعابين والعقارب وصقصقة الوزغ الأصفر .

الفرد . . في البلدة الصغيرة معلق مصيره بلسان «السبتي» وعلى كل فرد ذي نعرة أو اعتداء أن يتخيل مصيره مشكلاً على حوائط سقيفته ألواناً من العذاب ، والذل ينتظره إلا أن يفر من تلك القرى التي على حرف الوادي إلى الجهة المقابلة ، أو إلى قرى بعيدة حيث لا تدركه يد «السبتي» . و«جميلة» فرد في تلك الحلبة التي لا تهدأ . . تحلب وتلد وتحمل ثم تحمل وتلد وتسهر . . وتقيم الأفخاخ «للبقّار» الأسود الذي يسطو في بعض أيام السنة على الأبقار ويمص دماءها ، وتوزع العمل على العمال وتطحن حب الذرة استعداداً للشتاء .

وتغالي في تفقد البيت والمؤن وأواني العمال وحصرها من فؤوس وأزاميل وحبال ، وعنّ لها في ليلة شتاء باردة أن تكلف العامل الجديد بجلب الحطب وتكسيره وردمه قرب التنور الكبير .

ولم يكن العامل الجديد إلا أنا . .

كنتُ شاباً خجولاً بشعر غزير ، ولحية مهذبة ، وحمرة خفيفة تعلو أعلى الصدر . .

حين رأتني . . . . . صرخت :

* غداً جز شعرك ، والآن زرر أعلى ثوبك احتشم يا رجل ثم اسمع . . لقد ولد وجودك بين العمال عادات غريبة . . قف عند حدودك وإلا فارحل . . ولم تكن تلك العادات إلا بعضاً من مرح لم تعهده البلدة من قبل ومزماراً صنعته . . أثار الجوانح ليلاً وهز أنحاء الوادي شوقاً وحنيناً وجنوناً إلى فلسطين .

وها أنا أشبه فلسطين .

قضية أثارت العالم ، ثم هدأت بكذبة كبيرة اسمها «السلام» .

رجل تتوالى عليه الأجيال ، وكل جيل لا يُلقن من سبقه سوى اسم «جبر» الاسم فقط . .

كلانا . . منسي . .

بلد منسي في زحمة التاريخ المضطرب والقضايا العقيمة . .

ورجل يموت مؤنسوه واحداً تلو الآخر ، وهو معلق كالصورة القديمة في جدار الزمن . .

فلسطين القضية الوقف لكل متسلقي السياسة ومجرمي الحروب . . والأبناء الخونة وعاشقي السواد والحداد الأبدي . .

و«جبر» أي شيء هو جبر . .

إيه يا «جميلة» . .

كان يبكي . .

وكنت أبكي معه .

٣٦

«فضة» . .

«علامة» بداية وقت ونهاية أزمان . . سأقرر به وضع حياتي القادمة . . بدونك . . متحملة كل النتائج والتبعات رغم توقعي لقدومك . . قلقة أنا ومبعثرة .

أريد أن أبلغك رسالة أخيرة . . مختصرة وصغيرة . .

* أحب علامة . .

أعلم أنك تسمعينني ، وعم «جبر» شاهد على ما أقول . . شيخ بعمر الزمان . . بعظمة الجد العظيم . . وآخر من بقي من العظماء . . يقول حين جثوت قرب القبور الأربعة . .

قبر القش . . وقبري

قبر بركة . . وقبر السبتي الحار . .

* «علامة» يا ابنتي روح نفرت من صدر الملاك الذي قبض «فضة» . . روح ليست سهلة المنال وليست صعبة . . روح تاهت في الأرضين السبع ، وسكنت عرين الجسد العظيم . . فاقتربي . . واحذري . .

روح في الليل تحوم فوق أشجار بلدتنا وتوتها وأصواتها تجذبك نحو النقاء . . وتلتصق بصدرك بعنفوان . .

روح أراها وأحكم عليها ببصيرة شيخ خبر الناس والحياة بأنه . . رجل ينظر إلى الأشياء بتعالٍ . .

* لكنك لا تعرفه يا عم «جبر» إلا من حديث سطحي تسمعه مني . .

* وأنت لست قليلة . . بعض من كلامك يغني عن ثرثرة عشرات الرجال . .

. . .«فضة» هل ترين أول الثمر ؟ .

لو لم يكن «علامة» ذاك الرجل الذي ينظر إلى الأشياء بتعالٍ . .

لطارت بي وبه الريح . .

ولكان رجلاً يعيش في وحل سيادة اللالون في ظل وضع سياسي قال كلمة واحدة . .

لأولئك المتحاربين فكرياً :

يا سادة لا غالب ولا مغلوب . . وإن ما حدث مسائل مسكوت عنها . . فطاروا مع الريح . .

وضع سياسي خاطب الشعب بكلمة جامعة . . بحرب الخليج . . تلك الحرب الباردة التي أعادت ترتيب الأرفف في المنازل والحسابات في البنوك . . وهدفها الأكبر . . صنع محارم خشنة لأطفال الطفرة من الرجال المدللين جداً . . كُتب عليها . . ما حدث لعبة كشف أوراق خاصة جداً . . وبدعم من المدافع سميت حرباً . .

هل تذكرين «يا فضة» يوم تمنينا معاً أن يمر صاروخ من فوق منزلنا الكبير . . في ظل صراخ الإذاعات العربية .

ولم يحدث . .

وفي صباح اليوم الثاني . . هرب بنا «السبتي» إلى جدة ، ومنها استقر بنا قرب المقام . كان الحرب نعمة فقد استمتعنا بصحبة «ثامر» في أزقة «مكة» وحارسنا الأمين مآذن الحرم . .

. . .كل شيء «يا فضة» . . علاقتنا . . إنسانيتنا . . أفكارنا . . قائم على الغش . . وكل منا أشبه بالمهرج الذي يرتدي سترة فوق سترة ، ويغلف

وجهه بطبقات من المساحيق ، لكنه يحمل بطاقة التعريف التي تثبته في الأوراق الرسمية .

تذكرين «يا فضة» شهادتنا الدراسية خالية من اسم والدك . . وأبي .

وموثقة بختم رسمي تثبت أننا ننتمي إلى الوطن وليس هناك توقيع وحيد على مدار سنواتنا الدراسية يثبت أننا ننتمي إلى رجل واحد معلوم في البلدة . .

كل من في البلدة آباؤنا . . وعلى مدار خمسة عشر عاماً حظينا بثلاثة وعشرين توقيعاً ، وبكينا ستة من آبائنا الذين ماتوا وماتت تواقيعهم ، والمفارقه العجيبة أن «حمود» كان أحد الآباء المثبت توقيعه على شهادتنا المدرسية . .

. . .حين هبط «علامة» بلدتنا ساعة غروب كنت أفترش حصيراً من سعف النخيل . . قرب عم «جبر» .

أشار بيده اليسرى التي أحبها . .

. . . سلام . . .

لم أكن أتطلع للقدر «يا فضة» . .

لكنني وجدته مجسماً في حنجرته المغسولة بالعسل . . سلامة . . قدر حرك المسار واتجاهات الكرة الأرضية . . ما عاد الشمال شمالك يا «فضة» . .

والغرب . . غرب «ثامر» . .

ولا الجنوب الوجه الخلفي للمرآة . . تراني في لحظة جنون أدرت مرآة القدر بيد ليساعدني «علامة» باليد الأخرى قائلاً :

* تأكدي أنني أحدثك بأشيائي القديمة بحرية تامة لأنها أشياء تجاوزتها ، ولو أنني ما زلت في نفس المرحلة لتحرجت . . لأن الغبي من يكشف أوراقه سريعاً . . وها أنا لا أتورع لأن كل أوراقي السابقة لم تعد تهمني . . صح . .

صح . .

صح . . لفظة صغيرة . . «يا فضة» . .

كانت جواز سفره البسيط إلى روحي

يملؤني بها . . تعباً . . ودهشة وجنوناً . .

يقتحمني بها عبر هاتفه الليلي قائلاً :

حدثيني . .

فالله بعثك لي انتقاماً لكل من عرفت ، لأني طول عمري أحدث الناس عن أنفسهم ، ولا أسمح لأي كان أن يحدثني عن نفسي . . لأني أرى أن من سيحدثني عن نفسي سيعلمني بشيء عني أعرفه . .

أو كأنه سيعطيني شيئاً لا أحتاجه إلى أن زل لساني بكلمة صغيرة ذيّلت بها حديثي إليك .

يوم قلت لك . .

* غداً سأسافر إلى الرياض فهل بالإمكان أن أجدك قربي هناك . . عبر الصوت . .

أعتقد أننا بحاجة لبعضنا . . اثنان نعقد صفقة صداقة من نوع خاص . .

صح . .

* صح . .

* قوليها ثلاث مرات . .

جاءني صوتك خجلاً وعميقاً . .

صح . . صـ . . ح . . صـ . . . . . . ح

وأتبعت كل ذلك بقبلة ترحب بي ، وتغسلني من غربة البحث في المكان الخطأ ، ومع الناس الخطأ دخلتني بقوة تحدثينني عن نفسي وتلعبين اللعبة التي لم أتقنها يوماً ، فقد كنت أُضيع كلام من يتناولني في حديثه وأتحكم في مسار الحديث وألغيه . . لكن معك . . لا . . وغريب هذا الذي يحدث . .

* أبداً . . .

فأنا حين أتحدث عنك فليس إلا حديثاً عن الولد الغريب . . ولد الحمامة الذي يطوي البحر بخطوة واحدة . .

و«جبر» حين يحكي لنا حكايات «أمنا حواء» يختم كل حكاياته بقوله . . وأمنا حواء ترى أن المرأة في الأصل شجرة ، وفي الحقيقة حمامة غريبة . .

تو . . تو . . تـــو	تو . . تو . . تو
آه يا أحمد بـدوي	ردلي مشطي
وخشر جمة ولدي	تو . . تو . . تو
وآه يا احمد بدوي	ردلي مشطي

تو . . . تو . . تو

الحمامة امرأة . . إن أطلقوها ملأت الدنيا بكاءً ، وإن أسروها أثقلوا جناحيها بخلاخل الذهب . وكان يا ما كان . . يا بناتي الصغار . . في بدء الخلق كل كائن يتكلم . . وكان للحمامة رجل حبيب اسمه «أحمد بدوي» وللحمامة فرخ من حمام آخر . . بديع وصغير ذو شعر جميل تسرحه له أمه الحمامة بمشط مصنوع من ضوء الشمس أهدته لها عرافة يوم ولادته ، وأوصت أمه الحمامة بحفظه لأن حياة ابنها مرهونة بالمشط . . خبأت الحمامة المشط تحت جناح لتحضن فرخها بالجناح الآخر ، وبمنقارها بنت عشها ، وأجلست في مقدمته «أحمد بدوي» لتؤوي صغيرها على الغصن المجاور محتملة عناء التنقل بين الوليد والحبيب .

فطن «أحمد بدوي» للوقت الذي يُخطف منه ، فحاول أن يجلس قربها مرة تلو مرة لكنها امتنعت خوفاً على المشط وعاتبته قائلة :

* أنت من عالم وأنا من عالم آخر ، كلانا صادق . .

كتم أحمد بدوي غيظه . . لكنه ظل يتبعها في نزهاتها اليومية حتى قبض على فرصته قرب الشاطئ . . وعند البحر . . اقترب منها وأخرج عقداً جميلاً ، وطلب منها أن تنحني ليلبسه لها بيد وباليد الأخرى سل المشط من تحت الجناح . . وعلى غفلة منها ألقاه في البحر في المساء عند عودتها وجدت صغيرها يحتضر رفرفت بجناحيها حوله . . فأفزعها عدم وجود المشط فانطلقت صوب «أحمد بدوي» فلم تجده . . تاهت في الأرض حزناً وعند كل كاهن أو عراف تقعي . .

* يا جليل . . يا صاحب الأمر والعصمة . .
هبني العصمة . . أُحِلّ الرجل وأُحرّمه . .

* أيتها العمياء . . رد بصرك أهون من أن أهبك العصمة . .
* لا أيها الكاهن القبيح . .
* إذن ابقي الحمامة المرأة . . العمياء البصيرة . . المأسورة الحرة . . البغي العفيفة . .

«فضة» . .

ليس من السهل شرح الرسالة أكثر «لعلامة» لكنه بعد حين سيعلم أنني وتلك الحمامة . . صنوان وأنه ووليد الحمامة شيء واحد . .

وليد الحمامة الذي ردت إليه الروح حين قبض عليه أحمد بدوي يحتضر فرخاً بزغب أبيض وناعم صاح به . .

* أنت ابن «أحمد بدوي» . . كن رجلاً واخرج من موتك إلى حياتي . .

وبجبروت رجال الكهوف وحماسهم طوى البحر بقدم واحدة ، ومن أفواه الجن انتزع خاتم سليمان وأصبح ملك البحار . . وكلما طوى بحراً بنى على شاطئه قصراً باحثاً بين حمام الدنيا عن أمه . . صارخاً في الجن والإنس .

* سآتي بها العاهرة حية أو ميتة . . أريدها أن تخبرني من أنا . .
* وابن الحمام يا فضة . . الذي يطوي البحار بقدم واحدة . . يعلم من هو . . يعلم أنه القوي ابن آدم والحمام . . عاش مراحل حياة الطيور والبشر وأكل من الأطباق طيبها ورديئها . .

لكن الحمامة الأكثر بعداً . . الأكثر توحداً بمطلبها الفريد في أن تكون العصمة بيدها لتختبر قدرتها وكينونتها وهي إنما ضيقت الخناق على نفسها بالمطلب الصعب . .

تلك هي مستقر فكرة المفكر . .

وأنا حين أحدثك عن نفسك . . فإنما هو بشعور تلك الحمامة المستهدفة حتى من وليدها . .

أذكر «علامة» أنك سألتني ذات مساء ثلاثة أسئلة صغيرة :

س١ : هل أنت سعيدة معي ؟ .

س٢ : هل أنت ندمانة على شيء تم بيننا ؟ .
س٣ : هل أنت خائفة ؟ .
توقفت أمام السؤال الثالث . .
بالفعل . . أنا خائفة . .
ولكن . . خوف على «علامة» أن يسقط في العادية ، وأن لا يكون ذلك الذي يؤثر في الأشياء ولا يتأثر بها ذاك هو الجمال . . الذي يوحي بالدهشة التي تتصاعد كلما تعمقت في معرفته . . معتقداً أنه رجل يفرغ رشاشه لظلمة الغابة . . فترتعد خوفاً خشية أن يفقد المحارب الشرس توهجه . . حين يصغي لتساؤل سرّي قلته يوماً «يا فضة» . .
* ما الذي يضر الكون لو عاش اثنان معاً في الدنيا بطريقتهما . . ولماذا وضع الله المشاعر والأحاسيس والرغبات في النفس البشرية ؟ ولماذا وجد في قاموس الديانات ما يسمى بالنفس الأمارة بالسوء ؟ .
. . .وما الذي يمكن أن أكونه غير حمامة ينهش وليدها ثديها ويحاكم سنينها . . فيتحول الحوار من قوة إلى ذل . .
. .«علامة» حين أحدثك عن نفسك وتستسلم لحديثي . . فأنا في مرحلة أعلى على يديك تكوين آخر . لا يزال في غربلة الخلق والتخلق ، ولا يلغي ذلك خروجي من دائرة الخوف . . إلى أن يثبت أن ابن الحمام ليس أسطورة اكتسبت صفة الخلود . . وكيف لنا أن نثبت ذلك إلا إذا أعطينا بعضنا صفة الأسطورة نفسها/ جمالها/ سحرها تقول لي فأكبّر . . أُكبّر . .
أنتِ . . غير . . غير . . والناس غير . .
يحدثني غيرك عني فأغير مجرى الحديث . . من قابلت . . ليست الحمامة العمياء حمامة أمنا حواء . . حمامة أحمد بدوي . . حمامة المطلب المستحيل . .
إنهن واحدة من اثنتين .
إما واحدة تتكلم من باب الانبهار والاندفاع العاطفي ، وتقول أشياء وأموراً وأنا بنفسي منها أدري .

أو أخرى تقول شيئاً تشعر به . . شيئاً جميلاً ولكنه وقتي . . وذاك الفعل لا يدوخني لأني لا أبحث عن كلمة إعجاب . .

حقيقة أن المرء يعشق الثناء . . ولكن ما كل كلام يعجب أو يقلب الرأس . .

ولا بد أن أعترف لك «يا فضة» . .

أن «علامة» مدهش بصدقه . . إلى درجة الغرابة ، ولعل كل أولئك الذين طاروا مع الريح . . خانتهم الطرق والمنعطفات . . وتفلتت من أيديهم قضيتهم التي يقاتلون من أجلها ذباب أنوفهم .

وما كانوا إلا قوماً . . أرثوا لنا . . تفاهاتهم . . ورسّخوا . . . من يقول .

أنا أحترمك . . وما أجمل دنيا أنت فيها . . بكل قناعاتي . . وكل جنوني . . ويقيني قلت يا «فضة» حين تسلل عسل حنجرته إلى أذني . .

* «علامة» أنا امرأة معلقة . .

* قال : أنت تشبهينني . .

* «فضة» . .

أشعر بالمرارة . .

وكيف لي أن أغير خريطة حياتي . . ووضعي الاجتماعي امرأة معلقة . .

هذا التعبير اللامنطقي تفسير لحالة هروب بين كلمتين : زوجتك نفسي . . وأنت طالق . .

امرأة زُج بها في المكان الوسط بين العبارتين . .

فاحتاطت للأمر تاركة التاريخ يزبد ويرغي بأخبار الحروب والفيضانات والقتل والاغتصاب ، وتقوقعت في زاوية حرجة من زوايا الجزيرة العربية عند حافة الجد العظيم . .

تقاسمت الحياة مع حيوانات الوادي وهوامه ورجاله ونسائه . . أشجاره وطيوره . . أشعلت جواها وجندت مشاعرها ، وأرهفت سمعها لكل لغات الكون . . ومنك «فضة» تعلمت الصمت . . ومن أمها الهروب .

وشربت على يد «ثامر» كؤوس الخوف .

واستعارت من النجم نظرته الطويلة إلى الدنيا والناس والحياة كل ذلك .
جعلت «علامة» يغمض عينيه ويتكىء على حافة مكتبه هاتفاً :
* زيديني . .
ثم يتساءل بحذر . .لديك قدرة غير عادية على التأمل واستخلاص الأشياء . . ما تقولينه عني يستهويني . . أنت بكل بساطة تعيدين اكتشافي وأنا معك سعيد . . ومستمتع وأشعر أن ما فيّ كله يتحرك ويرقص . . وعلى مدى السنوات كنت غريباً . . وحين أتيت حدثتني عن نفسي بأشياء لا أعرفها . .
وأعتقد يا صديقتي . . أننا بدون أولئك الذين لا يشبهوننا كائنات بلا ذاكرة . .
«فضة» لا تسأليني عن جرأتي في الاعتراف وصرختي فوق قبرك . .
* أنا أحب «علامة» حقيقة . .
أتحدى بها إلى يوم النفخ في الصور . .
ذاك البيان الرباني
الذي يعلن للعالمين الخروج من الحياة والرحيل إلى اللامعقول قائلاً لهم . .
الآن أفتح لكم أوراق الغيب . .
والغيب في خبري المغلق صوت «علامة» ليلة اعترف بصدق الرجل الذي خلفته العاصفة واقفاً على قدميه ينفض غبار الغضب الذي طار بغيره . . قائلاً لي في خشوع :
اسمعي . . . استعرضت حياتي كلها . . . . شريط طويل أمامي
متسائلاً ومفكراً . .
طيلة عمري وأنا أسير بهدوء ، وليس من السهل أن أستسلم لتأثير كائن آخر . . لأنني أنا الذي أمسك بخيوط اللعبة . . ودائماً أتحكم في الظروف كلها . . بحيث أجيّرها كما أريد وكما أخطط لها .
وهذه المسيرة قمة الراحة . .
وفجأة وجدتني مرتبطاً بك إلى درجة لا أتخيلها . .

يلح عليّ سماع صوتك . . وأتمناك قربي في كل لحظات يومي . . وكل شيء جميل يذكرني بك . . وأي أمر سيئ أتذكرك فيه . .

وهذا كله لم أقع في أسره يوماً . . ووجدتني مستسلماً لهذا الإحساس . . إلى درجة تحيرني .

ولعل ذلك يثير تساؤلي مرة ثانية . .

فمن المحتمل أن الذي كنت أريده ولا أعلم به منذ زمن بعيد لا بد أن يأتي هكذا ، ولأني لم أتعود عليه . . أراه مسيطراً عليّ بشكل نهائي . . لكن اعلمي أن القضية منتهية بالنسبة لي . .

فأنا قد تجاوزت الرومانسية منذ فترة بعيدة ، لكنني أحيا الواقع بجو رومانسي . .

خليط بديع أحياه معك وأعطيه لك . .

مزيج يعطيني المتعة الداخلية التي تعيش فترات أطول . . للأمام . . شيء أتمناه وحصل ، ولكنه لم يحدث بشكله الجاف المتوقع . . كما في المرحلة الواقعية . . ولم يأخذ شكل الحلم المرفوض . .

معك أصبح للآه . . لون .

وأصبحت للأشياء . . طراوة . . ناعمة . . ولها روح . . فتعالي . . نخلط الحسي والخيالي في نفس اللحظة المعتقلة من الزمن البخيل . .

نمسك بالحدين . . ونمزج معها الكأس الذي نشربه نصنع سكرتنا ونبيذنا . . ونشرب نخب العمر الآتي . .

. . . «فضة» . .

هل تذكرين «زينة بنت الرعيان» . .

يوم كانت تصرخ في محاولة لعسف اللغة التي تعطي قداسة الرجولة وعنفوانها «للسبتي» . .

فعجزت . . وألجمني الخوف عن الكلام . .

الآن أستطيع أن أعطي الوصف الذي عجزت عن ترجمته «زينة» لحبيبها . .

كم أحب الله . . الذي خلق من أجلي كائناً مختلفاً بنكهة مميزة لا علاقة لها بالأرض ولا بالسماء . . ولا بالموت ولا بالحياة . .ولا بالجن ولا بالإنس

«علامة» ناموس يميتك ويحييك .

فأعطِ كلمتك الأخيرة «يا فضة» . .

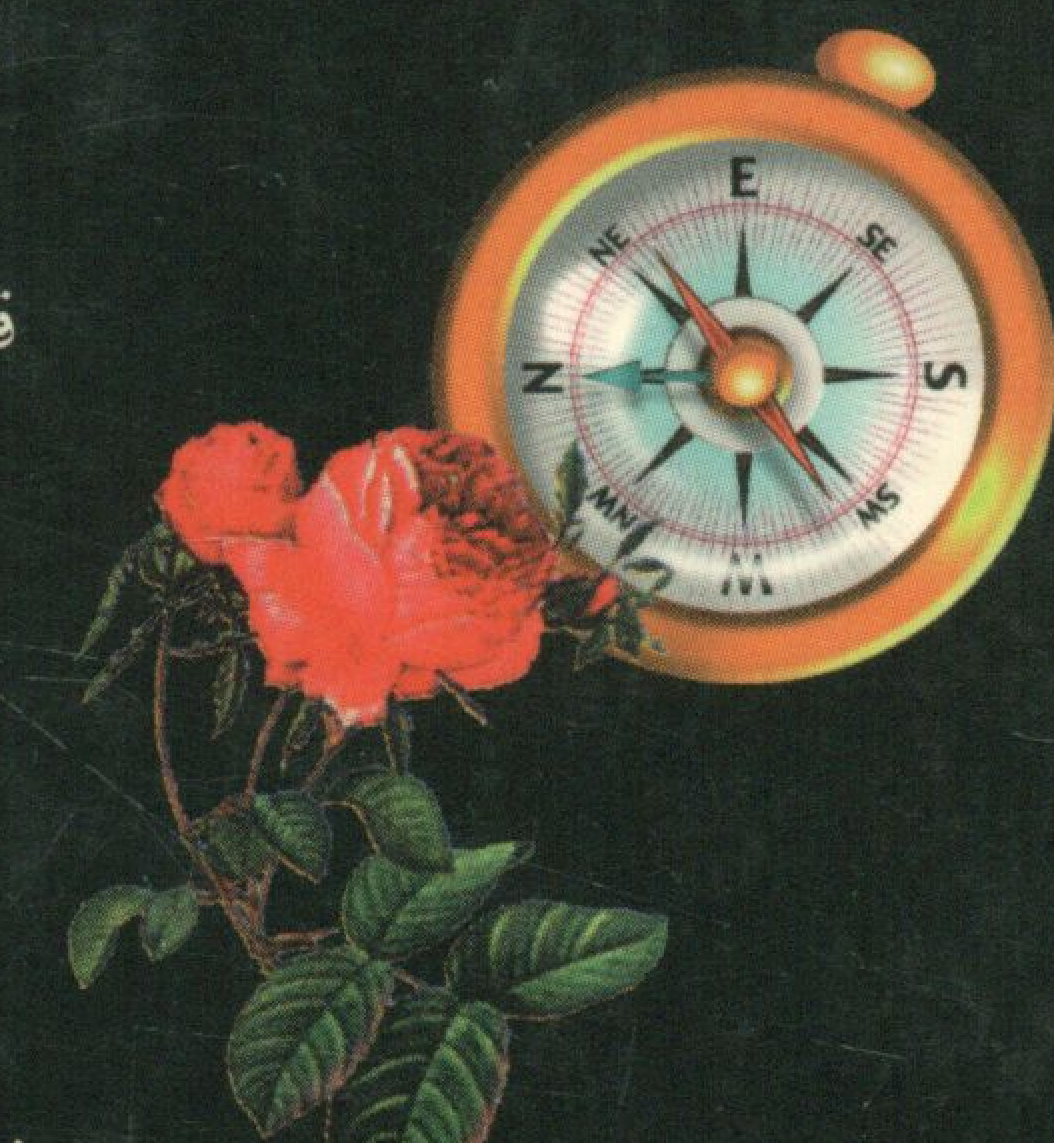
تنتصبين في الأعالى ، وتعزفين بصوت مجنح هامسة في أذني . . .

أين علامة ؟

انتهى

NOVEL

وجهة البوصلة



قرأت السطر الأوّل ثمّ أجّلت الباقي .. لحين خروجي من المكتب ..

بعد خروجي قرأت جزءاً ثمّ أجّلت حتّى أصلّي، ولا أدري كم عدد الركعات .. ثمّ هممت بقراءتها فتنبّهت لموعد العشاء.

أمسكت بقطعة بيتزا وعبوة عصير، وخرجت نحو المزارع أمشي على هدي نور البوّابات الكبيرة، والورقة بيدي تحت فانوس الباب الضخم .. مقعد مهجور .. جلست على حافّته وفردت الورقة الّتي اتّسخت حوافّها بزيت « البيتزا ». شعرت أنّني متعبة، وأنّني أحتاج إليك !

« فضّة » لتقرئيها معي.

أهملت كلّ الأسطر بعد قراءتها ..

وتوقّفت عند توقيع « علامة » وعبارته الّتي تساوي كلّ رسائل العشّاق في الدنيا.

« كلّ التواريخ جميلة » !

بلعت آخر قطعة من البيتزا، ومسحت يدي بتنجيد المقعد المغبّر، وأصدرت فرقعة شديدة بعلبة العصير الّتي حقنتها بالهواء ..

سكينة تملأ الدنيا !!



